

الكتاب الأول

قبل اكتمال القرن

ذكــرى نادر

المجلس الأعلى للثقافة

رواية

قبل اكتمال القرن

لجنة الكتاب الأول

إبراهيم فتحى (مقرراً)
إبراهيم عبد المجيد
حسين حمودة
خيرى شلبى
عبد العال الحمامصى
كمال رمزى
مجدى توفيق
محمد رجاء عيد
محمد عبده محجوب
محمد كشيك
مهدى بندق
يسرى حسان

مدير التحرير / **منتصر القفاش**

إخراج فنى / **هشام نوار**

التصميم الأساسى للغلاف محيى الدين اللباد + أحمد اللباد
لوحة الغلاف : هشام نوار

الكتاب الأول
- ٤٣ -

قبل اكتمال القرن

رواية

ذكرى نادر



٢٠٠١

لن يصدق أحد ما آلت إليه عائلة الرضواني ، فمنذ أن استقرت قبل أكثر من نصف قرن تقريباً في العاصمة المتجهمة تحت غبار الصيف تاركة جذورها في المدينة الوسطى ، يشقى فيها نهرها المتدفق ، مخلفة أمجاداً مستحيلة الذكر ، حتى تغيرت أمور كثيرة باتت مدعاة لاستغراب المعمرين وحكماء العشائر ممن عاصروا تلك العائلة وشهدوا تكوين صياغات مجيدة لشجرة عائلية عتيقة ، انحدرت بأمجادها من خيام الصحراء ليستقر الأمر أخيراً بأن تلقى الابنة الصغرى بالرقعة العائلية المكتوبة في جلد غزال قديم ، في العشرة السادسة لهذا القرن ، في المنقلة الباردة لتوقد نارها الضئيلة ، في ليلة جليدية ، انطلق فيها شيطان الزمهرير عابثاً في عظام أولادها الستة المتضورين جوعاً المتربصين بالنار لاصطياد دفئها الباهت ، حتى أنها قبل ذلك وبلحظة يأس خبيثة منحت بناتها عوضا عن الدمى ، الوسام الملكي الطاهر الذي شرف فيه الملك صدر جدهم عبد الرحمن الملقب بـ (الملا) بعد أن باع إحدى مزارعه فاتحاً بثمنها مدرسة لتعليم الأطفال الحفاة الذين كانوا يلتهمون الطباشير كأنه قطع حلوى ، ويجلسون فاغري الأفواه ينشون الذباب المحلق حولهم ، ويرددون كالببغاوات ببله شديد أناشيد صعبة المعاني ، كان الملا ينظمها بنفسه ، حالماً بالفروسية المجيدة ، تاركاً لسائسه وحافظ أسراره وآخر مخلفات جبروته أن يلحنها على صوت ربابته الأثرية المتوارثة لأبيه عن جده ، معتبراً إياها عنوان سلالته الصغيرة ، ثم ما لبث بعد ذلك بسنوات كثيرة أن اشتهر بها وذاع صيته في البلاد ، مسدلاً آخر ستارة يمكن أن ترفع على مسرح تاريخ الرضوانية ، إلا إن ستاراً آخر مختلفاً أسس حين افتتحت إحدى بنات الجيل الرضواني الثالث قبل نهاية هذا القرن ، بيتاً للهو الشهواني الرفيع !

على كورنيش النهر البغدادى المتباطئ فى صيف قائظ ، أنهى الملا بناء آخر دوره والوحيدة المتبقية من عرش أملاكه وأطيانه الممتدة . فلم يجد سبيلا ليمنح الآخرين بعض الخبز غير أن يقتسم معهم أرضه المدتدة من الطريق الأسفلتى الوحيد فى البلدة وحتى بدايات الجزيرة .. زارعاً فيها القمح الأشقر ، امتقع وجه والده البدين المصاب بمرض النقرس المؤلم ، وقد حول اصابع قدميه المنتفخة إلى قروح مفتوحة ، مباهياً بأنه داء الشبع ومرض الملوك حين علم بأمر الأرض ، فأرسل فارساً يبحث عنه فوجده فى أحضان شمرية ذات عينين رماديتين وقحتين وشعر ناعم ، حملها معه على حصانه ، يركض خلفه صبى الربابة . ألقى بها عند باب الحجرة الواسعة ، بجسارة أعلن لمريض النقرس .

- إنها زوجتى !

فسحب المريض شهيقاً قوياً لم يتمكن من الانحدار به إلى صدره ، فمات مخنوقاً بالدهشة مفتوح العينين .

لم تكن شطحات عبد الرحمن ، بدمه المتحمس غريبة لوالده طيب القلب بكرشه الودود. كان دوماً مستعداً لتقبل كل أهوائه المجنونة ، وشبابه المشحون بفورة سائبة ، يعرف هو نفسه أن بعض جذورها تعود إليه أصلا ، فقد فزع حقاً وهو يشاهد نزال ولده الساحق فى جولة مصارعة حتى الموت مع التركى الضخم (حكيم دادا) ليتركه على الأرض مبحلقاً فى خجل ، بخسارته الأخيرة والوحيدة .

وصمد الرضوانى الكبير مجبراً حتى النهاية ، وهو يراقب الوقت يمضى على ابنه بمكوث طويل تحت مياه دجلة الكانونية ، فى رهان على إثبات القدرة فى الغطس . فلبث عبد الرحمن بنزق تحت الماء الرمادى اللاسع ببرودة شتائية مبكية ، إلى وقت خيالى ، حتى كاد الرضوانى البدين أن يقطع الأمل

فى عـودة وحيده ، لكنه خرج فى اللحظة النهائية المتبقية ، متجمداً منتشياً بنصره ، كان يعرف أن الفتى الذى درس فى القسطنطينية ، وعاد بلغة فرنسية مغرداً بها كبلبل لبق، وإنكليزية لا بأس بها ، رافضاً تعلم كلمة تركية واحدة ، مــترجـماً بصراحة أكيدة كرهه لهم ، كان كمن يحمل فى قلبه قلقاً مفزعاً ، فلا يكاد يلبث فى مكان لحظة واحدة ، كـأنه ريح شمـالية كـاسحة طائشة ، فكان يسـابق خيـوله ليـعـود من جولاته مـهـدوداً ، مـبللاً بالعـرق ، حـتى أن (الرضوانى) تفهم ، بقلب كبير وبشئ من الأسف ، امتـعـاض الفتى من جده الضـابط المبـجل فى الجيش التـركى ، وحـامـل إحدى الرايات الإسـلامـيـة فى غزوات الموت ، وإن لم يتـمكن من إخماد كرهه للأتراك ، ومناوشاته النزقة مع جباة الضرائب قساة القلوب ، فكان يدفع من كيسه الخـاص عـن الفـلاحين التـعـسـاء غيـر القـادرين . وواظب بصـبـر يحـثـه حبـه الكبـيـر ، فـى نصب مصدات واقـية تكبح جماح الفتى ، أرعبه أن يرى الحـقد يكبـر فـى عيـنى الفـتــى ، بـعـد سنـوات لا بـأس بهـا سيـقـدّر عبـد الرحمن باحتـرام لا غبـار عليه مشاعر أبيه . حين يلتاع قلبه لاهثاً خلف مصير أبنائه المغلف بالحماس وعتمة المجهول .

استفزت غضبة عبد الرحمن مع بداية الزحف الإنكليزى الأشقر بسراويلهم القـصـيـرة ومـشـيـتـهم العـسـكرية المنضـبـطة . طلب الأتراك العـون من رؤوس العشائر ووجهائها ، قـيـل لهم : راية المسلمين وخليـفـتـها عـلى الأرض تطلب دماءكم !

فنكس الرجال رؤوساً فقدت الحيلة والخيار .

دأب الرضوانى يحرض ابنه على الهدوء ، وتقبل الأمر الواقع. و(شــر العثـمـانى الذى تعرفـه أفضـل مـن خيـر غيـر معلوم). و عـبـد الرحـمن المتحمس ، يلوب فى صدره انفجار تؤججه الرغبة فى التخلص من كل ما هو أجنبى كالح ، كـان يرى الجموع البشرية ، يقتلها الجوع ولا يملك شيئاً ، فيثور

فى صدره شعور بالإجحاف مشوب بحقد لاذع لجده حامل راية لواء الجيش العثمانى ، فبرغم سنواته الستين . إلا أنه كان ينازل كل ليلة جسد جارية مختلفة ، محتسياً من رحيق كلمات الغضة خمراً معتقة ، يدلقها بتلذذ من الرقبة ، فتخر باردة فوق الجلد الناصع المقشعر ، متعلقة فى آخر حبة فى العنقود الناضج ، ليصحو باكراً على صهوة جواده ، خلفه جنوده يركضون ، يلهثون بخاراً يتبدد خفيفاً فى برودة الأصباح الشتوية .

بدأ الإنكليز قبل الحرب العظمى الأولى بإنزال قطاعاتهم فى جنوب العراق ، صاعدين بسفنهم المعربدة أعلى نهر دجلة ، ساحقين فى طريقهم كل مايصادفهم من بقايا عثمانية متناثرة ، محتلين القرى الضعيفة الواهنة تحت إرهاب سنوات طويلة من الاحتلال التركى ، يخفق علمهم بألوانه البراقة ، يقف تحته قائدهم الجثة (طاوزند) بجذعه القصير وساقيه الطويلتين كطائر اللقلق ، متسمعاً لبوق المغيب ، يلفه حلم ساخن ، فى أن يكون حاكماً أكيداً لبلاد على بابا ومغامريه أربعين الجرار السحرية ، الذين سيسرقون حلمه بالرياسة المبجلة على أراضى قدم آدم الأولى ، وجذع لذته الأرضية . جنة الدموع المخيبة لآمال جنوده الزاحفين إلى غبار الأساطير والحكايات ، ليجدوا باشمئزاز كبير بلاداً ، لاتشبه الحلم ، تحولت بعد قرون طويلة من الاستلاب إلى نفاية مطحونة ، وجموع هالكة تحمل عيوناً تجول فيها نظرات متسائلة عن مصيرها ، غير مدركة فى أية كفة سيدار زمنها .

صعد (طاوزند) من أسفل النهر على ظهر قاربه المدرع "كوميت" المخيف يتابع بناظور أحادى العين تحركات جنوده وسواتر أعدائهم ، مؤشراً على خرائط وضعت على طاولة خشب صغيرة أعدت لهذا الغرض متابعاً الزحف السريع لفلول القائد التركى حليم بك ، محققاً فى معارك خاطفة ، نصراً ملهماً للأحلام ، استحق عليه شكر الوايت هول وأوسمة حربية لامعة زينت صدره .

اندحرت بهشاشة مريبة وفظيعة ، تحت الأنظار المستغربة لمواطنى الأرض الحزينة ، جيوش القوات التركية المتخندقة فى أهرامات متفرقة ضعيفة ، وتقطعت تحت الحراب الإنكليزية أجساد جنودهم الذين أثاروا بعض الشفقة فى قلوب قاتليهم ، حتى نُصب ، فى فجر عج بأبخرة تركية ، القائدة نور الدين خلفاً لـ حليم بك بنعومته المندحرة ، ليعيد لبرهة وجيزة ، إحياء الفكرة المروعة القائلة بأنه لن ينبت عشب فى أرض تطأها قدم عثمانية ، سيجف الماء ولن تحلم سنبلة بزغب النضوج ، وستعلو دوماً سيوفهم يقطر من أنصالها دم المتذمرين .

حافظ طاوزند على حظه الطيب ، ، فربح بسرعة محيرة معاركه الخمس الأولى ، فانتعش كديك المصارعة ، واندفع صاعداً النهر الملتوى بسحنته المتكدرة ، ما كان ليتوقف سوى لأيام قليلة ، يسترد فيها جنوده بعض أنفاسهم ، يتقاسمهم إجهاد السفر المستمر وحملات جيوش البعوض الضخمة التى لها جناحا عصفور صغير ، فتورمت وجوههم حقداً وازدراءً لأرض جنة الدموع الأولى ومخزن الحبوب الأرضى الأول ، بترابه نطقت بلغة ذهبية أولى حبات الحنطة ، فكان يراقبهم بضجر مستعجلاً الوصول إلى بغداد ، حيث ينتظر تحقيق حلمه ، يتابعهم بعيون مسرنمة وهم يجوبون شوارع مدينة العمارة المستسلمة بلا قتل يتلصصون بشبق على أجساد النسوة المتلفعات بعباءات سود يغلفن بها عالمهن السحرى ، تنطلق شهوتهم تصعدها خيالاتهم المحمومة بنساء على بابا وغلالهن الرقيقة فتزدحم الرغبات بالجنود الشقر المفارقين منذ شهور عطور الإناث .

كان (طاوزند) يدور فى الأزقة الهرمة القذرة مشمئزاً ، هازاً بحركة رشيقة عصاه الخفيفة ، متسمعاً شجارات جنوده الصاخبة فى لعبة (اللكو) المثيرة المنهكة للأعصاب ، يستنزفون فيها كل الروبيات المختزنة فى جيوبهم ، لا يعرفون ماذا يفعلون بها فى أرض ليس فيها متعة ما ، أرض خداعة اشتد

اخضرار أفقها يناديهم من البحر ، فكانوا يتلهفون الريح أن تشتد ليصلوا إلى جنة تفاح المتعة ، ليستفيقوا ثمة من الحلم على الصحراء وهى تلتهم بجوفها الحارق اخضرار أحلامهم ، وبتلع رملها الساخن نشاطهم ، فراحوا فى فترات مكوثهم المملة بين حمى المعارك يكتبون رسائل إلى بلادهم المطيرة ، متشوقين لضبابها العميق ، عاكفين على تربية حيوانات مختارة من نعاج يربطونها بأشرطة الهدايا ، مطلقين عليها أسماء نساء أحلامهم ، وديوك رومية ، كان أحدها ، وقد ذبح ليلة عيد الفصح الربانى الساقط تحت رحمة الحصار التركى المحكم ، قبل ذبحه ، كان يبيت كل ليلة فى أحضان ضابط مختلف ، ليتفتق الصباح عن نوادر الليلة الماضية حتى اعتاد الديك اللعبة ، وأحبها ، فكان يجد سبيله الخاص فى العثور على شريك الليلة الأخرى ، فيحتك بساقه بحركات رشيقة موحية ، وقد وجد بطنه مليئاً بأشياء غريبة لم تُهضم ، أزرار ضائعة ما زالت تبرق ، أقلام ملونة كان يصادفها فى جولات غنجه ، وسام صغير مغسول بماءمعدته . وبضجة كبيرة تحت وقع الدهشة وجدت أيضاً إبرة الكرامافون المختفية منذ شهر منصرم ، تمكن جندى حاذق أن يعيد إلى الاله الحياة ، فجلسوا فى ليلة العيد ، تعلو بين آهاتهم أصوات الموسيقى العالية ، يجففون دموع الأشواق ، وهو يتسمعون لأغانى وطنهم الضبابى .

على امتداد الأشهر الأولى للحرب الكونية ، أحاطت بـ (الملا) مخاوف أخبارها يشتد فيها القتال والتكهنات . كان الرضوانى الكبير بكرش نعمته يجلس مسقطاً معظم ثقل جسده على الوسائد العالية تحت مرفقيه ، مريحاً نفسه بوضع مائل يناسب التخلص من ارتفاع بطنه ، مصغياً لأخبار الحرب ، مضيعا بين ولائه العثمانى ووالده ذائع الصيت وبين رغبات ولده عبد الرحمن المنهمك فى دسائس غير معلن عنها بعد فى مؤخرة الجيشين المنهمكين فى منازلات صعبة لم تتضح معالمها بعد ، محذراً سامعيه من غضب برلين التى صنعت طيراً عملاقاً يحمل ملاقط ضخمة بمغانط كبيرة ستشفط بلا رحمة

أمعاء معارضيها وأعدائها ، ، وقد تبدأ بملك فرنسا ، لتلحق به ملك بريطانيا وقيصر روسيا إذا لزم الأمر ، لكنه يتوقف قليلا ليتساءل بجدية :

- ياجماعة .. يقال إن قيصر روسيا اعتنق الإسلام . أليس حراماً أن نقاتل مسلماً ؟ والله إن الأمر أشبه بالورطة .

وبعد أن تستعصى الإجابة على لغز محير كهذا ، يستغرق فى أحلامه الخاصة ، فاتحاً أبواب بيته وقلبه الكريم للجياع يتسولون كسرة الخبز .

اشتد الصراع بين طاوزند ونور الدين وثخنت جراح الحرب بين كر و فر . فى تلك الليالى وجد عبد الرحمن خلاصه ؛ ففى ليلة صافية كثيرة النجوم تجمع حول النار شباب العشيرة ، يعزف لهم على الربابة ، حافظ سره ، ورفيقه الدائم ، قرر الرضوانى الصغير بقلب صلب عامر بالثأر من المهانة أنه سيحارب كلا الطرفين . فى البداية لم يفهم الشباب الأمر : - كيف تكون عدواً لاثنين ؟ لابد أن تكون فى إحدى الجهتين تركيا - أم كافر بريطانيا ، لاسمح الله .

احتاج الملا إلى صبر طويل ليشرح لهم ، لكنه بسرعة خيالية استطاع أن يثير حماسهم بأحلام البطولة وانتزاع أرض الرب الأولى من أيدى المحتلين . بصوت عظيم آسر سألهم : - أأنتم عبيد لأحد ؟

استنفرت دماء الشباب ، وأطلقوا من بنادقهم المحشوة حديثاً ، عيارات غاضبة ، ظنها الشيوخ المتسامرون تحت الخيمة الرضوانية نزقاً صبيانياً ، لم يدركوا للحظة أنها ولادة عصبة جديدة ، سيقودها الرضوانى العنيد فى هجمات متكررة ، موجعة أحياناً لكلا العدوين ، ومع اشتداد الحرب على جبهاتها العالمية ، تزعم الرضوانى تلك العصبة تحملهم عزائم حلم كبير بأن يكونوا السادة على ارضهم . فكان يَغيُر وصحبه ممتطياً صهوة جواد ناهض ، متعصبا بعلمٍ أخضر ، على ثكنات الجيش العثمانى المشرد يسطو فى بادئ

الأمر على مخازن غلاله وعتاده ، موزعاً الخبز والسلاح للمهرة من الرجال ، فدفع الجد الضابط الكبير ثمن الغزوات باهضاً ، فتهدل شارباه فى زنزانة رطبة ، تحت أرض اسطنبول دخلها تخفره كوكبة من جنده السابقين متجرعاً مرارة جرأة حفيده ، ليموت بصحبة مجده المشؤوم المضيع فى أرض غريبة وبعيدة ، على حصير باردٍ مهترىء ، ، تتكوم تحته الحشرات بحثاً عن الدفء ، استنزف آخر أشواقه لحفيده متمنياً برغم عذابه الممض أن يضرب الفتى الرضوانى بكل قوته جيش الأتراك خائنى العهد . وحتى لحظة كان يفترضُ أن يقتحم حفيده باب زنزانته ويحرره ، فكان قبره أقرب إليه من أحلامه ، فدفن بصمت لا يليق به ، بلا شاهدة تحمل اسمه ، وحيداً تحف به جنيات حلم العودة . أقسم الرضوانى الكبير فيما بعد أنه كان يرى أباه فى زيه العسكرى ، فى رؤيا الفجر الصادقة ، مجرداً من تلك الأزرار الذهبية الزاهية ، ومن أوسمة مجده المستعار الذى فطن إلى زيفه لحظة موته بلا جدوى ، ينطق اسم عبد الرحمن الرضوانى حفيده الجبار بخشوع آسر .

طيلة الشهور المنقضية على حصار قوات نور الدين المطبقة خناقها بقوة على عجرفة طاوزند بحبل الجوع ، ذبلت فيها أحلامه المنفلته إلى بغداد حيث ما زال يؤمل بأن يفتح مغاراتها السرية ، معتلياً كرسى حكمها باسم عرش إمبراطورية شمس لا تغيب ، لوع عبد الرحمن ، بغزوات مرهقة كلا الطرفين بدهاء ضبع ورشاقة أفعى .

كان عبد الرحمن يراقب بحذر شديد الجيش الإنكليزى المنسحب من معركة اللج الخاسرة قبل أن يتمكن من مداراة جراحه الثخينة الموجعة فى معركة طيسفون(*) التى سبقتها تاركاً فيها جثث قتلاه فى العراء ..يعوى جرحاه من الرهبة والأسر ، فتحصن ، فى كَوت الامارة ونهرها الملتف كالأنشوطة حول رقبة المدينة وكتفيها ، تطوقه بحذق قوات نور الدين المنتعشة

(*) معركة المدائن التى خسرت فيها القوات الانكليزية الحرب أمام القوات التركية .

بنتائج معارك لن تغير شيئاً من مستقبل الحرب الكبرى ، يتبعه خليل باشا المكلف من الباب العالى بنيل معالى معارك راية الإسلام والثأر التركى العنيد فسار بجيش الإسناد مخلفا فراش مرضه ، قاطعا الطريق من الموصل إلى الكوت ، بمسيرة ثلاثة أيام ، نفق خلالها من الإنهاك الكثير من الجياد الأصيلة ، ليكون قريباً من صليل المعركة يتناولها ببركاته المنتصرة . فى تلك الليالى ، كان الفوج الصغير بقيادة الرضوانى غير قادر على إقناع من هم أكبر منهم سناً ، الذين أظهروا ولاًء لا بأس به لخليفة المسلمين الثانى الراكع خمس مرات يومياً لصاحب القدرة الكلية ، كان عبد الرحمن الذى لم يلقب بـ الملا بعد ، يشرح للشيوخ بما تيسر له من علم وحس نادر فى استبصار مبكر للأمور ، ليقف فى النهاية عاجزاً أمام تلك العقول التى بنيت من صخور الكلس . قال : - ليس هناك فرق كبير بين اقدام التركى المسمومة ، واقدام الإنكليزى المطلوقة برباط ابيض طويل وحذاء ثقيل ، واحتقار لنا يرتديه تحت خوذته الفلينية ! استغرب الشيوخ كيف له أن لايميز بين مسلم يتوضأ خمس مرات ، وكافر مأفون ، فعزوا الأمر برمته إلى بيوض شيطانية خلفها الجن فى رأس الفتى ، واستعاذوا بالله من رعب تفقيسها ، الا أن الرضوانى البدين ، بقلب خافق بالحب لولده الوحيد أكد لهم أن الأمر لا يعدو عن كونه ، نزق الشباب وطيش فورات الدماء . لكنهم بخيبة أمل كبيرة وإحساس بالخذلان ، اقتنعوا برأيه ، بعد أن شاهدوا بأعينهم أجساد الناس الهاربة إلى الأترك المسلمين من وحشية الإنكليز والجوع، يستغيثون باللهّ ربهم، فيقطعون المسافة الفاصلة بين العدوين مهرولين وهم يصرخون (الله اكبر) .. (الله واحد) .. فترتطم بأجسادهم رصاصات القناصة التركية المتأنية تختار تزجية للوقت والملل المواقع المتراهن عليها ، فكان المقتولون يسقطون متغرغرين بالدم ، حيث تسبح غائصة كلمات الرب ، ويخنق صوت الشهادة قبل منتهاها ،

فكانت حيرة الشيوخ مريرة قاسية فى كل مرة يقلبون فيها أجساد القتلى يتساءلون إن كانوا يسجدون لرب إسلام آخر مختلف ؟!

لم يعد فى المدينة ما يؤكل ، هربت القطط منذ حين ، وأكل آخر الكلاب بشعور كبير من القرف ، ازدادت غزوات الإنكليز لبيوت سكان كوت الامارة المحاصرة بنيران الأتراك ، بحثاً عن الحبوب ، واكتشفوا المكمن السرى لمخزن حبوب الرضوانى ببراعة دليل هندى ضامر ، أشار إلى جدار منتفخ علت بطنه ، ومع اول الحراب بقرت بطن الجدار المنتفخ ، انفجر الكنز الأشقر وسط صيحات نسوة الرضوانية يهتز كرش الأب بحنق لا مثيل له . أقتحم الديوان ليتحول إلى متراس ضخم ، سكنه الجنود الهنود مدهونو الشعر بزيوت نفاذة تسيل مع اشتداد حر الظهيرة على رقابهم . أختفت كل الحشائش وراحت الحيوانات لشدة جوعها تأكل نفاياتها القليلة ، ولم يبق من التمور المدفونة بشكل جيد فى جرار تحت الأرض حبة واحدة. كان منظر المدينة مفزعاً فى بؤسه ، فيقضى الرجال سحابة نهارهم فى تجمعات صغيرة ، يقضمون فيها حزنهم ، مدخنين جذور عرق السوس المحروق ، فتسود وجوههم ، وتمتلئ رئاتهم بالسخام ، مراقبين بلا رثاء الجنود الشقر بشعورهم الشعثة وثيابهم المتهرئة ، يترنحون من الجوع ، ويتذكرون وهو يخبئون ابتسامات الشماتة ، كيف كانوا قبل حين يتبخترون كالطاوويس متباهين بلون بشرتهم الزاهى .

لم يقو الأطفال على اللعب فى الأزقة المتربة ، وخفتت أصواتهم وغدت بطونهم كقرب منفوخة بغازات الجوع ، تسرح على وجوههم فى انقضاض منظم أفواج الذباب ، غير قادرين على إبعادها عنهم ، تلهوا أصابعهم بالرمال الخشنة ، متسمعين إلى أصوات الجندرمة القساة يدعون بعضهم بتبجح وبأصوات عالية مقصودة إلى الطعام ، ورائحة الخبز والشواء تثير الدموع فى عيون الأمهات اللاتى أخذن يدفن تباعاً ، أجساد أطفالهن ليجلسن ثمة غير قادرات على أداء واجبات العزاء الكامل ، بجانب قبور صغيرة فقيرة ،

سرعان ما تطأها الأقدام ، بصمت جبار بلا أدنى احساس بدنو الفرج كانت الليالى الكانونية الباردة أشد قسوة من غيرها ، فلم يعد هناك مايحتطب ، فقد اقتلع الجنود منذ امد بعيد كل الأبواب والشبابيك والشرفات الخشبية المزركشة المنحوتة برشاقة فاتنة ، أضاءت بدفئها معسكر الإنكليز . انكفأت المدينة المنكوبة تحت وابل القصف التركى لتحيا لعنة موت بطيء محكم بين نار عدوين وجوع معذب .

فى ليلة مدلهمة ، سوف يتذكرها الاثنان فيما بعد ، التقى عبد الرحمن وجهاً لوجه لقاءه الأول بالقائد طاوزند ، يتبعه كلبه فيدو. الذى سيأكله جنوده وهم يبكون شوقاً اليه ، يتخيلون مع كل لقمة يزدردونها عنوة ، ذيله المهتز فرحاً بلقائهم ، لاعقاً ساق القائد المكشوف تحت بنطاله القصير. شتم طاوزند ببذاءة واحتقار الشاب الذى تجرأ على الوقوف أمامه دون أن ينحنى ، بلغة إنكليزية سليمة رد عليه عبد الرحمن :

– صن لسانك أيها الخنزير !

وقبل أن تعتقه مفاجأة اللحظة ، تبخر الفتى ، ابتلعته الظلمة بصمتها المهيب الذى لم يطمئن إليه طاوزند مذ وطأت قدماه أرض الأعاجيب الغادرة المخلفة فى قلبه حقدا لن تطفئه كل مياه التايمز الرصاصية القاتمة ، فى تلك اللحظة أطبق على طاوزند ندم فادح ، لأنه لم يقتله ، ولأنه هجس أنه لن ينسى هذا الوجه مدى الحياة . فألهب من غضبه ظهر كلبه الوفى فيدو ، بعصاه اللينة تخطف الريح كلما هبطت لتسحب منه عواءً ذليلاً متوجعاًدون أن يتجرأ على الهرب ، ليواسيه بعد انكسار فورة الغضب بكلمات لطيفة ولعق مواضع الجراح . كما أنه تنازل لفيدو عن وجبة عشائه .

فى تلك الليلة ، وقبل أن يتلقى خبر اندلاع حريق كبير فى أكداس العتاد ، انطلق الرصاص كمهرجان يُبعثر ظلمة الليل ، دوت أصابع الديناميت

والبارود تُشعل نافورات مضيئة . كنس نعاس الجنود ، وبهرت السكينة ، انسل المهاجمون فى غموض المفاجأة ، كأفاعى الماء الماكرة بين ظفائر البردى المتماسكة الأسرار . ولم ينس المنسحبون فى غفلة من الجنود الشقر أن يجروا خلفهم على قراب الماعز المنفوخة جيداً اكياس الطحين التنانير إلى الفجر بنشوة عطر الخبز المسروق من الجهة الاخرى للشاطئ ، تاركين نور الدين يشتاط غضباً ، وهو يرى عن بعدٍ شرارات النار تتقافز فرحة ، وزغاريد متعبة لاهثة ، فى ذلك اليوم أُقتيد الرضوانى الجد متهماً بجرم لم يُدركه ولم تسعفه خدماته الجليلة للتاج العثمانى .

نُسجت بحنان وشمم أساطير مذهلة عن فتيان الإمارة وشراستهم وغنى فتى الربابة لبطولاتهم أغانى شجية ، كانت نساء القبائل يرددنها وهن يملأن جرار الماء من السواقى العكرة ، وأعترفت الشمرية بعد سنوات لا بأس بها ، إنها كانت مغرمة بفتى الرضوانية قبل أن تراه وقد حدثها قلبها بلقائها معه ، فلم يكن ذاك الفجر مصادفة بقدر ما كان رغبة مخطط لها ، حين كانت ترتاد بلا ملل وبطول أناة الأماكن التى يشاع ارتيادها ، لم يصدقها الملا عبد الرحمن ، حين أخبرته وهى تمشط شعرها الطويل بغنج ، وإن كان قد انتفخ بالبهجة والغرور ، إلا أنه لم يتمكن من إقناع نفسه أن تلك الصبية قادرة على الإيقاع به ، فى الوقت الذى عجز الأتراك والانكليز عن ذلك ، لكنها ببساطة شديدة كانت الحقيقة .

بعد ١٤٧ يوماً كاملة من المعاناة الصعبة المنهكة بكل تفاصيلها وفشل ثلاث محاولات إنكليزية لفك الحصار التركى ، واندحار أكثر من فرقتين لشقر السراويل القصيرة ، أعلن طاوزند فى صباح ميت وبكبرياء متفسخة من غازات الجوع ، الاستسلام ، فسار جنوده بين شلالات البصاق والعصى فى

مسيرة خذلان إلى بغداد التى فتكت على طريقها بأحلامهم يتبعهم قطيع الضباع ، تسحب المتساقطين منهم تعباً ، لتنهش عظامهم بوجبات تترك نصفها للديدان وموجات الذباب الأزرق .

وقف عبد الرحمن على صهوة فرسه الصهباء ، ينتظر عند أقرب نقطة لمرور قارب الهزيمة الطاوزندى وهو يحى جنوده بوداع أخير تغص عيناه بدموع متعالية وهو يتعرف بفتى الليلة المدلهمة .وتذكر فوراً التماع عينيه الجسورتين تكويانه وتؤججان أحقاده ، التى سيتذكرها كأنما هى وليدة اللحظة ذاتها ، بعد سنوات أخرى وهو يتابع بحماس من صالة منزله تفاصيل حصار آخر للقوات الإنكليزية فى عشرينات هذا القرن ، حين بدأت تتساقط تباعاً شموس ماسات التاج البريطانى ، يطوى بخطواته العسكرية العريضة الغرفة المفروشة بسجادة إيرانية منهوبة من دائرة كمارك على بابا ، لتحملها عفاريت علاء الدين إلى بيت الماركيز الطاوزندى السابع ، تغلفه الحسرة يلتهم أصابعه غيظاً، متذكرا متاريس التمر التى أقيمت بعنجهية بادئ الامر ، لتُلتهم فى ما بعد بجولات رابحة على جيوش النمل ، مستعيداً أنين الجرحى تحت سقف مستشفى النخيل ، سيجتاحه القرف حين يشم رائحة مرضى البرى برى النتنة وهم يتجولون فى اليباب باحثين عن قضمة حشيش أخضر ، وستغزوه بالنفور الممض رائحة رؤوس البغال المسلوقة تفوح زناختها متفوقة على آلام الجوع . وتنازل ضباطه بكبرياء حزين عن جيادهم ، ليتناولا لحمها الضامر بحسرة الفراق ، فيزداد عقد الحقد الإنكليزى حبة أخرى ، لوطن أبينا آدم الذى لم يعد ممجداً لهم كما يجب ، إذا غادروا أرضه صاغرين .

أقيم مأتم لروح الشريف الرضوانى البدين ، جلست فيه الشمرية حاسرة الرأس مضفورة الشعر ، تمضغ شفتيها الحمراوين كيداً ، تلدغ عيون الأخريات بقحة بالغة ، حضر مندوب الملك ورئيس تشريفات ديوانه ، وألقيت كلمات تعزيه مناسبة ، ذكرت الخلق بمآثر الراحل بالحسرة ، بينما الرضوانى الشاب

المفتون يتمرغ فوق جسد شمريته الساخنة ، يستنهض من حلمتيها جحيم حليب أرضى مذهل ، وفتى الربابة جالس قرب الباب يتسمع أنين السرير الملتهب بلهاث سيده المنسحق تحت الضحكات الفتية ، يعزف على ربابته بأصابع حمر ووجه منفعل انتصبت فيه الأذنان !

بعد شهر واحد نصبت خيمة ديوان الشيخة الجميلة ، ودُفعت نساء العشيرة لتقبيل طرف ثوب صاحبة العصمة البهية ، الشاعرة بحاسة نسوية بحتة بثغاء أولى دفقات فحولة الملا ، فجلس فى ديوانه منصرفاً عن شؤون طلابه ، يمضغ شاربه الكث مداعباً لحيته السوداء الناعمة المحيطة بوجهه المدور المتعافى ، فكان يتنحنح بين آن وآخر متذرعاً بعذر ما لينسل مختلساً نظرة هيام يلقيها على غزالته المتنعمة بين وسائد الريش ، حتى إنه كان لا يصطبر أحيانا فيعاشرها تحت الخيمة تغزوه ضحكاتها فتصيبه الرعشة بنشوة غامرة ، ليقع تحت سلطان التى رآها فى فجر خرج فيه لصيد الغزلان ، وكانت تتهادى بين الأشجار ، تعتلى حماراً رمادياً ، تغنى بصوت تحمله الريح ، وتلقيه على أشواك البرارى ، لم تجفل منه حين ظهر لها ، ثبتت فيه تينيك العينين الرماديتين بصلف من تدرك قدرة جمالها ، وشفتاها المنفرجتان تضجان بنداء برى غامض ، اقترب منها بخطى قوية وقامة مديدة اشتهرت بها عائلته ، أحاط خصرها بذراعيه القويتين . وبصوت واضح واثق النبرة أملت عليه شروطها :

- سأكون لك بالحلال .

لبى لها ذلك فى الحال ، فأشهد أصحابه على زواجه منها ، وتحت شجرة وارفة فوق أوراقها المتساقطة صنع فراشه الأول ، ناما تحتها حتى المغيب ، تنخر بقربه فرسه الجميلة مللاً وغيرة .

بنى الرضوانى بيته بواجهة نهرية بُعيد الحرب الثانية من طبقتين كما كان سائداً فى ذلك الوقت ، بغرف كثيرة متسعة وشرفة تشرئب على واجهة النهر وحديقة داخلية ودهاليز طويلة تربط بين الغرَف ، تسور حوش الحديقة الداخلية المحتفلة أرضها بنخلتين سامقتين تطاولتا حتى سياج السطح . فى الطابق الأرضى قرب الباب الرئيسى الكبير أنشأ الديوان لتجتمع له وجوه العوائل ورؤسها السامية ، مشرعاً كل نوافذه على الحديقة الداخلية المزروعة بأشجار الآس القصيرة الفواحة ، وأشجار الرازنج التى تملأ الأرض فى الربيع بقداحها المتساقط همساً ناعماً بتيجان صغيرة بيض وطرية تحيط نخلتى الحوش اللتين نالتا عن جدارة لقب غلتى فجيعة الملا الأولى ؛ فعل إحداها علق خليل أصغر أبناء الملاالرضوانى فى لحظة يأس وخذلان مشنقته الحزينة ، بعد أن ادرك أن زوجته قد حملت من البستانى أول أبنائه ، قيل أنها ولدته . فيما بعد عجلا برأس آدمى مات على الفور وهو يخور، فيما كان هو بصدره العليل يبحث عن مجد مقعد فى مجلس النواب ليسحر به زوجته الفتية .

استعمل الملا نفوذاً لا بأس به ليصل بابنه إلى مجلس النواب ، فكان يقيم المآدب ، ويرسل الهدايا زاجاً ولده فى المحافل الملكية فى العاصمة ، وما كان خليل ليصطبر كثيراً على فراق زوجته الملولة ، فيعود إليها محملاً بالصحف شارياً به صمت أبيه وبعض الاقراط الملونة وقلائد الخرز التى لم تكن تخفف من ملل عينيها إلا قليلاً ، فتمنحه ابتسامة مبتسرة ، وتسير أمامه إلى مخدعها يخفق قلبخليل من شدة أشواقه ، ترتعش أصابعه وهو يمررها فى الرقبة المزينة بالخرز الملون ، تسبح عيناه بأحلالم تشبه الضباب الذهبى منه .

دشن قبر خليل أرض البستان الخلفى الواسع المكتظ بالنخيل . ومع الزمن وانسياب السنوات أهمل ، وحده فتى الربابة بعد أن شاخ وسمل العمى البطئ عينيه كان يستدل بعصاه المجعدة طريق القبر ، يتلمس ترابه ، يجلس ثمة قربه لينسل بعدها إلى غرفته فى آخر الدهليز المظلم ترافقه وسط خربشات

السنونو فى أعشاشها المبتناة بين عواميد الخشب الهرمة سنواته المتكومة قبل أن يفتح القرن العشرون أعوامه بعام واحد .

فجع الملا بموت خليل فقد كف الفتى عن التجول بعد ذاك الفجر الحزين بين الحقول قاطعاً الوقت فى أحلام طويلة ، مبحراً فى خيالات تحلق بها أشواقه المبرحة التى لم يطفئها سرير زواجه البارد ، فكان يفترش الحقول غارقاً إلى وسط قامته بين السنابل الملتهبة شقرتها الشهية ، يسرد عن نفسه أحلامه بصوت هامس ، يبعثر التراب راسماً عليه سرير حب يتمناه ، أو يقطف ازهاراً برية تزدهر بين حقول الشعير ، فيعود مسرعاً ليغرسها قبل أن تذبل فى صدر زوجته المتضجرة من طفولة ألعابه ، فتدفعها عنها ، فيعود متراجعاً إلى وكر أحلامه العذبة ينسق حياته وفقها ، تذبل على جسده عطور الأزهار البرية التى دعك بها جلده حتى الاحمرار .

لم يكن يدرك أنها لا تبحث عن الحنان فى الحب ، بل القسوة وطغيانها ، وأنها تتشهى بدل زهوره البرية ، قبضة قوية تدعك جسدها تحيلها إلى عجينة رغبة مشتعلة . وأنها هى الأخرى تحلم بساعدين يضمانها بخشونة ، وثوب يحتك بملح العرق وقوة العضلات . وأنها تنفر من جلده المعطر بالأزهار ونظراته الهائمة بخجل حبها .

مع صياح ملائكة الفجر الضحابة ، وآذان ناعس وجده الملا معلقا على النخلة ، تؤرجح الريح الشمالية جسده المزرق . اندلق لسانه طويلاً ، ومال رأسه بلوعة عتب لم يصل شفتيه إلى جهة اليمين ، حيث ترقد زوجته الفتية دافئة فى الغرفة الوردية المعدة حديثاً . تسمرت عيناه فى الجثة الحبيبة ، كان الدمع يتكسر فى حنجرته وهو يقبل القدم الباردة المتراقصة فى ملكوت صمتها المنكسر .

عجب كيف استطاع الموت أن يخطف منه ولده دون أن يشعر به ، حيث كان يرقد هانئاً فى الغرفة المجاورة ، كاد قلبه يتوقف حزناً عندما أنزلوه من النخلة ، لولا أن اشرقت عليه روح الرضوانى الكبير بكرشه الودود يسير بخفة متخلصاً من الآم النقرس وأصابع قدميه المتآكله ، وأحاطته بعباءة عطفها الصوف ، ونظرة مؤاسية تفيض من العينين الغائمتين ، فألتحم مع حفيده ، وغالا فى الدهليز المعتم ، فصدق الملا أمر رحيل فتاه الذى أعياه المرض وأوهنه غرام متوحش أدرك الملا ضراوته ، فحاول أن يبعده عنه ، لكنه رضخ للدمع المترقرق والبسمة الهزيلة المتوسلة .

- سأموت حتما إن لم أتزوجها !

فى لحظة فجيعته ، تفجرت بعودة لا طائل منها الكلمات التى باحت بها عجوز البادية ، بتجاعيدها المأساوية ، وعينيها المنطفأتين ، تحرك الريح خزامتها المرابطة فى أنفها ، ترعى قطيع أغنام كسول ناعسة ، تلوك العشب بصمت صحراوى ، حيث أخذ خليل لينعش هواء البرارى صدره المنكوب الذى لم يكن سبب موته .

أبحرت العجوز طويلاً فى وجه الفتى ، بوجنتيه الهزيلتين وعينيه المليئتين بدهشة شقراء مررت أصابع خشنة فوق رقبته النحيلة الناعمة ، تفوح منها رائحة الصوف الممتزج باللبن ، فأخذ الصغير يعطس تباعاً ، رسمت حدوداً مستديرة خشنة من إصبعها اليابس .

- من هنا سيعلق ، من هنا سيموت !

ذعر الملا لصوت النذير القادم من تحت خزامة أنفها العظيمة وتجاعيد الوقت اراد أن يتبعها ، رأى عصاها تهش قطيعها ولم يع إلاعلى صدى صوتها يردد بتكرار عنيد كلماتها :

- يعلق من هنا ، مع الحبل سكون الموت !

أخفى الملا كل الحبال وحرم دخولها إلى البيت ، ولم يهدأ ، فكان من عمق النوم يخرج أحياناً من سراويل احلامه ليركض الى ابنه الراقد بسلام تقطعه سعلات خفيفة ، فيلعن في سره عجوز الخزامة ، ويتعوذ كثيراً قبل أن يمنحه الليل وجسد الشمرية الدافئ المرتعش تحت أصابعه نعمة نسيان مؤقت .

هُزم زمان الفتى واختفت معه صحبة آنست وحشة الديوان في مرحلة نضوب الأموال وانحسار موائد الكرم الرضوانى المهيب ، بهتت نيران أباريق القهوة ، فكان صوته يتسلل بقصائد قديمة يقرؤها لأبيه المتكئ على وسائد عالية ، يتسمع صدى الماضى وأخبار العالم والشمرية الطاغية تغزل ضفيرتيها الرماديتين بمشط ، ترمقهما بحنان متعال ، تصدر أوامرها الصارمة لوصيفتها الزنجية التى سباها الجد الأول في إحدى معاركه ، ممتطياً حصانه الابيض الذى ظل يمضغ تراب قبر مولاه بوفاء أصيل حتى اتخم ومات مطعوناً بالطين .

حين كان الجد فى صدرة الجيش العثمانى الجرار لاحتلال المدن وابتلاعها واحدة تلو الأخرى سبا والدتها بعد نصيحة ضباطه ليتخلص من أوجاع ظهره المؤلمة ، فورثت عنها عبوديتها ولونها الكالح وحظها المنكود ، وبوسوسة من أخوات (الملا الرضوانى) اللاتى متن تباعاً مصابات بمرض العنوسة وأرق الجسد الليلى ، بعد أن حرم الرضوانى بكرشه الودود زواجهن ، عندما اكتشف بغلطة حب لا أكثر زيتاً قوى الرائحة انساب من شعر ابنته الصغرى ، فتركها حتى صباح اليوم السابع مربوطة بشعرها الطويل المزيت على وتد خشن لشجرة نبق عظيمة في باحة المنزل يتناوب على حراستها بعض من خدمه الأقوياء . لا يُسمح إلا أن تُرطب شفتيها ببعض الماء ، في غبش اليوم السابع باحت وهى تلفظ أنفسها بأنها أحبت هنديًا جاء مع جيوش طاوزند ، أهداها قنينة الزيت . بعد ساعة جئ بالفتى . كان نحيلاً بشعر أسود طويل مدهون بذات الزيت

الفاضح . لم يتوان قائده لحظة أمام عرض الرضوانى الكبير فبادله بكيسى طحين . ذُبح الهندى المنكود العاشق عند قدمى الفتاة المربوطة على وتد الألم ، تحز الحبال الخشنة خاصرتها ويديها وتفتح عينيها على فجيعة موت الجمتها ، شخب دمه فى زحف سريع اليها ، وتسلق برطوبته الحمراء قدميها وأطراف ثوبها . رأت وهى تفتح عينيها على اتساعهما كيف رفس الفتى برجليه دون أن ينطق سوى بحشرجة يائسة ، انفتحت رقبته النحيلة بعد حزة سكين واحدة لا غير من يد حارس الرضوانى الجبار ، وقف على رأسه المقطوع بفوهة حنجرته وبخارها الدافئ شارداً من ذلك الثقب الأحمر ، وضع قدمه فوق صدر الهندى التعس يمتزج دمه بزيت بلواه .

شهقت الفتاة ، عضت لسانها المبّيض وماتت ، تبلل غدائرها الطويلة المزيتة دموع ساخنة مبتورة الشكوى ، إذ ظلت تفور من عينيها بقطرات كبيرة حتى المساء . ويقال إن دموعها كانت تفيض من حافات قبرها ممتزجة برائحة زيت اللوز الهندى الذى خضبت به شعرها . وأشيع أن بعض النسوة كن يطلين شعورهن المتساقطة بدموع الغرام تلك فتستطيل الضفائر حتى تغدو كموج النهر .

من خلف الشبابيك المقفلة كانت والدتها واخواتها الثلاث المتبقيات لحياة الذعر ، يعضضن مناديل الخوف ليخرسن أصوات البكاء ويحتمين من عينىّ الوالد الغاضبتين حتى نسى الناس بعد زمن أن لدى الرضوانى فتيات بعمر الزواج .

ظلت الحبال بذكراها المميتة تسبب للملا أحزاناً واسعة المدى وكأن فى داخله نداء يلهب ضميره فى أنها ستكون ذات علاقة مريرة مصاحبة لمصائر أبنائه . آخر احتفال لدموعه كان قبل سنوات من وفاته ، فقد انخرط فى بكاء كوارثى على نحو مفاجئ حين علقت الزنجية وقد شاخت وفطس أنفها أكثر

من ذى قبل أرجوحة من حبال القنب المتين بين نخلتى الفجيعة الأولى إرضاء للحفيدالرضوانى الأول الجهم بن مرتضى يحف به صوت خالته الرفيع بفمها المتسع ولسانها الأحمر الطويل يخرج من بين أسنانها المسوسة كعظاية نحيفة بائسة تغنى بين كفكفات الصغير .

- غزالة غزلوك بالماء دعبلوك

سترسم دموعه شوقاً ملتاعاً لا جدوى منه ، فوق تضاريس وجهه ، وهو يتذكر الريح تحرك جسد خليله المشنوق بهواه ، فيختنق قلبه بالحسرة والجهم طفل مرتضى السعيد يداعب غزالته البرتقالية المبقعة بطرر بيض صافية تفرقع أذنيها الجميلتين بحركات منتبهة ذكية ، تلعق بلسانها الوردى كف الشيخ تجلله حيرة الزنجية ودموعها الصامتة ، حولهما تَحلّق أبناؤها يحملون لون بشرتهم تهمة أبدية تلوث دم العائلة المعروفة بسطوع بياض وجوهها المشرب بحمرة منعشة ، حتى ان الملا عندما رُزق من شميريته بنتاً هى الأولى بعد سلسلة أبنائه الثلاثة (مرتضى ، صفوان ، وخليل المشنوق) سماها لشدة بياضها الوضاءة حملت فى وجهها نبعى عسل ونبوءة . كانت نبؤاتها نذيراً حارساً فى الشدائد ، فتستعلم من أجراس تضرب صدغيها وأصوات الأرواح المحيطة بها بغلالات غير مرئية ، عن أحداث ستقع ، فتشعر بها قبل وقوعها لتتمكن ببراعة غير مسبوقة من فك ألغاز الريح وأخبار الطيور ، فتستدل على أبواب المحن المقبلة ، وتكتشف قبل غيرها أوكار الألم ، فيشتد أنينها وتضطرب الدموع فى عينيها ، كانت هواجسها المتنبئة تبدأ قبل زمن قليل من وقوعها وأحياناً لا تدركها إلا لحظات قبل الحدث. إلا أنها كانت دائما على صواب ، فأتاحَ هذا الأمل (للوضاءة) أن تحتل مكاناً جليلاً بين أخوتها ، وتميزت عنهم. ولم يكنَ أحد من البالغين قادراً على توبيخها ، فتربت كما لو أن هالة من حصانة الحكمة تحميها من الزلل . إلا أنها لم تكن لتحميها من عذابات الحياة .

لم يعدل الزمن دورته المكفهرة استدارتها باتجاه مضاد لمسرات الرضوانى وحظه الطيب القديم ، فقد دخل عليه فى أمسية كابية ابنه الأول مرتضى حيث كان يجلس فى خلوته ، يدخن (ناركيلته) يتابع تقلبات الماء قرقراته سابحاً مع الدخان العطر فى عالم بعيد . وبكلمات مقتضبة قال :

- أبتى أنهم يطلبونك على عجل !

وأشار الى داخل البيت . كان وجه الفتى متلبداً ، وصوته ينذر بشؤم مستطير . تحرك الملا بعنف ، نفض عباءته السوداء المزينة بخيوط الذهب ، وبخطوات تليق بشيخ مثله ، تبع ابنه دون أن ينبس بحرف .

لم يلق أحد القبض على الرضوانى متلبساً بالدموع ، فكان يجلس فى البرية وحيداً يمد ساقيه المتقرحتين ، يبكيها فيهتز كرشه الودود ، وتنتفخ عيناه متذكراً صغرى بناته بدلال غدائرها السود الطويلة فيما كانت الفتيات الرضوانيات غير ناسيات ثأر القتيلة يتلفعن بالتصبر والسلوى وانتظار أن يقتنصن فرصة لانتقام صغير يتنشقن من خلاله عبير الدمع الفواح عطره من قبر صغراهن . بدت لحظة التنفيذ قريبة منهن ، وبخبرة مكتسبة من الخوف ، التقطن لحظة تحمل رائحة قطاف زهرة الثأر المورقة فى صدورهن ، متذكرات بوجع لا يخبو أن عبد الرحمن المغرم حتى الوله هو نفسه من أشرف على ذبح الهندى المدهن بزيت اللوز تحت أقدام الأخت الصغرى المتفتحة تواً على غرام هزها ، فكانت وجنتاها تحمران ، ويشرق وجهها بابتسامة تشبه الصباح حين يمر هنديها التعيس . لم تحادثه . فلم تكن بينهما سوى كلمات قليلة ، لكنهما كانا يتقابلان فى البستان الناشفة سواقيه وأشجاره بسبب هجمات الجموع الجائعة ، فتغمرها شمس الأصيل ببريق أحمر يشتد لهيبه وعلى وجهيهما ، فيلمس الهندى بأطراف أصابعه وجهها فيما تخفض عينيها وابتسامة خجلة ترتعش على شفتيها ، ينبض قلبها بنبضات سريعة مبهجة ،

لحظات قليلة كانت تختزل فيها كل عمرها الفتى الذى لن يطول أكثر من ذلك، تحرس خلوتها اخواتها المتلصصات من الشبابيك الخشب المخرمة ينذرنها بظهور خطر ما .

أشرنَ على أخيهن أن يكسر طغيان الشمرية الجميلة وجبروتها ، بأن يتزوج وصيفتها ، فدفع الملا ضريبة مؤلمة حين ظلت توصد دونه بابها وترفض بعناد اقترابه منها ، فكان يقضى لياليه عند شباكها القريب من سرير الحب ، متهرباً من رائحة عرق الزنجية وخشونة شعرها ونظراتها الشبيهة بنظرات حيوان مأسور . بعد عام طويل الضنى، وبفرحة ولادة مرتضى أول عناقيد الغيث الذكورى ، وأزهار فرع آخر للعائلة ، قبلت الشمرية بترفع وهيبة الصلح معه ، وسمحت له وهو يذوب وجداً أن يرقد بقربها مجدداً ، على أن تنام الزنجية عند قدميها ، متجرعة مرارة ليالٍ رضوانية متأججة لم تنفع معها كل كتل الصوف المدسوسة فى أذنيها بمنحها بعض الصمم المريح ، فكانت مجبرة على الاستماع ليلياً لتلك الموسيقى العنيفة والشهقات الدموية ، ترطبها بدموع سود تنزل على صفحة خد طويل مد لهم كليلها الوحيد عند أقدام الحب الحارق .

ظلت الزنجية التى لم ترق يوماً إلى مصاف زوجة حقيقية ، تسام العذاب ملبية كل الأوامر الانتقامية المهينة ، وحتى بعد أن رُزقت من الرضوانى بثلاثة ذكور داكنى البشرة ، وابنتين بسحنات كالحة ذات لون مأساوى هم نتاج ليال غاضبة حاول فيهاالملا إعلان العصيان ، لم يتح لها أن تشارك يوماً فى حديث عائلى أو مجالسة من هم أشرف منها مقاماً .

غير أنها وفى لحظة الموت الأخيرة وقبل أن يصحبها ملاك التعاسة ، منحتها صاحبة العصمة ، كفها الكريمة لتقبلها لطلب الغفران !

خرجت الزنجية من الغرفة تحمل طشت الماء راكضة وعلى بضع مناشف

ملوثة بالدم ، لمح فى عينيها الدموع . دلف مسرعاً حيث جلست الشمرية مع بنتيها قرب رأس ابنه الرابع فى التسلسل العمرى . ناداه بهمس مبحوح :

- طه ..

كان فمه يرشح دماً تعبق بكلمات غرقت بين شفتيه ، ومن أذنيه انخرطت ينابيع صغيرة ، ونزت أظافره ، بنظرة حزينة مدهوشة الألم مد يده المدماة إلى والده وقد أخرسه الرعب . وبصوت من يعرف أنه سيموت قال : - ابتى إنى راحل !

تحنطت الكلمات على لسان الملا وعيناه مفتوحتان بلا تصديق وهو يراقب عمر صغيره يتسرب من بين اصابع أبيه لا تملك شيئا أمام جبروت الموت .

نصح الطبيب أن يوضع جسده فى الثلج ، فأحيط فراشه بكسر الثلج الناعم . ووضعت كمادات باردة على جبينه ، فكان الثلج يسيل أحمر بخطوط متعرجة . تورم جفناه وأحيطت عيناه بهالات مخيفة غارت تحتها نظراته الخائفة التى كانت فى ذات الصباح مترعة بالحياة وأشواقها المجهولة .

جلست أخته الصغيرة فضائل آخر أبناء الملا ، تمسح وجهها المتباكى بظاهر كفها ، يوجعها منظر الدم واللهاث المحموم ونظرات الرجاء التى أفزعها الموت مبكراً .

تحرج الطبيب وهو يبحث عن تفسير لحالته ؛ فقد كان الفتى متعافياً ، وهو بعد لم يتسلم عامهُ التاسع عشر كاملاً . وقد مر بنهار جد عادى . لم يشك من شئ . تدرب عصراً على كرة القدم فى الساحة الترابية . جلس على الحصى الناعم قرب حافة النهر يوظب أحلاماً براقة ملونة ، يحسب الأيام المتبقية لسفره للدراسة فى الخارج . مع المغيب شعر بدوار بصق الدم من بين أسنانه . احتقن وجهه وصار الدم ينفر من أذنيه ، ونزح خارج فتحة

مقعده ، مخلفاً بقعاً كبيرة على سرواله ، كأسفنجة مشبعة بالدم كان يرشح من كل مكان . فزع أصحابه . كانوا مذهولين يتابعون بخوف رشيش الدم غير قادرين على عمل شئ سوى الصراخ . حملوه إلى البيت فى كل خطوة يتركون بضع قطرات من الدم يلتهمها التراب العطشان ، فتتكور القطرات الصغيرة المتساقطة ملتفة كعجينة ناضجة .

تصدع الملا ابتلت كفاه بدم ابنه ، فكان ينظر إليهما بجزع . سقطت عباءته ثم تبعها جسده كجبل يتهدم ، صرخ عاوياً بالشيخة المنزوية بعيداً عن النور الشحيح ، تلطم وجهها وتدميه ، تعض أصابعها الواحد بعد الآخر و الزنجية تربت على ركبتيها تواسيها بصمت وحذر تمسح أنفها الأفطس بطرف ثوبها .

ـ ماذا فعلت ياإمرأة ؟

وأنين الفتى يخفت، مع انتصاف الليل سطع وجهه بنور الخلاص الوهاج . نظر إلى أبيه وبصوت شاحب تمتم :

- كنت أريد السفر يا والد .

شخصت عيناه برجاء ملهوف أباه وانطفأت نظرة وداع أليفة فى عينيه ، وسال خيط رفيع من الدم مصحوباً بدمعة أخيرة ، سرح من زاوية عينه اليسرى وتوقف عند نهاية صدغهُ بخط مائل تساقط بقطرات مدورة حمر على وسادته ، خملت بعد قليل وتخثرت مع الصرخة القوية التى أطلقتها الزنجية ، شقت فيها ستار الليل داعية جنيات الحزن للاحتفال .

سقط الملا. وكانت تلك آخر ليلة يقف فيها على ساقيه . برك طيلة الصباح التالى تحت السقيفة المصنوعة من سعف النخيل والمرشوشة تواً ، يراقب بنظرات زائغة الرجال وهم يحفرون قبر ثانى أفراحه المنتكسة فى البستان الخلفى ، فأشار بعصاه الأنيقة المطعمة بالفضة إلى المكان الذى عينه

قبرا له ، حيث لن تسمح له الدورة الزمنية المنقلبة من تحقيق آخر رغباته ، ليدفن في النهاية بعيداً عنهما في ساحة موحشة بين أجساد غريبة عنه ، ولكنه مُنِحَ بهبة سماوية ميتة رائعة . فبعد سنوات في ذات المكان الذى يجلس فيه محصياً أحزانه المطوفه مع حلقات دخان تبغه المعطر . أمره الرضوانى البدين وهو يفتح عباءة أبوته الصوف ، أن يتبعه ، مسح جبينه العريض بتجعيدتي العظمة . هب مطيعاً كما لم يفعل من قبل ليلتحق بأبيه بخطوات غير مسموعة بل بسعادة طاغية ، تاركاً على كرسيه الخيزران عمراً مثقلاً رازحاً تحت غبار النسيان والأرضة والالم .

كانت الظهيرة على وشك الصعود إلى قمتها عندما ألقى نظرة الوداع الأخيرة على داره بلا حسرة أو حزن وربما بلا مبالاة . ابتسم وهو يطالع الشمرية سارحة تحت ظل الذارنج ترسل نظرها خلف الدجاج النابش بأرض الحديقة بهمة ومثابرة ، والزنجية تدعك القدور النحاسية المكفأة تحت وهج الشمس يلمع جفانها بلون حارق جارح للبصر ، وصوت فضائل تحفظ قصيدة عنيدة فصحح لها كلمة أخطأت في قراءتها وهو يمر قربها دون أن تسمعه . وحدها الوضاءة لوحت له بيد واهنة مرتجفة فهز لها رأسه وعيناه مليئتان بالحنان .

وُجد جسده دافئاً تحت الشمس ، لم يخشبه الموت ، وعكست أساريره الوسيمة مسحة راضية مريحة ، وأصرت عيناه أن تلمحا شيئا سرابياً بعيداً بقى لغزاً غير قابل الافتضاض . شعرت الشمرية بالغضب الشديد لموته، فكانت تقول لمن حولها : - عجباً لِمَ لم يبلغنى !

لم تعتد خلو السرير من جسده الضخم ، ولم تعثر على طريقة تنسيها ملمس لحيته الناعمة تغرز فيها أصابعها حتى يأخذها النوم .

هرب منها الدمع ، فلم يواسِ حزنها عليه أى شئ . لم تكن لتصدق أن

الملا سيخذلها يوماً ويتركها وحيدة . كانت تترقب الباب منتظرة أن يدخل الملا مرة اخرى ، ويفتح بيديه الكبيرتين ظفائرها الرمادية ، وتستعيد قبل أن تغفو كل الآثار البعيدة للحياة الطويلة التى عاشتها معه ، متذكرة أمجاد الحب التى لا تنسى ، فتصحو مستسلمة لغضبها المستعر لأنه تركها دون أن يقول كلمة واحدة ، إلا أنها حافظت على كبريائها وهيبة ماضيها معه ، وفى لحظات اشتداد الوجد إليه كانت تحمل عباءته الصوف ، قبل أن تصير من أملاك شيخ الربابة الموروثة ، فتتشمم عطر الرجل الكبير الذى لم يخيب رجاءها مرة واحدة إلا فى موته .وبعد أن ذبلت الرائحة ولم تعد تجد فى العباءة سوى رائحة الصوف ، تنازلت عنها مكرهة إلى صاحب الملا وكاتم سره لترضخ صاغرة بتنفيذ مشيئة الملا .

دأب عازف الربابة ، والذى سيرثه الأبناء كتميمة يعلقونه فى الدهليز المعتم تحكى لهم وتذكرهم بماضيهم المنحسر الغابر ، يجلس كما اعتاد عند قدمى كرسى الخيزران الفارغ ، يعزف له أغانيه المفضلة ، ويبقى حتى آخر أيام حياته يتسمع وحده صوت مولاه حين يناديه ، فيركض ملبياً ، ويراه يهز رأسه طرباً ، وحدث إنه عندما كان على حلبة مسرح الدولة الكبير وقد ذاع صيته وأحبه جمهور كبير ، كان يأتى متلهفاً لسماع صوته المشحون بعاطفة حزينة ، قطع موالاً كان قد بدأه تواً، هب واقفاً وهو يصيح : - حاضر ياطويل العمر !

بين دهشة الجمهور واستغرابهم ، ثبت ربابته بين قدميه ، وغنى أغنية لم يسمعها أحد من قبل عن رضوانى عاشق نازع الأخطار وصرعه الحب .

اختلفت السنوات على عازف الربابة . قلبته حيناً بين ذراعى مجد خفى ومن ثم أهملته ، فما لبث بعد أن شاخ ، أن عاد إلى غرفة الدهليز المظلمة يعزف من ذكريات الأموات أشواقه ، فيتحلق حوله أبناء الجيل الرضوانى الثالث العتيد ، يروى لهم حكايات الجن وأخبار الأجداد وشموس الذكريات

التى لم يطلعوا عليها ، لا عناً الجنية اللئيمة التى رمت بشعوذة غضبها فى وجه عبد الرحمن حين كان يزخر بنزق الدماء الحارة المتفجرة فى جسده الواسع وقلبه الحر ، وهو مستعد فى أيما لحظة أن يقسم بأغلظ الأيمان على صدق روايته ، سرح ببصره الذى بدأ ينوس ضعيفاً قبل أن يفقده تماما ، تتقلب فى عينيه صور الأيام الخوالى ، قال وهو يطلق تنهيدة عميقة :

- كنت أساعد أبى .. أتعرفون أنه كان سائس خيول جدكم (الرضوانى) الكبير ، آه يا أولاد ، كان سائساً عظيماً يفهم الخيول يحادثها ويفسر كلمات عيونها المتسعة ، كان ذلك قبل أن أفقده وباقى أسرتى فى وباء الطاعون الأخير وبقيت وحدى متحسراً . أراقب أجسادهم مع بقية الموتى المطعونين بجلودهم الزرق المنتفخة حيث لايجدون من يدفنهم فيحملهم (الجندرمة) الأتراك فى عربات ويلقون بهم فى نار عظيمة أعدت لأجساد الفقراء .

مسح دمعة منسلة خلسة قبل أن يستحثه الجهم بصوته الهامس يلتصق به (عامر) ابن (فضائل)

- ها .. وبعدين عمو متى طلعت الجنية ؟

- كنت طفلاً مثلكم ..

لم يتمكن (الوليد) من فهم هذه المعادلة الصعبة : فكيف لمثل هذا الشيخ بوجهه المتجعد أن يكون طفلاً فى يوم من الأيام ، فلثغ يسأله : أكنت صغيراً مثلنا ؟

- نعم مثلك تماما .

هرش الوليد رأسه ، واكتفى بالتحديق فى وجه الشيخ ، ذقنه الخشنة ونظره الضئيل ، مكتفياً بحيرته . أعاد الجهم بنفاد صبر :

- وبعدين عمو . اسكت وليد

أجال الشيخ نظرة حنوناً فى الوجوه الطفلة المحيطة به ، تتربص الكلمات بصداها القادم البعيد :- أسمعتم بالسلطان (مراد الرابع).

تلفت بين وجوههم : - لا بأس . ما أخبركم عنه حدث أيام السلطان (مراد الرابع) كان ذلك قبل أن يغلق ذلك السلطان (باب الطلسم) خلفه .

فغر (الوليد) فمه ، ولم يفهم كل هذه الألغاز . لكنه سأل بلهفة شديدة :
- أحضر معه الجنية ؟

- حضر ومعه الجند . الكثير من الجند ليفتح الحصار عن أهالى بغداد . كان هناك حصار وجوع شديد .

- عمو هذه حكاية مملة . تمتم (عامر) وهو يتثاءب : - أين الجنية ؟

- سأقول لك أسماه أهالى بغداد - بالفاتح - كسر الطوق ودخل بجنوده وطبخ الرز فى الشوارع للناس ، وأكل الجياع حتى الشبع ، ونسوا موتاهم . وقد أغلق باب الطلسم بأمر منه بالطابوق بعد أن غادر السلطان العاصمة ، فقد أنبأه العراف الامبراطورى أن عليه إغلاق الباب حفظاً لسلامة السلطان الفاتح . ولم يفتح الباب إلا عندما جاء رجل آخر (جنرال انكليزى) قال إنه سيطعمنا ومات بمرض (أبو زوعة) .

ضحك الأولاد وهم يرددون اسم المرض المقرف ، فأوضح لهم (الجهم) أكبرهم سناً هو نفسه مرض (الكوليرا) .

- المهم أن هذا الجنرال الذى مات كان أسمه (مود) وقد أخبره رجل عراف آخر أنه سيموت لو فعل ... وقد مات بعدها وقد رأيت بعينى هاتين كيف كان (الجندرمة) القساة يركضون من تلك الباب وهم يلقون خلفهم السيوق والتروس . كنت ألتقطها وأبيعها فى سوق الحدادين .

- ثم دخلت الجنيهة من الباب . من تلك الباب .

حزر الشيخ أنهم قد سأموا ، فاستدرك قائلا :- حسناً متى جاءت تلك اللعينة . سأقول لكم كان الاسطبل عامراً بالخيول الأصيلة . خيول صحراوية فاتنة . كأني أراها الآن . أسمع حمحمتها ونخراتها الحازمة .

كان الملا يستعرضها في مهابة عجيبة في الأعياد ، يتركها تمشى في كامل أبهتها وزينتها ، يلمع جلدها النظيف المحكوك بيدى هاتين ، تحت وهج الشمس . ويدفعها للرقص في يوم الجلوس الملكى . كانت المهرة الفضية المبقعة ببقع رمادية هى المفضلة لدى جدكم عبد الرحمن .

- الملا يعنى جدو .. هو نفسه جدنا هذا .

ابتسم الشيخ وهو يتابع التأتاة المنطقة من شفاه عامر ينضح وجهه المستدير بلهفة للإجابة ، فقبّل الشيخ سبابة الصغير المتجهة إلى صورة الملا. الصورة الوحيدة المحاطة بإطار أسود رفيع علق فى صدر الديوان؛ فمنذ خمس سنوات أحضر الملا وبتشجيع شديد من أبنائه مصوراً إلى البيت حمل معه عدة التصوير الثقيلة بستارة سوداء يسدلها على رأسه ويصرخ عالياً :

- اكتم النفس!

فكان يتوجب على المرء أن يخنق أنفاسه لوقت قد يطول حتى يحصل على صورته ، وقد دفع الملا بجميع أبنائه وحتى أبناء الزنجية التى كانت تخفى فمها الأدرد تحت كفها ، ولم يظهر من وجهها إلا عينان حائرتان يعلوهما خجل شديد . رفضت الشمرية أن تصور ، فكانت تظن أن هذا ضرب من السحر ، وأنهم يجمدونها فى تلك الورقة . وبقيت لأيام طويلة حتى اعتادت منظر صورة أولادها متجمعين لايعيب اجتماعهم سوى أبناء الزنجية الكالحى البشرة تنتظر أن تصحو يوماً لتجد أولادها وقد تجمدوا؛ وقفت بعيداً ترقب الساحر وهو يختفى تحت ستارته السوداء ولم تجرأ أن تظهر علانية لئلا يصيبها سوء سحره .

- نعم .. هذا هو الملا .. صاحب تلك الصورة . منع عن الجميع ركوب الفرس الفضية . لكنه لاحظ لأيام متتالية أمارات الإعياء والهزال بادية عليها حيره الأمر، حتى قرر أن يتربص بالفاعل ، فمن ياترى يجرؤ على امتطاء المدللة ؟ اختبأ الملا فى الاسطبل دون أن يعلم أحداً بذلك فى الليلة الأولى غلبه النوم ، وأنزل عليه سلطانه سباتاً لعيناً ، لم يوقظه إلا صهيل الفضية المتعب ، فاستشاط غضباً .. أنتم لم تروه غاضباً .. كان مخيفاً حين تستعر النار فى رأسه ، لاشئ يقف أمامه ، كالسيل يُزبد مكتسحاً من هو أمامه . فى الليلة التالية كنت معه مختبأ خلف أكوام التبن . شربنا القهوة صامتين ، وانتظرنا طويلاً ، والليل ممل بلا سمر وأحاديث وغناء .. أتصدقون ؟ لقد أطبقت جفوننا دون علمنا ، ومع الفجر على وقع الحوافر العائدة ، رأيت قبل أن أطرد النعاس من عينى الملا .. فى الحقيقة لم يكن حاملاً لهذا اللقب بعد .

- هيا عمو .. ماذا حدث ؟

استعجله الجهم و الوليد يغفو على كتفه يتأرجح رأسه راقصاً على صوت الرجل الذى يشبه إلى حد بعيد حنان ربابته .

- حسنا رأيته يندفع كسهم منطلق ليمسك بالفاعل ... أخ وليته لم يفعل يا أولاد ... ليته لم يفعل !

سرح بنظره بعيداً . كان يرى القمر بدراً مكتملا مهدلاً شعاعه فوق الاسطبل القديم يوقظ الذكريات .

تحفز الفضول فى وجوه الصغار. أضاءت وجوههم بنور القمر البعيد ، وتدلت الشفاه الطفلة ، تعبث بها استدارات اكتشافات بدت لهم مخيفة تلتمع حدقاتهم بخوف مستحب ، حرك دقات قلوبهم الصغيرة وجعلهم يلتصقون ببعضهم ، والليل ينتصف ملتذاً بأخبار الماضى الزاهرة .

- لقد أمسك بالجنية العاشقة . لم نكن نعرف أنها كذلك . شهق عامر

مخبأ عينيه تحت كفيه ، فطلعت له الجنية من تحت زيق ثوبه المبلل بالعرق ، فالتصق بعازف الربابة ممسكاً بطرف عباءته . جره الصوت الراجف مجدداً . أسند راسه إلى الجدار مصغياً بكل جوارحه إلى الشيخ :

- كانت تلك الجنية العاشقة تمتطى كل ليلة فرسها بها الأرض إلى حبيبها وتعود بها فجراً .. وليس طيباً يا أولاد .. ليس طيباً أبداً أن يلتقى البشر بالجان . لقد حذر الله من هذا . بعناد وغضب أمسك جدكم يدها بقوة . لم يكن يردعه شئ عنها رماها أرضاً ، فغضبت وقدحت عيناها بالشرر ، كنت من مكانى أرى خرز تلك الشرارات تتقافز فى أرض الاسطبل نثرت شعرها الطويل المشعث . فتحت زيقها ورفعت وجهها إلى السماء ، كان القمر بدراً كبيراً، انزل ضياءه فوق الأرض . فحّت بكلمات مخيفة تلعنه ونسله . كانت أسلاك فضية كأنها خيوط من شعاع القمر تنطلق منها تتعلق فيها خرز شرارتها . سمعتها من مخبأى وهى تتوعد و(الملا) يضحك مصالباً يده فوق صدره ، تزجى لعناتها :

- لتكن قدرك مثقوبة !

وجسد ولدك معيوبة!

لتحيا زمامك لاهثاً متعوياً!

فلا تهنأ بفتى خاطباً ولا فتاة مخطوبة !

غزت صرخاتها جسد الليل تعوى باتجاه القمر الذى ظللته غيمة كبيرة يعود صدى عوائها منهوياً .. متعوياً .

اعتدل الشيخ فى جلسته مستغفراً القادر ، والأطفال حوله فاغرو الأفواه ينتظرون أن تطلع عليهم الجنيات اللعينات من بين شقوق الأبواب والجدران ، حيث كانت تلهو الفئران بقرض الخشب العتيق المهمل فيئن بتأوهات متألمة تحت الوعيد .. منهوياً .. مثقوباً .. معطوبا أ .. أ.. أ .. !

غلقت الأحزان قلب مرتضى بموت أخيه طه المحيّر . كانت قطرات الدم المتدلية كعناقيد ناضجة للألم تطلع إليه فى كل لحظة دون أن يحاول القيام بأى مجهود لمسحها من بين عينيه .

أهمل مستسلماً لأحزانه ، حزبه الاشتراكى العتيد ، فلم يعد يحفل بمواعيد اجتماعاته ، وأخذ يتهرب بذرائع صغيرة للابتعاد عن مدرسته وأصوات طلبته . وارتضى لنفسه أن تكون ساحة حرب تنشب فيها أحزانه أظفارها الدامية ، ومتهشماً تحت ثقل تلميذته البلورية .

أخذ يتحاشى النظر إلى وجه أمه . حملها وزر موت طه الساحق . يتذكر جيداً أنها كانت تعجن في عصر يوم النهاية المبكرة ، فى الهاون النحاسى المسود . ذنب عقرب أصفر . والقدم اليمنى لضفدع يبسه العطش بقطرات من دم خفاش أعمى ... خمن أنها - ربما - أوردت قطرات من خليطها الفتاك فى شراب الفتى ليعدل عن سفره المؤمل بالمنحة الملكية لدراسة المتفوقين خارج القطر . لم يعد يخفى كرهه المفضوح نحوها ، ولا يغفر تمامًا تغاضى الملا عن عقوبتها مع أنه لم يكن قد حدد نوع العقوبة . أخذ ينسل الى أحضان الزنجية متشربًا حنان عرقها ، باحثا فى احضان شيخوختها المنهكة عن أمر يفتقده ، والزنجية تشيخ فى كل لحظة ، فالقت بعد سنوات قليلة جسدها كخرقة قديمة قرب دلو المغسلة ، وهرعت الى الدهليز المعتم تتبع جحفل الموتى . ورفضت الشيخة ان تدفن فى مدفن البستان مع ولديها ، وأرسلت بجسدها إلى المقبرة العمومية . قالت وهى ترفس الأرض بقدمها :

- ليس سهلا أن تكون عاشقا لمخلوقة بلورية تصغرك بمقدار نصف عمرك ، وأن تحمل حزن فراق اثنين من أصغر أخوتك بمثل تلك الفجيعة ، ومن ثم تفتح صدرك للحياة .

لم يناقشه صفوان الكتوم بطبعه.فكر أن الحزن سيأخذ وقته ويمضى ، وقد يجد الحب حلاً مناسباً : فالزمن علاج مناسب للحزن والحب !

بلحظة انتشار الوهج النحاس الشمسى لغــروب صـيفى ، طرقت البلورية الباب العريض ، تركت عباءتها تنزلق ارضًا ، فانداح شعرها الناعم المنسدل على كتفيها كقطعة ليل غامض ، وشت تقاطيع وجهها ذى الوجنتين المرتفعتين بتصميم شديد ، واجهت استاذها المهزوم بصوت جبار قالت تؤطر يداها خصرها ، صدرها يعلو ويهبط بعنف ونفاد صبر ، فيرتفع الثوب فاضحًا تفاصيل جهنمية لصبية الخامسة عشرة من أعوام الفتنة والعشق المبكر : – حسنا لنتزوج !

سقط استكان الشاى من يد مرتضى . صغيرة ، مربكة ، وأبنة رئيس البلدية المحترم . شريكه اليومى بلعبة النرد . فغر فاه واندلقت الدهشة من عينيه الواسعتين كعينى ثور وحشى .

– لنتزوج .

اعادتها بذات الحزم وهى تنتظر فى عمق عينيه . كانت تعرف من صوته المرتعش ، وهو يقرأ الشعر فى الصف الذى اصر والدها أن تنهيه مع بقية الصبيان ، فلم تكن هناك مدرسة للبنات قريبة ، تعرف من اصابعه المرتجفة وعيناه تتوسل لمحة من وجهها : انه يهيم بها .

ادركته بنزق سنواتها المتفتقة عن انوثة كاوية وهى تراقب ارتجافة اصابعه ليعيد اليها أوراق الامتحان ، انه ينضح حباً وألماً وخوفاً . كانت بغريزة الأنثى تعرف انه لن يتقدم خطوة واحدة ، وان عليها اكتساح وكر مخاوفه .

انصرفت تتلفع بعباءتها وعنادها ، معلقة قناديل فرح مضطرب تتراقص امام مرتضى .

فى الصباح التالى . اصطف الاساتذة والطلاب فى تظاهرة صاخبة تنذر حكومة الوصى بالسقوط تحت وهج الشمس الصيفية اللاهبة خُيل

لـ مرتضى انه كان يرى عرق البلورية وردياً يلتمع متلاصقا بلوريًا مثلها .

- هل كنت جادة ؟ اعنى أمس .

وراحت عيناه ترمش سريعاً تتركض انفاسه بأنتظار الاجابة . فى أمسية ذلك النهار فوق مقاعد المقهى ، حصل على موافقة رئيس البلدية ، دفع الرجل رأسه المحمر الاصلع ، قهقه وهو يرمى جسده على مسند المقعد الخشبى ، بفمه الوردي الادرد . قال بود لامثيل له وبأريحية لا تُبارى : - انك عاشق . كنت أعرف هذا . كنت اعرف انها ستصرعك !

رفع فى وجهه اصبعاً مخدراً : - تذكر دائمًا انها لا تغفر اساءة وهى اكثر صلابة مما ينبغى للنساء !

بعد أسبوع واحد فقط قطعه مرتضى مستشاراً قلقاً ، دخن فيه مئات السكائر ، كتب عشرات القصاصات الصغيرة المرسلة ببريد طيره البشرى فضائل ، حتى زجرته فى اليوم الخامس لبريد عشقه المتعطش ، برسالة من كلمة واحدة : اهدأ . ولكنه لم يفعل .

فى اليوم السابع تزوجا ليخربشا معا لوحة مثيرة ، لحياة خاضعة لمزاج التقلبات الرهيبة والغيرة القاتلة ، منهمكين بمعارك دامية تنتهى دوماً بسقوط عرشه عند قدميها ، يتكوران بعدها على بعضهما ، عصفورين مترنحين ، يحرك صوت لهاثهما المنتشى باب الغرفة الخشب فتُسمع قرعتها لكل من فى البيت ، فترن كجرس فضى ضحكاتها البلورية ، تعلن سر سعادتها .

وخلافاً لكل التوقعات افترقا عن سبعة أطفال سيظفر كل واحد منهم جديلة همه الطويلة حتى ينابيع الضياع .

حسم النهر امره فى بداية الربيع . مع انفراط لآلى العقد الثلجى على رقاب الجبال . مرت سنوات قبل أن يقرر النهر الفيضان للمرة

الأخيرة حدست الوضاءة وهى تغمس جفنيها فى جنة شهدها ، مصغية للنبؤة المنعتقة من صهريج احلامها : سيسير الماء بين الشوارع !

اكتسحت الامواج البنية المدينة ، والغت رعبها فى الأحياء الفقيرة الواطئة القريبة من الضفة ، حملت على متنها فى فوضى مزحة غريبة ، القدور ، مزق الثياب ، اقفاص الدجاج ، وقطع الاثاث الصغيرة .

تقافز صغار السمك فى باحات الدور والشوارع ، فألقى الاطفال سنانير بدائية مرتجلة لاصطيادها ، تتابعهم بتعب وأسى عيون الكبار المدركين لحجم الفجيعة .

تضعضعت عواميد البيت . اقفر الطابق الارضى السابح بالماء ، وحمل الملا إلى الطابق العلوى منحشرا مع الثرثرات النسوية وصخب الاطفال ، مرغما على سماع كل النقاشات الساخنة بين اولاده ، والمشاحنات النسائية باقتسام الغذاء المتناقص منذ زمن ، والمهام المنزلية مصغياً بانتباه مجبر عليه لشكوى اميرته التى لم ينطفىء جمالها ، حيث ما تزال مؤخرتها العريضة المكتزة البيضاء تثير فى دماء شيخوخته حنيناً لايام الفحولة الماضية . ناظراً بتعاطف للزنجية واولادها قليلى الصخب يحيطون بها كدجاجات سوء مذعورة ، ينظرون إلى العائلة بعيون يمكث فيها مزيج من الكره المشوب بحسد وغيرة فتاكة ، يمضغون احساسهم بالدونية والاضطهاد وبأنتظار ازاهير الفرص السانحة . لم تتح له هذه الضجة العائلية فرصة أن ينفرد بشمرية الفجر البعيد الفاتح الاول لقلبه المتوثب ، تذكر متسلياً ، الحرب النسوية التى انفجرت منذ ربع قرن منصرم ، عندما داعبت فحولته إمراة أخرى ، فوجد نفسه يبتسم للذكريات .

كانت الالمانية فارعة الطول هانيا المرسلة بتوصيات ملكية للاطلاع على أحوال مدرسته والتعرف على تجربته الفريدة فى تعليم الفلاحين ، الشقراء الفاتنة غير المتهيبة من الريح تلاعب ثيابها الصيفية

مدغدغة حديقة ازهارها النارية ، لتطير فراشات القماش الخفيف ، كاشفة ساقيها الطويلتين والزغب الناعم يلتهب بحمى الشمس ، فيلتمع ذهبياً يلدغ الملا بإثارة مخدرة .

كانت تجلس بين الصغار تلثغ بكلمات عربية لذيذة التكسرات ، مطلقين حولها عيونهم بفضولها الطفولي ، محاولين اخفاء ابتساماتهم المستغربة عرى المرأة التى تطوقهم احيانًا فيشمون عطر الصابون الرائع الذى تستحم به لتبدو كزهرة ناضجة فى حديقة الرب . دونت هانيا باهتمام وحرص أحاديث الملا عن أيام الحصار وحرب الانكليز والاتراك واغفل عامداً ذكر جده حامل الراية فى الجيش التركى الذى أقلق نومه وما زال يناديه أن ينقل عظامه إلى حيث يجب . كان يراه فى احلامه باكيا يدعوه بيد مرتجفة يهتز شارباه العظيمان ، وقد هدلهما الاسر والموت ، فيقفز من نومه فزعا ، عازما فى كل مرة يراه فى منامه على انقاذ عظام جده المزروعة بعيدا عن ترابها .

تذكر وهو يهز رأسه طربا ، وكأنه يسمع صوتها إجابتها عندما سألها عن طيار شجاع كان اسمه فيرتزر ، قص عليه وهى منتبهة تماما اخبار ذلك الـ فيرتزر بطائرته الصخابة وانقضاضاتها المنهكة لاعصاب الانكليز المحاصرين فى كوت الامارة قال : - لقد حيانى برفرفة جناح طائرته الرمادية لأنى أنقذت حياته فى إحدى جولاته عندما كانت طائرات الألمان تساند الأتراك فى حصارهم للانكليز .

حدثها عن فيرتزر الذى كاد يفقد حياته بواحدة من انقضاضاته النزقة حتى كاد أحد جنود الانجليز أن ينال منه لولا الملا الذى ارداه برصاصة واحدة . اخبرها كيف أنه التقاه لمرتين قبل أن يغادر البلد : - اتظنين انه ما زال حيا ؟

سألها وهو ساهم دون أن يسمع اجابتها

هامت هانيا برجل الشرق القادم من احلام قصص ما قبل النوم ، فالتقطت الشمرية رائحة غرامها ، اغتاظ قلبها وتنازلت للمرة الوحيدة عن كبريائها واعلنت بصراحة شاكية له مخاوفها ، ربت على فخدها بحنو وهو يفكر بجسد الأخرى المشرق والزغب الاشقر الذى يود قطفه من حقولها . توالت خفقات قلبه وهو يستعيد صوت هانيا هامسا : سأترك قنديل غرفتى مضاءً !

لم تغفل الشمرية عنه تلك الليلة ، بل انها جعلته يلفظ آخر ما يمكنه من رشقات رجولته ، قبل أن ينطفئ يأساً قنديل الليل المنتظر عند الباب الآخر ، لينهض فى الصباح على رسالة وداع خجول : سأبلغ طيارك فرتيزر تحياتك . وداعاً . عندما دخل غرفتها كان قنديل الليلة الماضية يئوس متحسرا . فاحت الغرفة بأثر عطورها ، و الشمرية ترمي حولها نظرات الانتصار ، مداعبة بدلال جدائلها الطويلة ادرك الملا أنه ليس هناك امرأة قادرة على الوقوف فى وجه شمريته وأن كانت بزغب ذهبى وعيون كسماء نيسانية الزرقة .

طافت جثث الحيوانات النافقة ، تنبثق منها نتانة تسبب الصداع ، توقظ مخاوف الوباء ورعب المجاعة ، والمياه تصطفق بلا مبالاة ، تضرب الابواب تلطمها بصوت مكتوم . غصت حديقة النخلتين بالماء ، فتشبثت بجذعها بضع فئران ، كان الخوف والجوع يحركها نزولاً وصعودا بحركات لولبية مضحكة وغطست حتى الاعشاق شجيرات الآس القصيرة . من فضاء البستان كانت تهب رائحة الاغصان العطنة ، يغمسها القداح بأريج مريك . من شباك الغرفة العلوى كان الملا يراقب القبرين يجمع فى مخيلته حبات الرمل ، يضمد بها الشواهد المتآكلة ، تحسر بصمت دون أن يقول بما يهجس فى قلبه : كل شئ يبدو كأنه يتهادى ، حتى الموتى .

عاد الصفوان من اعمال السخرة التي كلف بها الحزب شبابه لبناء سواتر تمنع الماء وسدودا لا تمكث طويلا أمام المد البني . غاب أسبوعاً طويلاً ليخرج من صرة كتمانه خبراً اجهز به على الأيدى المتدافعة حول صينية لعشاء :

- لقد تزوجت !
- كنت اظنك بعمل رسمي .

علق مرتضى قبل أن يبتلع لقمته ، وارتبط بنظرة متواطئة مع بلوريته ، كانت تتلمس بطنها المرتفع لاول مرة .

- من هى ؟
- إمرأة !
- لن تكون قردة ... ها ... هذا أكيد .

مازحه مرتضى مجرباً إغاظة كتمانه ، فليس من السهولة انتزاع معلومة من فم الصفوان الصلب الصموت . كان مرتضى يقول دائما واصفاً إياه .

- أنه يمتلك فما من الصخور . وقلبا كالعصافير .

ضحكت النسوة وخبزت الزنجية فمها الادرد تحت فوطتها ، وعينا الشمرية تطلقان وميضاً شرساً ، فكرت بأن إمرأة أخرى غير البلورية ، سيكون الامر كارثة فقد تعددت الرؤوس !

اركتب الصفوان خطأين فادحين في حياته ، دفع في خطئه الثانى حياته ثمناً له أذ لم يعد ممكناً تغيير أرقام القدر : الأول كان بدافع الشهامة ، وبلحظة نحس لم تنفع معها كل تمائم الحظ . سقطت الفتاه التى سيتزوجها بعد ايام فى النهر الطينى المتلبد بفيضانه الاخير . كان الصفوان يقف مع مجموعته الحزبية الموفدة لمساعدة الاهالى بتكليف من حزبه العتيد المعلن عن فشله فى آخر هذا القرن بطريقة غير قابلة للتنبؤ بها .

سقطت الفتاة بعد انهيار بيتها في قلب النهر ، حاولت جاهدة أن تسبح ضد التيار دون جدوى ، لطمت أمها خديها وتعايطت النسوة فزعات ، بعد دقائق قليلة كانت الفتاة بين يدى الصفوان غارقة فى الوحل . ضم جسدها فى احضانه بلا قصد ربض ثدياه بين قبضتيه ، وسط زغاريد النسوة وصياح الرجال الحماسى اخرجها من النهر ترتعش خوفاً ، يزيح عن رأسها لطخات الطين العالقة بها ، حملها بين ذراعيه مستلهماً من لحظة بطولته تلك صورة فارس شق عباب التاريخ ، وقف عند تجمع النسوة المزغردات تتصدرهن والدتها ، ضخمة ، سمراء بثديين عظيمين ، احاطت النسوة بها كطيور الماء . جثت الفتاة التى بدت كجرذ كبير تلوث بالطين فأثارت شفقته وخجله ، استعاد لبرهة طعم الشهوة وهو يحتضنها . قالت وهى تكاد تبكى .

- أنهك مخلصى ، بودى أن أدفع حياتى ثمنا لرد جميلك .

اقترب من الوالدة السمراء تفرس فى وجهها الموحى بإمارات التسلط ، بكلمات لم يرتبها فى ذهنه قال : - خذيها لتغتسل لانى سأتزوجها .

اعتبرت القادمة الجديدة نذير شؤم ، بعد أيام من وصالها ، تسلم الصفوان خطاباً رسمياً بسحب يده من الوظيفة التى يشغلها كمدرس للرياضيات . قيل أنه استخدم وظيفته لاغراض التحريض السياسى ، وأنه يدفع عقول الرجال الصغار باتجاه معاد للحكومة . فأصبح فى البيت الكبير عاطلان عن العمل وافواه كثيرة تنتظر الطعام . فصار مرتضى و الصفوان ينطلقان صباحا إلى طوابير العمال باحثين عن عمل بأجر يومى . اسعفهما الحظ بأن أصبحا عاملى بناء ليعودا فى وقت الغروب غاطسين فى آثار غبار الجص والأسمنت ، بالاجر القليل . بكى الرضوانى وهو على سجادة صلاة الغروب ، حينما وضعا الدراهم المغسولة بعرقهم ليباركها .

تقرح البيت بعد الطوفان ، انتفحت ابوابه وتصدعت حيطانه فتساقط طلاؤه قطعا كبيرة ، تترنح قبل أن تنزلق هُجر الطابق الارضى ومع استحالة امكانية ترميمه ، تركت للصيف مهمة دمل جراحه من العفن والرطوبة . و فضائل الشابة الرقيقة تكبر بين اروقته ، صامتة لا ينتبه اليها أحد ، تحيط جسدها النحيل بشرة شفافة ، يكاد يُرى مجرى الدم فى عروقها ، تكبل بالصمت شفتيها الرقيقتين المزمومتين على خجل ، لتفتح فى غروب جهنمى سقطت توهجاته على وجهها النحيل فتورد بلون نحاسي فاتن ، طرفت عيناها لشاب اسمر جرئ يحمل ملامح نزق غجرى يعلوه الارتباك فى لحظة ملائكية أثقلت فضائل بحب ستدفع ثمنه كل يوم من حياتها لتزداد نحولاً وصمتاً .

لم يصلها بريد النوم فى تلك الليلة ، احصت على فراشها الصيفى كل النجوم السماوية المتعالية فوق السطوح الغارقة بالنوم دون أن تقطف أزهار الوسن . استدارت هالات الضنى تحت عينيها ، وزادت كثافة رمشيها برسم رقصة مأساوية للاشواق المباغتة غير المعتاد عليها لأنسية اليفة لم تحظ يوماً بنبضة مختلفة لقلب ساذج غير مجرب . مع كل دقة باب تقفز كهرة مستنفرة ، تعدو قبلها احلامها دون جدوى ، فيغلفها احساس بالعجز فتزداد عزلة وانتظاراً . بلا توقع وبدون سابق اعلان ، طُرقت نافذتها فى أحدى الاماسى حيث اقتعدت تتمسك برفرفة نسيم تسرقها من نافذة الليل الصيفى المثقل برائحة النهر الخانقة وفى يدها كتاب دراسى قاحل ، تحاول فك طلاسمه بملل ، لتندس فى يدها ورقة صغيرة كُتب عليها .

- أحبك ... تأكدى أنك ستكونين لى .

موقعة باسم عبد الجليل الجراخ . ظلت هائمة فى الغرفة لا تدرى اين تخبئ سرها . بعد سنوات كافية اعترفت لبناتها وهى ترقبه بحب فى قيلولته ، أنها التهمت تلك الورقة ، دون أن تشرب قطرة ماء ، وشعرت بها تتفرع فى جسدها فيفوح منه عطر غريب لا يخطئه المرء على وجنتيها الشفافتين لوناً فاضحاً اسمه : الحب .

هبت الوضاءة من نومها . ادركت حلمها . اسرعت تتلمس فى اظلام طريقها وهى تصرخ : - مرتضى .. صفوان .. سأتون !

ضربت الابوان بيديها ، وركلت بقدميها النوم من اعينهم . فز الجميع . فصرخ الصغار .. اسرعت الزنجية تُجهز بعض الاغراض ، فهى تعرف الوضاءة حينما تُستفز احلامها . تثاءبت القادرية زوجة صفوان ، فركت عينيها بأمتعاض وقالت : - يا لجنونكم ! امن اجل حلم سخيف تحدث كل هذه الجلبة ؟

زأر الملا من داخل غرفته وهو يعاين وقاحة المرأة المائلة على الباب وثوبها نصف العارى : - أخرسى . أذهبى لاحضار اغراض زوجك .

رمقته بازدراء وانسحبت إلى غرفتها . اقتربت الوضاءة من والدها . ضمها إليه فهو يعرف عذابات نذيرها : - ابتى سأتون .

ربت على شعرها خفيف الشقرة قبل أن يسألها بخوف من لا يريد أن يسمع الاجابة :

- هل سيتمكنون منهم ؟

- سيكون طريقهم طويلا والليل ساتر لهم . والدى أنا خائفة .

عرف وهو ينظر فى عمق شهد عينيها أن هناك ما لم تقله .

رتب عازف الربابة بشيخوخته المحكمة ، صوته ، فهو يعرف أنه سيتبعها ليتسقط أخبارهم . كانت النار المتراقصة على الوجوه وهى تبتلع المنشورات السرية المعادية لسلطة الوصى ، تكشف عن حزن النسوة المتذرعات بالصبر ، وتلقى باقة يانعة من المخاوف فى احضان الملا المتخم بالفواجع ، على صوت هسيس النار وهى تأكل الكلمات الرنانة أغنية للوطن ، كان صوته خاشعاً متوجسا يتمتم بآيات قرآنية جعلها نديم جزعه وتذكر أباه وفزع لياليه ، فترحم عليه معتذرا لالم قديم سببه له .

فى صباح اكثر ارباكا من ليل البارحة ، غرق كل شئ بفوضى الزيارة المتوقعة . دخل بضعة رجال ، ركلوا الابواب بأرجلهم ، تصارخ

الاطفال وتقافز الدجاج المرتعب يتطاير منه الزغب ، بالحراب المسننة بقرت الصور . تناثر ريش الوسائد تكسرت الصحون ، واختفت بقدرة عجيبة النقود المخبأة بإحكام بين عشرات الفرش المرتبة فوق بعضها . استعر غضب النسوة حين لاح لهم شبح العوز قويا بفقدان آخر مقتنياتهم و الجهم أول احفاد الذرية الرضوانية يلهو بين المماشي ، تتبعه خالته ملاكه الحارس ، عظايته النحيلة التى لا تتعب من الغناء بأسنانها اللبنية الهاربة من لثتها الوردية وفمها الواسع تردد غير واعية بشئ .

- يا خشيبة نودى .. نودى ، ودينى على جدودى .

وضعت البلورية عباءتها على رأسها وحملت قدراً نحاسية وأزاراً صوفيا ملوناً مضت بها إلى السوق لتعود بثمنها ببضع بيضات وقليل من ارغفة الخبز ، ولم تنس الصحيفة التى اخبرتهم بأن الانكليز يجهزون امتعتهم للرحيل ، وأن عرش الامة قد يكون هذه المرة لابناء البلد . كان الملا قد قرأ الخبر بارتياح واسبل عينيه صامتا مصغيا لصوت الايام القادمة .

حضر الرجال جنازة أبيهم وهم ملثمون تحت يشامغ حمر بكى مرتضى وفاضت عليه اشواقه ، سمعهم يتحدثون عن صبى آخر رُزق به ، لمح الصفوان بطن زوجته متكوراً فكبر فى ضميره فخر رجولته .

طرم الملا من آخر رغباته فى أن يدفن مع والديه ، فقد بيع البستان بعد أن غرق بالطوفان الأخير ، ولم يكن هناك سبيل سوى القبول بثمن بخس ، بعد أن نكست غابات نخيلة سعفاتها المريضة بالماء .

قضى الملا آخر ايامه فى سكوت مكين ، يرقب بعيون منكسرة ضجيج النسوة المتذمرات من الحاجة واحتجاج القادرية على انتماء الرجال إلى اعمال سياسية نسفت الخبز والأمن بين جدران بيت الملا . كان يقضى نهاره فى الباحة الصغيرة المقابلة للقبرين ، يخشخش مسبحته ، سارحا يجثو عند قدميه رفيق الصبا يرسل إليه عيونا يكبر

فيها الحب الممزوج بشفقة رحبة لا يجرؤ على خدش صمته الحزين ، فيسكن هناك يداعب بكفية القبرين . كان وحيدا فى الظهيرة الموحية بموت هادىء تهدل حوله القبرات الهاجعات بين السعف ، اطلق آهة صغيرة وترك جسده على كرسيه الخيزران تحت ظلال شقيفة السعف . انضم سريعا بلا تردد إلى الدهليز المعتم . حدست على السنونو العالقة بين العواميد الخشب فأضطربت لقدومه ، فأخذت تزعق مرفرفة ، وكان هناك خليل الحزين ، و طه بآخر دموعه الدامية . اقتاده الرضوانى الكبير إلى أحضان ولديه دون أن ينبس بحرف واحد ، وكفه العريضة تمسح على كتف ولده الوحيد .

جلس الجهم فى مجلس الفاتحة كرجل يافع يمثل العائلة ورجالها التائهين تحت قباب السماء بخضم ليال موحشة غير عارفين مصيرهم ، محتمين بالبساتين وبيوت الاصدقاء . انتعش شيخ الربابة حينما أخذ يناديه - جدى - وكأنه استعاد بذلك نور عينيه فى دهليز الوحدة .

أقفر البيت من رجاله ، وصارت أزاهير القداح كلما أورقت توقظ فى الشمرية دموعاً تسفحها بكبرياء وهى ترقد يصلبها على سريرها ألم الروماتيزم ، تتسمع هديل الحمام والقبرات على قمم النخيل التى كانت ملكا لها يومًا ، وافتقدت لأول مرة صحبة الزنجية ، وتذكرت بعرفان بالغ أصابعها المدلكة مواضع الألم ، ترحمت على روحها التعسة ، واعترفت لنفسها وهى تتحسر دون أن ترفع من شأنها .

- كانت خادمة مجدة

وفى سريرتها سامحتها لأنها ماتت بلا إنذار سابق ، لم يشعر أحد بمرض الزنجية المستعر فى أحشائها ، فكانت تقضى لياليها مؤرقة الالم ، ظنت بادئ الأمر أنه الشوق العاجز للرضوانى البهى ، ولم تجرؤ أن تطلبه فى يوم ما ، حتى فى أيام هدوء أشواقها إليه ، كانت النار تستعر فى احشائها . كانت تدور فى غرفتها يلحق بها صغرها يشهقون ببكاء اخرس خائف ، متعلقين بطرف ثوبها الأسود ، وهم يرونها تعض طرف

فوطتها السوداء الخشنة ، فيقبلون وجهها الغارق بدمع الألم المالح يجرها ابنها عباس ، تعتمر عينيه شحنات غضب مفجوع إلى فراشها البارد المهجور . كان فراشها نظيفًا علقت على كتف معدنه الاصفر عدد المرات التى منحتها فيها الحياة نعمة أن تكون تحت جسد الرضوانى الجبار ، بصدره العريض متنشقة بخار تنفسه تدعو لله سراً أن تطول اللحظة وأن يمنحها بهبة مباركة الموت الهانئ . وهى منسحقة بثقل رجلها . كانت تمرر يدها المرتجفة الساخنة على رؤوس أولادها الخمسة ، تقرب عباس أكبرهم منها وهى تهمس فى أذنه : - ستعدنى أنك ستعتنى بأخوتك .

- سأقتلك البقية . أكرههم . كلهم . كلهم .

- عباس ولدى ... ستعتنى بهم لأجلى .

كانت تعرف أن قلب الفتى يستعر بحقد مرير ، وأنها لن تستطيع أن تغير شيئا من هذا ، فكانت تغفو بين صغارها وهى عارفة بأنها ستفارقهم ، وأنهم لن يكونوا أفضل حظاً منها . فى صباح موتها سقط الدلو من يدها ، وظل ماء الحنفية ولعنات الشمرية تحيط بها .

عرف (الملا) أنها ستغادر ، تبعها زاحفًا إلى غرفتها ، تمدد قربها على فراشها النظيف واضعًا رأسها على ذراعه . مس بحنان أكيد شعرها الخشن ، قبل جبينها المجعد ، فرفعت إليه عينين مليئتين بالعرفان ذكرته بعينى كلب أنقذه من بين عصى رعاة غاضبين كان أسود نحيلاً بعيون غطست نظراتها بشكل ذليل ، لهثت قليلاً ، أحاطت وجوه أولادها بابتسامة وداع واهنة ثم مضت بعد آهة قصيرة . كانت شفاه أولادها ترتجف تهمس لها بنداء حار خافت وفاضت وجوههم بالخوف فمن له بعد حنان الزنجية الرحيمة ؟

جُن عبد الجليل الجراخ بالوضاءة هياما على نحو غير متوقع ، فكان يختلس الفرص لرؤيتها ، تغمره الثورة للجسد المفتول بعافية الشباب ، فوقع تحت وابل حمى غرام مخيف تؤججه شهدية باردة متأنفة

تبدد كل محاولاته . كانت الوضاءة تصد بضراوة ، وفضائل تزداد شفافية ونحولاً ، فيتملكه غضب جبار عليها ، فيثور على نحولها وشفافيتها وشفتيها الرقيقتين . لم يغفر لها أن لا تمتلك جبروت الانثى مثل الوضاءة المزدهر ثدياها بربيع واسع . كان يتمرد على مشاعره الجياشة طوراً ويستسلم لها فى أكثر الاحيان . لم يكن يعرف أنه بعد رسالة الحب القصيرة التى اثمرت فى جسد فضائل عطور غرامها الوحيد ، سيقع فى مكيدة الشهد المكتوم فى عيون الوضاءة .

جفل عندما رآها ، واضطربت انفاسه وفى كل لحظة كان يضع الوضاءة فى مقارنة غير منصفة مع الوضاءة فكان يقضى الليل متلمسا التضاريس النحيلة لجسد فضائل ، حالماً بالتكورات الممتلئة للوضاءة هجست فضائل بما يدور فى داخله . إلا أنها لم تتكلم .

كانت تقرأ فى عينية آيات الوجد غير القابل للبوح ، وتصمت . حدست أن الكلام يمنح الأمر شرعية الانعتاق من الأسرار ، فلمت جراحها على مضض عسير .

لم تدرك الوضاءة فى بادئ الامر أن عبد الجليل غارق فى الهيام بها ، بل إنها خجلت أن تفكر بالامر على هذا النحو . إلا أنها التقطت أنفاسه المتسارعة ، كلما مر بقربها . بشغفه بإطالة النظر إليها ، فكانت تتجنب أن تكون قريبة منه ، وصارت تبتعد عن أختها . وافتعلت فى آخر الامر شجاراً ، لتخاصمهما معا وتقاطعهما . أصر عبد الجليل على أن يراضيها ، وأجبرتها (الشمرية) على قبول الصلح . كانت فضائل تعرف أن الوضاءة شعرت بما يجيش فى صدر عبد الجليل وتعرف مقدار المأزق الذى تتناوب الاختين مواجهته ، فانتمت إلى الصبر عسى أن تمتص الأيام واليأس عنفوان رغبته ، ومضت بلا شهية تزدرد الطعام علها تكتسب بضعة كيلوغرامات أخرى تكسي بها جسدها الشفاف ، فكانت تأكل لتتقيأ بعد حين كل ما اكلته ، تُلهبها نظرات

عبد الجليل بغضب مكبوت وشماته لا يعلن عنها . كانت تقضى النهار مغمسة شعرها بنقيع أوراق الآس ، داعكة كفيها وباطن قدميها بالشمع الذائب فتذوب بشرتها فى نعومة رائقة يداعبها لونها الوردى ، فتفوح منها رائحة الآس كلما مرت قربه دون أن يشمه ودون أن تتلمس كفاه احتراقات جلدها الوردية الناعمة تؤججها أشواق الحب محاولة بأمل لا يموت أن تستعيد رغبة عبد الجليل فى الليالى الأولى ، حيث كان يقبلها من أصابع قدميها ويلف على رقبته شعرها قبل أن يرى الوضاءة داخل حوش النارنج وهى تهنئ أختها بابتسامة فضحت أسناناً كبيرة بيضاً تكشف عنها الشفة الممتلئة . وقف أمامها مشدوها يكاد يسألها : لِمّ لم تكونى أنت ؟

أهملته الوضاءة وغالت فى ما بعد فى تجاهله : آملة أن تنال بغضه لها أو أن تنقلب رغبته بها إلى حقد ، وأطبقت هى الأخرى على شكوكها وصارت تقضى معظم أوقاتها فى غرفتها أو مع البلورية مساعدةإياها فى تربية مولودها الجديد . وكانت البلورية تشعر بالأمر كله إلا أنها آثرت أن لا تقول شيئاً ، فلم يكن هناك ما يمكن عمله .

تحت جحافل شوق حافل بالرجاء ، أسرع عبد الجليل خلف الوضاءة إلى السطح . كانت ترش ترابه ليبرد . حاول ضمها ، فلطمته بالسطل الذى بيدها وهى تصرخ به .

- أنت زوج أختى أيها المنكود .

نزل الدرج غاضبًا ، صافقًا الباب خلفه ، ليضرب عند عودته ثملاً زوجته ، مواظبًا كذئب جريح على ملاحقته الوضاءة حيثما تذهب . اهمل عمله وتذرع بحجج سخيفة تتيح له أن يمسك جيداً بوقت انصرافها من عملها ، بعد عدة أيام أرغم على ترك عمله ، وعاد إلى ميدان فضائل مبتدعاً على جسدها الضئيل الواناً قزحية ، يتعلق بها طفلها البكر عامر يمسح الدمع ويقبل البقع الملونة على جلدها الشفاف .

- ماما ... اواه !

فتجهش من جديد شوقاً لحب يعذبها .

تزوجت الوضاءة سريعاً من رجلها الأول حيث يعمل معها مدرساً للغة العربية . كان ذلك أقرب الحلول انسجاماً مع وضعها البيتى المتحول إلى جحيم مطبق بسبب مطاردات عبد الجليل وحزن دموع فضائل الواعية بألم لغرام زوجها لأختها ، عاجزة عن أى فعل سوى الاكتفاء بالصبر المضنى واحتراق جسدها برائحة الآس غير المجدية .

انضمت الوضاءة بلا ضجة إلى إناث زوجها السبع ، اللاتى ولدتهن أمه قبل أن تحظى بنعمة ولادته ، لتموت سعيدة على فراش الوضع مطلقة عليه اسم سعدى ويكنف حنوناته السبع ، كان يموء برغباته فقط لتهبط إليه الحوريات ملبيات ، فيحتبس الغيظ فى عيون الوضاءة ، وتصد عن الشكوى مفجعة شعرها بالبوح لتنشره باسمها الصريح على متن الصحف ، خالقة بريدها الخاص مع أخويها الهاربين من عسس الدوريات ، فكتبت وهى تبكى فى مخدعها ، كانت كلماتها تدمع بحنانها لأهلها ، تعيش مختنقة بين الحنونات السبع ودلال ديكهن الفريد " ردوا على تحيتى ... فسلامًا " .

قرأها الصفوان ، فتلألأ الدمع فى عينيه رغمًا عنه وغاص قلبه فى اشواق لا ترحم ، وادرك أن أخته تعانى ، وأن البيت وأهله بحاجة إليهم ، فأنسلا فى ظهيرة مقفرة أشعثتها الحرارة إلى دارهما ، فتنفس الأموات الرضا لقدومهم ، وتكدست النسوة فوقهما يعمدن جسديهما بماء الدمع المقدس .

تسمر العداء محكمًا بين البلورية حادة الطبع ، والقادرية بينما الشمرية تتابع من عرش سرير مرضها دون تدخل ، فلم يعد صولجانها قادراً على الحسم والمداهمة .

أخذت زمر مختلفة من نساء القادرية المضخمات بعطور رخيصة ، يتمخطرن فى البيت الكبير بزيارات مطولة ، حاملات أكياس الفاكهة

وعلب الحلوى ، يطلقن ضحكات عالية ونظرات متقززة ، يصوبنها بتشف ماجن ، نحو طشت النحاس الذى تدعك به البلوري ثياب الآخرين بأجرة زهيدة ، فقد اختارت أن تغسل بعد العوز الذى ادركها منذ غياب مرتضى فى فراره المستمر - ثياب العمال والطلاب من ساكنى الحى ، يلهو حولها الجهم وأخوه الوليد يبعثرون مراثى الأخت الجديدة لها بين اشجار الآس ، وبطنها المتعالى للمرة الرابعة فاضحاً أثر الزيارات الليلية الأمر الذى دعا ضابطًا لئيماً داس البيت فى الأسبوع الماضي حينما نفت رؤيتها لزوجها المتغيب منذ شهور طويلة أن يقول مشيراً إلى بطنها المتكور .

- سيكون لطيفًا لو أعلمتنا من صاحب هذه المتعة ؟

وأشار بعصاه الرفيعة إلى بطنها ، فعضت شفتها السفلى بقسوة وهى تصر على الكلمات المنبثقة من بين أسنانها .

- الألطف أن تسأل والدتك عن متعة حملها بك .. انهم يقولون ..
صرخ الضابط بها شاهراً عصاه

- قحبة !

واستدار دون أن يجرؤ على إكمال تهديده . خرج وهو يتوعد . اشتاقت تلك اللحظة لـ مرتضى للأمن بين ذراعيه ، وأن تلقى بنفسها فوق صدره العريض ، وأن ترى بعينيها كيف سيلقن الأوغاد درسا لن ينسوه . تمتمت : أنه لن يتركنا للجبناء ، سترون ما سيفعل بكم !

كانت متيمة برجولته وكلما انبثقت اشواقها لرجل حنانها ، تعض الوسائد هاجسة لكل نأمة منادية إياه طوال الليل . لم يكن لحضوره موعد محدد ، لكنها تحدس فقط أنه سياتى ، وأن الليل القادم سيحمله ، فتعد الحمام وصينية الطعام تلبس غلالتها الوردية الرقيقة الوحيدة التى تملكها ، فيبرق جلدها محتفلا ، وحين لا يلبى النداء يغلبها الحنق والنعاس ، لتصحو ثائرة صاخبة الشكوى ، مؤنبة اياه على طول

غيابه ومتحسرة على الليالى التى تمر دون أن ترى فيها أستاذ حبها الأول ودفء أصابعه ، إلا أنها تندس بعد حين بحنانها إليه وتنسى شكواها وتنتظر .

أخذ الوقت يثقل عليها بوجود هذه القادرية ، بوقفتها المائلة ، ترمق طشتها النحاس باحتقار ، متباهية بأكياس ضيفاتها الغريبات المتطايرات بين ممرات البيت . وقفت إحداهن ازاءها تصعدها بنظرة علق أبليس عليها أهدابه . قالت بصوت يوحى بالتعاطف عندما كانت البلورية تصب غضبها فى قطع الثياب المغمورة بالرغوة تعلو ساعديها فقاعات كثيفة تلهو صغيرتها بالمتطاير منها كفراشات براقة وبملاقط خشبية بعثرتها على صينية نحاس فتطرب لصوت تساقطها الرنان فتصفق بيديها الصغيرتين :

- إذن انت ابنة رئيس البلدية .

تحسرت بعمق وأضافت .

- خسارة !

- ماذا ؟

رفعت (البلورية) فى مواجهتها رأسها بعصبية وقسوة .

- أقول خسارة . ألست ابنة هذا الرجل المهم ؟ كيف تتركين طشتاً سخيفاً يهزم شبابك .. إنك إمراة !

- اغربى .. هيا اذهبى .

رمتها بقطعة الصابون ، فجفلت الفتاة ومضت إلى داخل الغرفة مع سرب بنات القادرية .

أنفت البلورية عن أية مساعدة خارجية ، كانت ببساطة تقول أنها : تناضل كما يفعل زوجها المتشرد معتقدة تماما بأنها ستصطبر ريثما يأتى ليكافئ بطولتها ، فتعلمت أن تصوم النهار كله لتحيا على وجبة وحيدة لتمنحها عضات الجوع الموجعة احساساً بالعزة . كانت تريد بقوة أن

تبارى مرتضى فى بأسه ، وأن تستحق حبه وتنتظر أن يثمن جهدها المبذول . حاول والدها رئيس البلدية ذو الصلعة الحمراء أن يساعدها فرفضت .

كان يعرف أن هذه المغالاة قد تصل بها إلى حدود مأساوية . وفى مساء زارها وجلس الأطفال على بطنه وكتفه يتناوبون المكوث قليلاً لينحدروا بعدها . سمعها تحدثه عن بطولات مرتضى وعن جولاته ضد اعدائه والدرك والعسس كانت متحمسة تشتعل وجنتاها بدماء شبابها المتقد :

- مترضى رجل .. ولا يمكن لأى رجل أن يكون بطلاً على الدوام .. إن الحياة .. قاطعته بعنف ناظرة فى عينيه مباشرة :

- مرتضى بطل .. إنه كذلك .

كان فى عينيها نداء غريب .. ألقت بنظرتها الساهمة عبر الشابيك قبل أن تقول بهمس .

- قد يأتى اليوم .. بل سيأتى !

فلم يجد الرجل ما يفعله سوى أن يترك الأمر على حاله . كان على تمام المعرفة أنه ليس للبلورية مناطق حياد . وأنها كانت تأنف بتكبر شديد عن الشكوى وتكتفى بمدخول طشتها النحاسى لتطعم أطفالها ، مدربة إياهم على أن لايستمعوا إلى صرخات الجوع ، وأنهم يجب أن يكونوا أبطالا كأبيهم .

من خارج الغرفة جاء صوت والدها :

- انقلى إليه سلامى .

- سأفعل .

قالتها وهى تقلب ساهمة ثوب نومها الوردى ، تداعب بأصابعها مواضع (الدانتيلا) البيضاء التى ستغطى حلمتيها . كانت تحلم صاحية أنه لابد آت هذه الليلة .

كانت القادرية تسمع بتشف عال التدريب اليومى لأطفال البلورية بالامتناع عن أخذ أى شئ من أحد . نكاية بكبريائها ، منحت القادرية بعض الفاكهة للجهم والوليد .

كانت تعرف على نحو أكيد أن الاطفال جياع ، وأن البلورية قد تكابر بكى الطفلان وهما يبصران تلك النعمة الالهية مهروسة تحت قدمى العنف الامومى . جرتهم خلفها يضج صراخهم واعتراضاتهم .

فى موازنة سريعة للشمرية الصامتة حددت موقعها واقرت فى نفسها لذكائها :

- لن تتدخل .

فليس بالامكان محاربة نساء القادرية وأكياس النعيم ، كما أنها ليست معتادة على النفايات بكامل أنفتها التي يقدمها طشت الاجرة البلورى ، رغم نواياه الحسنة ، وسيصعب عليها أن تقف ضد هذه البلورية الجسور فهى تعرف مقدار خطورتها . خلف سياج الترقب واصطياد الفرص المتاحة ، كان اولاد الزنجية الراحلة ، أربعة قد شبوا يكدر أرواحهم احساس بالتضاؤل والصغر وعقدة انتمائهم إلى مجريى دم مختلف ، كانت الشمرية تقصيهم عنها ، يذكرونها دوما بلعنة أن وصيفتها أصبحت ذات يوم زوجة للملا . الميزة الوحيدة التى حافظوا بها على وجودهم هى الواجب المترتب بشكل دورى على أحدهم ليقرفص قرب سريرها ملبيا اوامرها .

رفرفت طيور الفوضى فى ممر القادرية المعاد طلاؤه حديثا ، تعلن عن وصول القادرية الأم ، فى قطار الصباح . هرولت فتاة بساقين نحيلتين ، تفتح الباب الكبير على مصراعيه ، ترفع عنه الستارة المتهرئة ، فدخل ظل كبير حيث سقطت الشمس على هيكل ضخم محلى بجبروت الذهب ما رد اسمر تمخطر بخشخشة ذهبية متعالية . تطايرت مهفهفة اجنحة الولاء ، واحيطت بكومة المنتظرات اسرعت القادرية الابنة تهبط السلالم يسبقها صوتها المرحب ، وفرقعت عند المدخل قبلات لقاء ساخنة . تفحصت القادرية الام البيت كأنها تقول : انه خرب اكثر مما يجب !

والشمرية على سريرها النهاري في الطارمة الداخلية المقابلة للحديقة النارنجية تهيء نفسها للاستقبال . فركت وجهها براحتيها حتى أضاء الدم بشرتها ، تلمظت قليلاً فلمعت شفتاها ، وبتعمد تركت غطاء رأسها ينزاح قليلا لتظهر أبهة ظفائرها الرمادية . توالت أقفاص الفاكهة زمجرت البلورية بحنق ، رفعت رأسها بشموخ وهي تزجر ولديها المتسللين إلى حيث الفرجة العجيبة وأطباق الحلوى ، فازدردا ريقهما بصوت مسموع ، تلصص الوالدان بعيون تلمع بالبهجة ، يدمع في فيهما اللعاب المشتهي للتذوق . كانت الستائر قد أزيحت قليلا وانخرطت النسوة بأحاديث مطولة ، تقطعها بين الحين والآخر ضحكات مدوية وفرقعة أصابع بمرح ماجن . على الوسائد المريحة اتكأت فتيات القادرية الكبيرة يشمرن الثياب من أفخاذ بضة وأثداء ناهضة ، خدر خفيف داعب الجهم تلذذت عيناه بأكتشافه الأخاذ : إنهن عاريات !

همس لأخيه . كانت عيناه ترمش بسرعة . وبدا عليه الانفعال ، واحس بشئ يدغدغ مثانته كأنها رغبة مباغتة للتبول ، و الوليد ساكت لايهمه من المراقبة سوى تلك الصحون المليئة بالحلوى . استدارت احداهن بطريقة فاضحة ، أراد الجهم أن ينبه أخاه إلى منظر مؤخرة الفتاة ، لكنه لم يجده ، اعاد لصق عينيه إلى النافذة ، فوجد الوليد ينسل بحذر نحو الصحون الضاجة بالألوان . رأته النسوة داخلاً تتجه عيناه نحو مكان واحد ، قالت إحداهن وهي تعرض صحن الحلوى :

- سترقص .

ورفعت الصحن بعيداً قبل أن يلمسه .

- سترقص اولا !

صفقن جميعًا ، زغردت واحدة بصوت رفيع . راح يحجل ويقفز والقادرية تراقبه بتلذذ الشماتة : كيف يصيح الديك ؟

- الحمار ؟

- الكلب ؟

- انت تستحق الجائزة .

خارت قوى الجهم وهو يرى أخاه بين تلك الأيادى . فكر بأمه : كم ستغضب !

خرج الوليد متلمظاً يلعق أصابعه منتشياً . قدم لأخيه قطعة مغرية ، فكر الجهم لبرهة .

- لم لا .

مد يده إليها دسها فى فمه مذكراً أخاه بالعقاب الذى ينتظره ، فأخذ الوليد يتوسل إليه بشفاه دبقة كى لا يخبرها . واتفقا على الكتمان وهما يمصمصان أصابعهما الصغيرة الواحد تلو الآخر بشهية متحسرة على نفاد وجبتهما المختلسة سريعاً .

كان الناس قد اكتفوا من الاحتفالات بنهاية الملك الصغير ، المفتت جسده تحت أقدام الغاضبين . قيل أن جسده قد ديس حتى طرقت عظامه متحولة إلى عجينة لينة طويت فى ثلاث لفات كورت بقاياه . بكت الشمرية قليلاً البلورية التى فاجأها المخاض فى فوضى الشوارع تقص عليها فور انتهائها من تقلصات رحمها المؤلمة ، عجينة بشرية صغيرة حمراء ، اطلق عليها اسم الوضاح نزل جائعاً صخاباً ، القمته ثدييها وهى تمسح العرق المتجمع فوق شفتيها بقطرات لامعة . قالت وهى ساهمة تنظر إلى بقع دم الولادة التى لم يتم تنظيفها بعد :

- لم يكن هناك دم على جسده قد يكون الملك بذاته ، لا أعلم إلا أنه أحدهم بلا شك .

كانت عيناها زائغتين عندما همست : أنه الجحيم فى الخارج .

اكتشفت بلاوعى أن أحشاءها قد فرغت نهائيًا من حقد تصورته لن يزول للعائلة المالكة ، وأن بعض الشفقة تسلل إليها ، تنهدت بعمق مريع وهى تراقب شفتى وليدها الحمراوين تطبقان على الحلمة الوردية وقد انحدرت قطرات حليب فوق الذقن الناعم . طالبتها الشمرية بالسكوت وغرقت فى تفكير عميق . انهمكت النسوة فى مساعدة الأم ، وتظاهر الاطفال لرؤية المخلوق الجديد .

انتصبوا على أطراف أصابعهم ليلقوا نظراتهم الفضولية مكتشفين براعة أن يكون لهذا الكائن فم صغير مدور منشغل بهمة غير متوقعة باستدرار الحليب ، نقبوا فى اللفائف البيض ، وأضحكهم صغر حجمها . دار الوضاح بين أيدى الرجال يباركونه بقبلات خفيفة ، معتبرين مجيئة علامة بشير وفأل حسن لأحلام مبهجه كادوا يخططون مستقبلها عندما اخرسهم صوت الشمرية العميق حينما هجمت :

- إنه من آل البيت . ألا يذكر أحدهم هذا ؟ هل ديس بالأقدام . أحقا حصل ذلك ؟ اسمعونى لعنة الدم مخيفة .. هل انتم .

ونظرت إلى وجوههم واحداً تلو الآخر تنتظر الإجابة ، قالت قيل إن تصمت تلك الليلة :

- لعنة الدم مخيفة .. يا إلهى أنه بعمر طه عندما مات . ستأكل اللعنة أقدام من تعثر بجسده !

أدارت بوجهها إلى الجدار وهى تسبح بمسبحة الملا . غفت وهى على تلك الحال حتى أنها رفضت على غير عادتها طعام العشاء .

اضطجع مرتضى قرب زوجته سعيدا ملتهب الشوق ، تحسس متحسراً دفء جسدها وهى تتكئ على يدها وهو يعلم أنه لن يتمكن من إكمال مشوار متعته . ابتسمت له بحنو وهى تربت على وجهه :

- ستصبر قليلا .

كانت تعلم أنه لن يصطبر . فى تلك الليلة حلما بصوت عال وأسسا جمهورية عظيمة . ونام مرتضى عاريًا : لن يطرق الباب شرطى !

قبل انطفاء أنوار احتفالات الثورة الجديدة كانت الرشاشات قد عادت للظهور ملهبة السماء بزئيرها . وتخبطت وتشابكت مجدداً الاراء إلى حد التعقيد .

حزب يصعد ، حزب ينزل وخطابات ، ولاشيء واضح ، بعد اشهر قليلة من إعلان الجمهورية لم يعد مرتضى قادرا على النوم عاريًا . وعاد كما فى السابق يحتفظ بكيس الضروريات جاهزاً .

– لا شئ مفهوم .

علق الصفوان وهو ساهم . أعيد فصله من وظيفته وأعيد شريط الاستجوابات . كانت فى بدايتها لطيفة مستفسرة . ثم ارتفعت وتيرتها لتصبح اتهامات ليشرق من مجد الهجمات مجدداً ، وعزف مرة أخرى نشيد النار فى الأوراق السرية بينما امبراطورية الأطفال الرضوانية تنمو عشوائيًا .

استطاع الصفوان فى الليلة ما قبل الأخيرة من حياته القصيرة المشعة ، أن ينجو من مداهمة غير متوقعة . استيقظت الوضاءة وهى مبللة بالعرق . كانت أكيدة أن الوقت ضيق ، فأخذت تصرخ من سريرها قبل أن ترفع عنها الغطاء :

– إنهم قادمون !

ركض الرجال إلى السياج الذى يفصل البيت عن البستان حتى إنهم تمكنوا بعسر من إعداد حقيبة معداتهم ، فخرجوا دون توديع وقبلات فى اللحظة التى رفس فيها الباب ، وانفتح على مصراعيه يئن خشبه .

كان الليل كثيفاً فى بستان (الحاج صاحب) ، آخر ملاجئ الفارين . وسط دغل من الأشواك مضى مرتضى يقضى حاجته ، تراوده شكوك صفوان :

– سيغدر بنا ، دعنا نذهب الأن !

- أنت متعب .. تفكيرك يشوشه الجوع والنعاس .. الرجل طيب ومسكين .. لا اظنه يؤذينا .. إنه صديق المرحوم ..

تشكى صفوان :

- اسمع يا أخي .. قلت لك أنى سأموت إن عدت إلى هذا المكان . انبأنى حدث ما بهذا . أنت تعرف .. قلبى أخبرنى .. كيف أفسر لك .. أن تندم بعدها .. سأموت أنا أعرف هذا !

سكت مفكراً واطال النظر فى الأشجار السود الكثيفة المحيطة به كأنها طوق نذير . تنحنح مرتضى مع وجيب الشك المتنامى : - حسنا سنغادر صباحًا . نقضى الليلة فقط إن شئت غادرنا الآن .

انقلب الصفوان على ظهره متوسداً التراب ، مصالبًا يديه تحت رأسه ومتابعًا شهابًا مر سريعًا فى قبة السماء البعيدة ثم انطفأ .

- لا يهم . إن المرء مربوط بقدره .. لن ينفعه الهرب فمهما فعل سيظل عبد اللحظة التى تتحكم به .

كان للصفوان حدث يماثل حدس الحيوانات ، فيبرق له نذير داخلى معلنًا عن الخطر .

قال قبل أن يضع رأسه على نعليه لينام .

- إليك ما سيحدث هذه آخر ليلة لى !

استولت عليه ذكريات سنوات الهروب الدائم .. الزوجة والأربعة الذين قد يبقون بلا أب . تذكر الرضوانى وجيوش الفقر تدك حصونه . جرفته رغبة رائعة فى أن يستعيد لوقت قليل بساتين الماضى .. اللعب مع الأصحاب والأخوة ، أيام آمنة خالية من العذابات ، إذ كل شئ ممكن وقابل للاسترخاء بأحلام عريضة . قال وهو يكاد يغفو مستفيقا بكل الحماقات اللطيفة الماضية بين الصحوة والحلم يتراءى له الملا بجسده الضخم وكفه العظيمة تمسح وجوه أولاده يستعرضهم بحنو رجولى مكبوت :

- كم أنا مشتاق لأبى .

أرسل مرتضى آهه كبيرة .

- هذه الأيام بنت كلب ، أدارت ظهرها له وأشاحت عنا حتى هذه الجمهورية لم ترحمنا . سنغادر فى الصباح . الاخوان سيرتبون لنا مكانًا آمنًا فى الجنوب . ولكنى كنت أفكر أن علينا أن لا نبتعد كثيراً عن البيت . فالنساء وحيدات .

أطبق صفوان جفنيه وهو يقول هامسًا .

- سيغدر بنا . إنه سيشى ! أقول لك أنه سيفعل . يحدثنى القلب كان القمر قد أرسل نوراً خفيفًا من خلال غيوم عبرت بصمت كئيب مجللاً أشجار الرمان المزدهرة بكؤوس حمراء . مرت بجانب (مرتضى) اشباح سود منقبة ، كانت أصابعة تزرر بنطاله ، كادت أنفاسه تلطمهم ، وضع يده على فمه لئلا يصرخ ، كان يرتجف وقلبه ينادى أخاه ، يعصف صوت الصفوان فى رأسه .

- سأموت .. سيشى ..

ثانية فقط ، ثم انفجر فضاء البستان بصراخ يشق ثياب السكون الليلى .

تلاطمت أشجار الرمان تساقطت زهراتها الحمر المتفتحة إثر معركة خاسرة ، تدور رحاها بين فرد وحيد مؤمن بقدره وعشرات الايدى تتناوشه بحقد غير موصوف . انهالت عليه العصى فى مد غريب مفزع مكتوم ، كانت تئز خاطفة قلب الفضاء قبل أن تنقض على جسده ليصرخ من ألمه :

- لك أخ يابه !

كادت صرخاته تتلاشى حين ارتفع صوت آمر :

- كفا .

سحلوه من يديه المدماتين فوق الأشواك . مر جسده قريباً من مرتضى المكمم فمه بكلتا يديه ، تجرى دموعه من عينيه المفتوحتين على اتساعهما مليئتين بالخوف والندم ، يعقدهما بشريط أسود شئ اسمه العجز . حمل الصفوان إلى سيارة متوقفة قرب البستان ، ربطت يداه وعصبت عيناه ، لينهار العالم يعد أيام قليلة جداً ، عندما دخل جارهم (حامد أبو حدبة) يتصبب عرقًا ، لاهثًا زاعقًا .. تتقطع انفاسه والكلمات يشير بكلتا يديه إلى الخارج وهو يبكى . كانت الشمس فى اوجها فظللت الشمرية عينيها لتراه جيدا ، تراكضت النسوة نحوه ، ترنح على الارض وهو ينوح : قتلوه .. أنه معلق امام المقهى على عمود الكهرباء !

خرج جحفل البؤس خلفه ، كان الصفوان هناك فى آخر الشارع ، متورم الوجه ، جف الدم علي جسده ، حز حبل خشن رقبته فخلف خطوط دماء نحيلة يابسة وازرقت أصابعه المقتلعة الأظافر ، يئز حوله الذباب بفوضى مزرية . شقت (القادرية) ثيابها . خمشت وجهها بأظافرها وهى تعول .

- آخ يا صفوان .

أحاط أولاده الأربعة بها وهم يبكون بفزع . تعكزت الجدة خلف الجميع وسقطت مغشيًا عليها حالما وقع نظرها على ابنها عاليًا مشنوقًا بحبل متين .

حنى مرتضى رأسه قبل أن يضيف بعد سنوات طويلة من هذا الحادث عندما ساله الجهم عن حقيقة موت عمه الصفوان .

- هكذا رحل الصفوان عمك وآخر أخوتى .

تعاظم أحساس بالازدراء فى وجدان الفتى ، فوجد نفسه يقول له وهو ينظر إلى عمق عينيه المنكسرتين .

- كان حرياً بـك أن تمت معه . فقط استغرب من أمر كيف للمرء أن يحيا مع خزى كهذا ؟

خرج الجهم لا يلوى على شئ ، تاركًا لـ مرتضى أن يتجرع وحده مرارة خزيه وهو يتسعيد قدمى صفوان المقتلعة الأظافر ، تسحب خطواتها إلى الدهليز المعتم حيث اعشاش الموتى تنام على ترنيمة السنونو وبخور الماضى الحزين .

فى تلك الليلة المشؤومة عاد مرتضى إلى بيتهم مرتعداً ، يبلل العرق جسده ، يضرب رأسه بعنف في الجدار ، والنسوة حوله ذاهلات . أضيئت الأنوار وتخلص الأطفال من أغطيتهم ، هرعوا يتسمعوا العويل الحيوانى الغريب : - أخذوه .. أخذوه !

رفعته النسوة إلى الفراش . كان جسده يختض بعنف ، تصطك اسنانه بطقطقة مسموعة ، وضعت البلورية رأسه على صدرها الذى لم يغفر له ولن ينسئ مطلقا أنه ترك الصفوان وحيدا للغربان تنقر عينيه ، فأنتكس الحب .

فى تلك الليلة حدبت عليه حتى الصباح . كان محمومًا يهذى بنيران غير مرئية تكويه حيًا ويشم وحده رائحة شوائه الغريبة ، مناديًا ملء صوته باسم الصفوان . بكى فى صحوة صغيرة بين يدى البلورية الذاهلة وهو يعيد ما قاله :

- أخذوه !

ناظراً فى فزع إلى يديه الفارغتين فيعود ليكمم بهما فمه بإصرار .

غرق مرتضى بعد تلك الانكسارات المتوالية فى دلو الخمرة ، يغرف منه النسيان ، فتنفتح أمامه عذاباته مديدة واسعة مخجلة ، ليعود إلى بيته تذبحه نظرات القادرية تخز بها قلبه ، والحقد المتعلم عليه حديثًا من ابناء أخيه فتسيدت القادرية ، بثأرها على العائلة لتبنى قانونا آخر مختلفًا . دابت الليالى تأتى مشحونة بأزيز الرصاص ،

متداخلاً بفوضى التحليلات تتضارب فيها الآراء ، والنهارات الصخابة بالهتافات ، تضج بها المدينة ، بينما لاتعرف هويات الجثث المعلقة على أعمدة الهاتف والكهرباء وأشجار اليوكالبتوس الرشيقة حيث يقطر منها الدم ، معلق على صدور الجثث (الموت للخونة) دون أن تعرف من هم الخونة ؟ ولمن كانت الخيانة ؟ لم يكن غريباً بقدر ما هو حزين رؤية أجساد مقطعة ، مرمية على جنبات الطرقات ، يحيطها الضباب ملتفًا بالدماء الذابلة ، حيث تسيل فى تساؤلات مبهمة وطبول الموت تدوى ، تقرع الأبواب الموصدة غير الواعية لحقيقة ما يحدث .

– ماذا هناك ؟

يصرخ أحدهم من خلف نافذة خوفه ، ليسمع صوتا آخر خائراً :

– من يدرى ..

– من العدو ؟ أين العدو ؟

سؤال محير ، سيشرب الوضاح الذكر الثالث لـ مرتضى ، الرابع فى مسلسل الفحولة العرجاء ، من ذات نبع الحيرة فى آخر هذا القرن ، تصهره رمال مغموسة بالدم يتطاير بخاره فى دوامات سريعة الذوبان ، يستنفر دماء الجثث المهشمة حوله فى سكوت الموت ، ونداءات الاستغاثات تبهت بلا مجيب ، تهدر الريح الصحراوية العابثة بمزق ثيابه ، يصرخ فى ليلة مكتملة الحزن :

– أين العدو ؟

المطر ينز أسود من سماء مظلمة عفرتها المعارك ، فيغوص الدم فى الرمال يدوى الصوت وصدى السؤال : أين العدو ؟

يعيد فى نهاية قرن التعاسات ذات السؤال فترطمه سرب الدبابات الأمريكية وأزرار الليزر ، تلهو الطائرات باصطياد الرجال التائهين فى حلقة الرمال ، تحمل معركتهم تلك اسما أطلق بضجر شديد : صيد الطيور !

حيث كان الطيارون المتخفون بين أجنحة طائرات خاطفة كالبرق يتسلون باصطياد الجنود ، فيختارون موضعًا معينًا فى جسد أحدهم تنفجر القذيفة المصحوبة فى الجسد الأعزل ، فيصيح طيار اشقر بنشوة شديدة رافعًا إبهامه بقوة فى وجه شاشته المضيئة .

بنغو !

غير حافل بالمزق الوردية المتناثرة من أجساد الموتى وحقول ذكرياتهم المثبوثة فى مراعى الصحارى والصور العائلية المتطايرة فى بهاء الريح ، تعبث خلف سياج الأشواك ، تخز أصحابها ، تنادى وجوههم الملتصقة ابتساماتها فى الورق الصقيل . فى عمق ليل الصحراء الدامى كان الوضاح يرمم بين الدم وجثث أصحابه المتقطعة أوصالها من خوذهم المبعثرة تلال متاريس يفترض أنها ستكون سواتر منيعة . ويصرخ .

- إلى الأمام ..

فلا يسمع من شدة لوعته صوت هزيم القصف ولا نواح الوجوه الملتصقة فى الورق الصقيل المحتجز خلف أشواك الذكريات التائهة فى بهيم الليل .

انزلق مرتضى إلى بئر عميقة من الخذلان ، محتقراً نفسه ، ولحظة الضعف التى تزعمت ليلته لتأسره للقادم من عمر فى نطاق الندم .

- وقع هنا !

وقع وهو يرتجف ، وقع وهو يبكى وشعور بالضآلة يحتوى كاملاً ، لم يستعد أبداً قواه . تسلط عليه شعور مستمر بالرعب مثير للشفقة التى لم يجدها عند أى كان ، فينهار جسده ويرتعش بلحظة إن مر بقربه شرطى بائس فيكاد يبادره بالقول .

- لقد وقعت .. ربما لا تدرى لكنى وقعت ، وأخلى سبيلى ... حسن بالضبط هكذا أخلى سبيلى .

سقطت رجولته تحت منجل الخوف ، ولم تعد البلورية تسعد بيديه الباحثتين عن السلوى فى حلمتيها ، فتستدير بعيدا عنه مخلفة له دخان الهزيمة ، يثور ليجد فى عينيها قبضة اتهامات ، فتغشاه البرودة وتهرب منه الدماء فيخرج إلى ممرات الليل ، يدخن هاجسًا حفيف ثياب الموتى يضمدون جراح الصفوان وصوته - ياللوجع - لا يبرح رأسه يضربه كمطرقة قاسية .

- أولاد الكلب اتركونى .. لك وينك خوية ؟

تنقص أظافره واحداً فقد وجده الجهم ، ظهيرة ذاك اليوم ، بعد أن جرت الجسد المشنوق ، نساء العائلة وهن يتصارخن بدموع جففها الفزع . راح الجهم يركض فى البيت يتبعه الأطفال ، يزحف من عيونهم فضول خائف :

- اظفر عمو .. انظروا كله دم .. أنا وجدته !

و الشمرية العجوز مسلوبة القوى ، تغويه بالحلوى ، تمد إليه يدين متوسلتين منحها إياه مقابل درهم ، وضعت الأظفر على طرف فوطتها البيضاء ، هدلت عليه شعرها الفضى وهى تنشج ، فسمعتها كل قبرات البستان بنخيله المتسامق هدلن معها جميعاً فى نشيد يشبه أنين الموت .

- ولدى .. آخ يمه وليدى .

مع انفضاض المغيب وأشجانها ، صارت تسمى ببكاء طويل أسماء موتاها وفواجع أقدار رجالها .. يحيط بها الأطفال ، فتمسح النسوة عيونهن وأنوفهن التى سالت ، يتسمعها مرتضى حبيس زمن يعيشه وغرفته ، فيعوى وحيداً وهو يعض على أصابعه حتى يدميها وصوت الصفوان يلوى ذاكرته يعصرها بحريق لا منجى منه .

- وينك خوية ؟

ألقت البلورية عباءتها . يتبعها والدها النحيل تعلو رأسه صلعة مفرطة الاحمرار والنعومة ، يتعارك الأولاد على لمسها ، فيضحك لهم بفم أدرد وعيون مجعدة .. صرخت في الطرمة رافعة رأسها إلى الاعلى ، موجهة الحديث إلى مرتضى .

- قتل الزعيم !

- به .. يمه .. أبداً لن نرتاح وكل هذه المصايب علي رؤوسنا تحيط بنا .. اشتروا بعض الخبز .. اسرعوا قبل أن تقفل الأفران أبوابها .

تحسرت الشمرية العجوز ، ومضت تعد حبات خرز المسبحة وهي تفكر .

أتكون لعنة دم الآخرين !

كان يوم جمعة كئيباً .. انزوت فيه الشمس خلف هضاب غيوم رمادية كثيفة أقفلت المحال التجارية وأنقطع السابلة من الطريق ، ورشقات الأسلحة النارية تجوب الشوارع مصطحبة دم أحد ما .

أقفرت الحياة .. تذمرت الشوارع الخالية يلفها الغموض ، يخترق منعطفاتها بين آن وآخر رشق سريع من سلاح خائف ، مثل حيوان مضطرب الحواس تابع مرتضى الأحداث يتنقل من شباك لآخر يقرض أصابعة بأسنانه .

- قد يأتون .. أتراهم يأتون .. ولكن وقعت .. سأقول لهم هذا !

تجلس بعيداً عنه بلوريته ، تقطع الخبز كسراً صغيرة في اقداح الشاي ، يستدير اطفالها مع استدارة الصينية وبطنها المرتفع للمرة السابعة . قلّب مرتضى الصحف مرة أخرى ترتعش يداه ، تغلبه لرشفة خمرة تحرق جوفه تغلف خرابه .

دس رأسه الخائر تحت مناجل الصداع . كان رشيش الماء بارداً ، شعر بحراشف القادرية تقترب منه ، قدمت له منشفة جافة .

- أنت متعب .

حرك رأسه بالإيجاب فتقافزت قطرات الماء على رقبته وذقنه الأشعث . جرته خلفها مطيعاً . دلفت به إلى غرفتها الدافئة . أيقظت أبناءها .

- حسنا يا سادة عمكم سيفطر معكم هذا اليوم .

استدار صحن القيمر ناصع البياض ونهض عطر فواح من إبريق الشاى .

- سمعت عراككما .. ألن تكفا أبداً ؟

نظرت إليه من طرف عينيها . بلع لقمته الكبيرة .

- هذا يحدث .. تعرفين الامور تزداد صعوبة .

- أفهم ، أنها عصبية ، مشاكسة .. مغرورة بمجد أبيها السابق .. هه رئيس البلدية .

التفتت إليه ، واجهته تلدغه بنظرات شرسة .

- وماذا بعد .. أنه لن يكون شيئا أمام المجد الرضوانى .

تحشرج صوت مرتضى وهو يتمتم .

- المنقرض .. لم يبق منه شئ .

أتى نظام الإصلاح الزراعى على باقى أملاك الرضوانية فلم يعد هناك ما يذكر منها سوى البيت الهرم ، فقد قضى الطوفان على البستان الأخير وأجهز نظام الإصلاح الزراعى على البقية من أملاكهم أيام سطوع

الجمهورية الأولى ، فكان الصفوان يتندر وهو مصالب يديه تحت رأسه كعادته سارحاً فى نظره بعيداً إلى سماء غير مرئية .

- حتى أنت يا جمهورية !

دفن مرتضى حسرة طويلة ولم يجرؤ على النظر فى عينى القادرية . دفعت أمامه أستكان الشاى ، فداخله شئ من الارتياح والرضا بل والامتنان أيضاً مع الرشفة العميقة الأولى لشاى الصحوة الصباحى .

- ينبغى أن تعيد الزيارة كلما سنحت فرصة لذلك ، فلا يعقل أن نكون سكان بيت واحد ولا نتزاور .. أعلم .. أنها قد تمنعك !

أحس مرتضى بالحرج ، أراد أن يقول شيئاً ، لكنها أضافت وهى تشير بيدها إلى اولادها .

- أنهم أبناء أخيك .. يا حسرتى هم أيضا بحاجة إليك .

غار قلبه ، غاص بعيداً .. لمح الصفوان يجلس كعادته على حافة النافذة المطلة على النهر .. صامتاً .. فى عينية نظرة لم يدرك مغزاها .

- لابأس ، المهم أنك موجود .. يجب أن يبقى رجل للعائلة على الأقل هذا .

سارت نحو النافذة ، فاختفى الصفوان الجالس فوق حافة نافذتها . قالت قبل أن تستدير بوجهها إليه .

- تعلم أن أمى .. ماذا أقول إنها لا تقصر فى شئ ، لكنهم صغار يحتاجون إلى وجود أثر من رائحة أبيهم .. الأمر ليس المال .

شـمت الوضـاءة المندفعة إلى الغرفة رائحة أمر ما لم تحرزه بعد . كان مرتضى مطاطئ الرأس ، تنكش أصابعه بالسجادة الحمراء المتفتحة الوانها بأزهار متفانية الاحمرار .

حملت الوضاءة هزيمتها إلى بيت أبيها بعد أن عجزت عن إنجاب ذكر الخلود لديك الإناث السبع . بل أنها لم تحمل أى بذرة فى أحشائها طُلقت لتعود بشهدها المكسور إلى بيت الرضواني لتنسج مع فضائل ملحمة حنو فريد ، تتبادلان فيه نغمة مأساة لم تُطرح يوماً للنقاش . وعبد الجليل ينفث مغتاظاً فى بطن فضائل كل عام أنفاساً جديدة ، وهو ينشج حالماً بالشهدية المرة ، فيركلها حين يتدحرج خائباً من قمة نشوته إلى سفح جسدها الهزيل ، فيبكى معها بحرقه ولوعة ، مقبلاً يدها الحانية على جنون دموع عذاباته ، فتضمه إلى صدرها المكتنز بعشق أبدى تجدده حرقة الحرمان فى كل لحظة ، فينطلق إلى فوضى الشوارع تاركاً لأبواق السيارات وأصوات الباعة والتظاهرات ، محاولة أن تُبعد عنه ولو قليلاً هوس صرخات قلبه بحبه المرفوض من الوضاءة .

- ستعود إلى الوظيفة . أنهم يعيدون كل من أوقفوا عن العمل لأسباب سياسية .

لوحت الوضاءة بالصحيفة وعيناها تترصدان وجه القادري بلؤم محنك أغتصبت القادرية فرحته بالخبر ، قبل أن يقطف ظل ابتسامة ، تأوهت بصوت عالٍ .

- لو كان الصفوان هنا لفرح بالخبر أيضاً .

ستمر ثلاثة أعوام كاملة قبل أن تُنجز القادرية الحياكة المتأنية لحبال سرير آخر لامرأة أخرى ، أنجبت خلالها البلورية آخر ذريتها منه ، بنتا أسموها (عميرة) ، أنجبت بلا حب لتكون أول مومس للعائلة .

تحت ذهول أربع عشرة عين دامعة ، هجرت (البلورية) غرفتها فى البيت الكبير .

- لم أعد أقوى على العيش مع نفاية !

كانت تلك أخر كلماتها ، ثم صفقت الباب خلفها . نقل مرتضى وهو يشعر بأمتنان للقادرية ، سرعان ما يزول مخلفاً ندماً لا طائل منه ، فراش فحولته المنكوبة برفض البلورية له ، إلى زوجته الجديدة ذات العين الزجاجية . فقد دبرت له القادرية زيجة غير مكلفة فغادر البيت فى عرس صامت بعد أن تركته البلورية بيومين فأنزرع فى وجوه السبعة ثمارهم المشدوهة بالغياب سؤالاً لم يجد إجابة لدى أحد ما .

- ونحن ماذا سيحل بنا ؟ أين سنكون مع من ؟

لكنهم حافظوا برصانة على نظام العائلة . واعتنى الأولاد الأكبر سناً بصغارهم بحنان طفولى قح . كان (تغلب) الأصغر بين الأولاد يزداد نحولاً وانكماشاً واحساسا موحشا باليتم يخيم فى معسكرات معتمة فى عينية الصغيرتين ، فلا يفهم معنى حزنه يكاد لايجرؤ على البوح بجوعه لأحد ، فيقضى حاجته وهو جالس على الأرض يراقب مياه مثانته تسيل راسمة أشكالاً غريبة ، يتخيلها طيوراً وحيوانات صغيرة يلاعبها بصمت وهو يتمتم ، وألفت عميرة مص ابهامها مستعيضة به عن ثدى الأم ، فتتأسى بشهقات صغيرة تطلقها من لهاتها المطبقة على إصبعها ، وظلت حتى بعد أن كبرت لتكون اصغر مومس فى البلاد تتكور فى وحدتها على نفسها تسحب ساقيها حين لا تكون بصحبة زبائنها ، إلى صدرها وتدس إبهامها المتفلطح ، تختلق منه أحلام حليب

أمومى لم يشبع منه . كانت ثيابهم رثة ، وعشش القمل فى شعر سبل الأشقر الطويل ، فكانت هى مراثى تتناوبا البحث عن أوكاره خفية عن عيون القادرية التى منعت بقرار لارجعة عنه أولادها من اللعب مع اولاد مرتضى . فكانوا فى ليالى الشتاء الطويلة الباردة يلتمون على بعضهم تحت لحاف مازال يحمل رائحة العائلة القديمة تقص عليهم كبراهم حكايات حفظتها عن والدتها ، تجلس متكئة بظهرها على وسادتها المسندة إلى ظهر السرير الابوى الكبير تروى لهم بصوت مشوق مغمضة العينين عن أشياء حدثت وأحلام جميلة وأميرات يجلبن السعادة ورجال يشبهون الأباء والهدايا ، فكان الصمت يلفهم ثمة قبل أن ينطرحوا تحت نجوم غفوة الطفولة المتعطشة للحنان . وحين يشتد عليهم الجوع فيبكى تغلب وتزيد عميرة من مص أبهامها بصوت مسموع . كان الوضاح أكثرهم شيطنة وبأسا ، يسطو بشكل منظم على خزانات طعام القادرية الطافحة دوماً ، فيسرق التفاح والحلوى ، يتقاسمونها بعدل مضحك ، ويخفون آثار الجريمة الواضحة فوق شفاههم الدبقة ، لم يكن أحد من الكبار مدركاً لعالم أرواحهم المفدية ، ولم يتكلف أحدهم مشقة أن يستفسر : لم يقف صغير مثل تغلب صامتاً كالمتسولين على باب أحدهم ؟ ظلت هذه الأيام محفورة فى ذاكرتهم بكل ألمها الممض حتى أن الجهم بكل ما يحمل من صمت وغضب تحول فى النهاية إلى أنانية قاسية جلس فى ليلة إلى ذكرياته بعد حوالى ثلاثين عامًا وهو يبتعد عن أعوامه الأربعين قليلاً لينتحب باكياً ملء قلبه بدموع جمدها الفزع من غرفة خاوية من الابوين . وفى لحظة حنين استعاد كل ذاك الألم وانطلق يعول ببكاء الطفل الذى كانه فى السابق والذى لم يجرؤ أن يبكيه أمام أحد ما .

حل الربيع سريعًا دافئًا فى عام الغيبة الأبوية ، معوضًا بحلوله الهانئ عن دفء اللحاف المتهرئ من شباك الديوان المهجور الممتد لصف دهليز الموت المظلم ، جلست فضائل تراقب مع تساقط حبات القداح المنهمر ، حفيف موسيقى على وتر الحياء غرام طفولى مبكر ، لاثنين من أبناء الجيل الثالث .

زحفت أصابع عامر ابن فضائل الأول ، تلتقط حبات المطر القداحى المنهمر من سماء الاخضرار فى الحوش الداخلى للبيت ، ليغرسها فى شعر مراثى أبنة مرتضى المولدة تحت برج التوبة الحزينة كما قالت عنها الشمرية لحظة ولادتها . جمع التيجان الصغيرة فى كفيه الوردتين وقدمها لمراثى : - هذا مهرك .

كاد أن يقبلها نادته أمه وهى تستشعر اشتداد حمى المشاعر الاقتحامية المبكرة . فتحت مراثى عينيها على فراغ انتظارها للقبلة الموعودة ، ستظل تحلم باقى عمرها بالقبلة المشتهاة التى لن تحصل عليها مطلقاً ، ومع كل السنوات التى تنهمك بها ستفتقد فى لحظات شرودها قبلتها المؤودة فى جنة القداح آنذاك .

- لماذا تقسو العمة هكذا ؟

كانت فضائل تقرأ فى عينى ابنة أخيها سؤالاً حزيناً كهذا كلما لمحتها قريبة من عامر . أحست فضائل بتعب من جراء حجم العمل والمسؤولية الثقيلة ، ففى فوضى بيت مهمل بلا رجال ، حيث يخوض عبد الجليل بدماره الخاص ، وهجرة مرتضى إلى بيت آخر ، وغياب أولاد الزنجية الدائم يحملهم أحيانًا ليل ثمل يسبقهم صوت غنائهم فى الأزقة الملتوية يترنحون بين الأرصفة المذعورة بشتائمهم البذيئة ، لم يكن لها من عون سوى ما نشدته لدى الشهدية لتتحمل معها وزر أعباء الأطفال

السبعة المهملين . كان الجوع يدفع صغارهم بالاقتراب من صحون القادرية المذلة ، يسربل ثيابهم الإهمال ، نموا كأعشاب برية فى أحضان الفجيعة ، تسلط عليهم القادرية سياط حقدها ، تحملهم عقوبة ذنب لم يقترفوه ، ووجدت فيهم الشمرية انتعاشًا لسلطاتها العاجز وصولجانها المتصدع فكانت تكلفهم بكل مهام الزنجية ومن بعدها أبناءها .

تفتح قلب مراثى اليافع على حب مبكر لعامر ابن عمتها . من حنانه الساذج كان يؤلف لها حياة مرجوة ، فكان يخبئ لها فى جيبه شيئاً ما تأكله ، ويمسح أحيانًا دموعًا تنتظر أن يأتى قربها لتذرفها عنده فتتشوق وجنتاها لأصابعه ، تتلقف بلورات الدمع الناعمة ، فيجلسان ثمة بعيداً عن العيون تحت أشجار النارنج يحلمان بحياة لايبوحان بها ، إلا أنهما يقتنيانها فى قلبيهما ، فتضع رأسها على كتفه وتغمض عينيها متشربة أنطفاء طفولتها التى بدأت تشرد منها ، فى كل لحظة تطأ زمانها . لم يمر الأمر بعيداً عن انذارات الكبار وأفكارهم الصارمة ، فكانوا ينتبهون للتورد البهى على وجه مراثى والتماع عينى عامر واحتفال شفتيه برغبة تقبيلها وأصابعه العابثة فى شعرها ، فكان الوعيد يسبح فى فضاء الحوش الداخلى كلما التقيا فكانا يصبحان كلما اختليا إلى بعضهما هيكلاً عظيماً من الرعب . وفى ليلة صيف ستذكرها مراثى إلى الأبد ، تناثرت النجوم على موج الليل لامعة متلاصقة بأسرار غير معلومة . كان صوت الوعيد المنبعث من صوت فضائل عميق التقوى ، قاصاً عليهم حكاية فتى أغرم بقريبته ، وكان يقبلها خفية ، فعلم بهما الله ، ووضعهما فى الجحيم مسلطاً عليهما أحجار الجمر وألم لايقاوم .

فارتجفت ركبتا عامر وابتعدت اصابعه عن كف مراثى حيث كان يتشبث بها فى الظلمة . وغصت مراثى بريقها وارتجفت من مصير

ينتظرها عند صاحب العرش المرصع بالنجوم المعاقب القوى لغرام الأطفال .

لن يفهم العاشقان جيداً ، لم يحجزان عن بعضهما ، وكيف يمكن للرب أن يلقى بهما فى النار يشوى الجمر جسديهما ، فيتحول القداح إلى دبابير حارقة تلاحقهما ، ويخرم شفتيهما - أن عادوا تقبيل بعضهما - بدبابيس ضخمة لاهبة ، ولن يحتسيا بعدها أبداً العصير ، ولن يتمكنا بأى حال من لحق أعواد المرطبات المشتراة بألوانها البراقة من عربة - (سعدون الاعرج) - على ناصية الشارع ، كبر الذعر فى عينى عامر :

- قد نموت من الجوع ؟

وتلمست مراثى شفتيها رصت أصابعها الرفيعة فوقها دون أن تنبس بحرف . ومع أنها لم تكن مصدقة تمامًا كيف يمكن للرب أن يكون قاسيا مع من يحب ومعاقبًا جباراً بسبب شىء رائع كالقبلات ؟ إلا أنها تلفتت كثيراً قبل أن تندس فى فراشها مبكرة ، هاربة فى احلامها من دبابيس الآخرة تركض خلفها ، ساخنة محمرة ، فكانت تصرخ فى فراشها كالمحمومة : - التوبة ... أبداً ... لست أنا .

فى كل ليلة منذ الهجرة الأخيرة للبلورية عن عصافيرها السبعة ، ستبكى مراثى والديها وهى تدلل أختها عميرة النائمة بجوعها ، فتغفو وهى ترضع إبهامها الايسر ، وتنام مراثى فوق كتب الصف السادس الابتدائى ، وصوت فضائل يطرق رأسها مفزعا أحلامها ، يحذرها النار والدبابير ، يوقظ فيها التقوى المصحوبة بقسوة العناية الإلهية .. تحت وطأة حنان ناقم تحرر يدها على الفراش البارد لأبويها ، فتكره أشواقها لهما .

لم يكن العيد بهيأ فى غياب والديها . جاء صامتًا ليحل كئيبا فوق ثياب الأطفال الرثة . تدفق الصيف سريعا فطرق الابواب سريعا ، وانتبهت أشجار المتسلقات على صحو التسلق على شبابيك البيوت المحتمية بها من الشمس . حملاً اسفلت الشارع أقدام (مرتضى) فى زيارة غير متوقعة لأبنائه . دخل غرفة الحب البلورى المهجورة ، يعلم وحده غضبته وارتعاشه . فكر بحنق وهو يمرر بصره على سريرهما الزوجى المخلوعة ساقه ، رصت تحته بضعة أحجار ، زأر بداخله صوت : - أنهم يحملون بلاشك بعضًا منها !

جلس ثلاثة من أصغر أبنائه ينتظرون درر المشط على شعورهم الشعثاء تفحصهم واقفًا ، دون أن يقول شيئًا . كان يرتجف غضبا موجها لهم اتهامات لايعونها . دس قبل أن ينصرف فى يد الجهم دنانير قليلة .

- وزعها بينهم

أمره وخرج . دمعت عينا مراثى ، كانت تمشط لأختها سبل شعراً صارخ الشقرة مهملاً تعول كل ثانية : - لج أخ ثولة ، وجعتنيى !

خبأ الجهم بعضاً من النقود فى جيبه قبل أن يوزعها بينهم ، بحرص أراده أن يكون مقنعـًا بالعدل . خرج الوليد الأصغر منه بعام واحد ، فرحًا ، وانتعشت عيناه المهمهمتان بلغة معتذرة ابداً بالورقة الخضراء كتب عليها : ربع دينار .

ليكون أول من يجهز على تفاصيلها عند بائع الحلويات المبرقشة بآثار هجمات الذباب العدوانية .

تبع الوضاح بجبهته العريضة كأبيه ، والده ، يتسق فى عينيه لون غريب من وحشية وحنان بدائى . سحب أباه من طرف سترته الرمادية قبل أن ينزل الدرج : - وأنت لن تبقى .

نظر مرتضى فى عينى الفتى يكبر فيهما شىء من الوقاحة ، لم يجد ما يجيب به فاحتمى بكبرياء مزيفة .

- كيف حال العروس ؟

استدار مرتضى إلى الخلف ليواجه القادرية بوقفتها المائلة الشهيرة .

أرجوك بلغها سلامى .

ورسمت ابتسامة داخ مرتضى فى وصفها ، وظل طوال الطريق عودته يبحث فى مخابىء القادرية عن تفسير ، وسؤالها يطرق رأسه :

متى ستحملها إلى بيت العائلة ؟

قبل أن يدس فى الباب مفتاحه الجديد ، شحذ لسانه صوت ظن أنه ليس له .

آه ابتسامة نصر خبيثة !

مع ارتفاع حمى بيانات ثورة جديدة وصلت تواً لسدة التحكم حظى مرتضى بأول أبنائه من الزوجة الأخرى .

كانت أكبر سعاداتها أنه ولد بعينين سليمتين ، طرحت عليه بركة اسم جدها (سجاد) .

عاد مرتضى بقافلته الجديدة إلى بيت الرضوانية ، تحف بهم عيون سبعة مخلوقات لوثت وجوهم فوضى مختلفة ، تتفحصهم بلا أدنى فرح عن بعد قليل . وقف الجهم مصالباً يديه فوق صدره . تغلب فتى السنوات الطفلة والملامح الدقيقة وعيناه اللتان بهما سحر براءة لغز غريب ، لم يفقه سره أحد حتى بعد أن عرف بـ عميرة الصغيرة تعرض جسدها لقاء ثمن بخس تمارس البغاء علانية أسند موته تحت ذقنه ، كانت الفوهة صلدة باردة ، فكر لثانية هل بالإمكان عمل شئ أخير ، إلا أنه كان مقتنعاً بأنه لا جدوى ، حتى أنه صرخ وهو يضرب رأسه فى الجدار قبل أن يطلق موته بلحظة واحدة .

- لاجدوى .

لم يكن عسيراً على المرء أن يدرك تعاسته وإحساسه بالوحدة ، إلا أنه لم يكن هناك أحد ما يهمه ما يتكدس فى قلبه الغض من أحزان جمة وإحساس باليتم .

أطلق . فتناثرت مع الرعد خصل شعره وبقايا جمجمته المهشمة ، معلقة ذاكرته المبتورة على سقف الغرفة . ساح دمه نزل الدرج فى خطوط حمراء متعرجة . لم يتمكن أحد من محو آثارها على امتداد السنوات التى تلت نبل انكسارات لم يتحملها قلبه ، فدفع ثمنها عمراً توقف بدوى تضرج به مغيب النهار الأخير فى بؤس ربيعه الثامن عشر غير المكتمل .

افزعت الإطلاقة المتفجرة فى رأس الفتى ، أعشاش السنونو ، وهرع

الموتى يلمون الدم بلا جدوى ، فعاود (الرضوانى) الكبير فتح عباءته ، وجمع ذكريات (تغلب) القليلة الملتصقة على جدران الغرفة المنطلقة من شظايا دماغه ، صوراً مبعثرة هزيلة يؤطرها حزن الغربة وانكسارات مجيدة ، همهم الرضوانى الكبير وهو يفرش عباءته ليلم بقايا الفتى :

- حسناً فعلت بأن تركت ذاكرتك هناك .. أبداً لا تنظر إلى الخلف فكان (تغلب) يمشى مع جده تحيط راسه هالة كثة من ضباب حزين هو بخار ذكرياته وهكذا رأته (مراثى) فى أحلامها مصحوباً بتلك الهالة الكثيفة من ضباب حزين فى ليلة دافئة من شتاء ١٩٩١ دون أن تعرف سبب زيارته لأحلامها بعد كل سنوات الغياب . كان يدور مضطرباً فى البيت وتوقف عند سرير (الوضاح) الخالى ، رأته وهو يتسرب شعاعاً من نور رمادى بين الأغطية المرتبة على السرير .

لم يظهر (تغلب) بعدها لأحد مجدداً ودخل فى غيابه الأبدى من تحت أغطية (الوضاح) الخالية من جسده . فى صباح عودة (مرتضى) . جلس (تغلب) تحت رقعة الشمس ، متسخاً مقرفصاً ساحقاً قملة انهمكت تعبث فوق جبهته الصغيرة ، ترمش عيناه لرجل سمع أخاه الأكبر يناديه بصوت جاف وهو يبلع ريقه .. أبى .

استفزه الهناء بوجود شخص هجس قلبه أنه يجب أن يكون أليف المحبة فناح من مكانه لرجل ظل غريباً عنه حتى الموت .. بابا !

تكون العجاف السبع على بعضهم ، نحافاً متسخين ينظرون إليه بعيون فرغة مترقبة الأذى استعرضهم (مرتضى) كافراً بهزيمته لاعناً بحنانه الجديد لأسرته المنسوجة بوقع ضحكات (القادرية) بلوريته القديمة وثار فى قلبه حقد لم تطفئه السنوات . عاد (مرتضى) بعد أن فرغ فراش (الشمرية) منها ، كان قبل ذلك قد توعدها بأنه لن يشهد جنازتها وهكذا فعل ...

فى خريف سابق ، عاصف أثارت الريح عويلاً مبكراً للكآبة وهى تدوم فى الزوايا والغرف وتبعث بأوراق الشجر تقلبها مصفرة بين المرات المحيطة

بأشجار النازج تساقطت الأوراق مودعة فوق سرير آخر صيف للشمرية . تحشرجت الشيخوخة واضحة فى حنجرة الشمرية كانت الوضاءة قد هجست بموتها فى مغيب منصرم وهى تتابع ازدهار طفح غريب متبارق على وجنتى العجوز بشعرها المفضض طويل الضفائر . جلست متوهجة بين وسائدها الملونة تداعب مسبحة الملا المعلقة فى رقبتها منذ وفاته ، تسامر أناساً تراهم وحدها ، تبتسم لهم وترتب مكان جلوسهم إلى جانبها ، تيقنت الوضاءة من حسدها فقالت الفضائل : استعدى !

كانت شيخوخة مؤلمة قد أطبقت على حنجرتها فى اليوم التالى . جف ريقها واخذت شفتاها الذابلتان تأتلقان بعطش أكيد ، تلهبهما أشواق مكنونة لعشرين عاماً مضيعًا بدون الملا . فى أجمل لحظات الغيبوبة تصحو على كفيه تداعبان رقبتها ، فتشرق فى وجهها ابتسامة دلال صغيرة تتشقق لها شفتاها الجافتان ، فتقطر لها فضائل بقطنة مبللة قطرات ماء مزج بنقيع الورد ، واضعة رأسها فى حجرها يحيط بها الصغار فى خوف وتساؤل .

سألت عن طه وهى تدير وجهها نحو الباب الكبير متوقعة حضوره البهيج يملأ البيت بصخب فوضى شبابه ، وطبطبات كرته يعود فى كل مرة مصطحباً أحد رفاقه يجلسون تحت أشجار النارنج يتهامسون بأسرارهم ، يخبئون بريد غرامهم لبنات الجيران . كانت تعرف على نحو لابأس به أنه قد أغرم حديثاً بفتاة لم تستطع برغم متابعتها ومراقبتها أن تكشف هويتها . كانت ترى عطر رجولته المبكرة يفوح حوله ساخناً ، يمسد فى لحظات تشوقه وحيداً شاربيه سابحاً فى أحلام لم تسبر أغوارها ، فتخفيها رحلاته التى ستأخذ أصغر أبنائها بعيداً عنها . لكنها فى صحوات الموت تلك تذكرت كمن يكتشف سراً مغيباً رسالة القداح المجفف الملصوق بعناية حانية على ورقة دفتر مدرسى ، عرفت أنها رسالة من كلمة واحدة تمكنت (فضائل) من فك رموزها : أحبك .

ظل سؤال يحيرها : - لمن ؟ بمن ؟ أغرم هذا الفتى ؟

حتى أنها فى مأتم حزنه كانت تنتشل نفسها من دوامة دموعها لتقتنص بعينها وجوه الصبايا ، مكتفية بحقيقة معلومة لديها : إن الحبيبة حتماً ستذرف دموعاً بحبات أكبر وشهقات أكثر حرقة !

استعرضت أخر شرشف نام عليه ملوثاً بالدم وبقع الدمع . فانخرطت النسوة فى عويل حاد متفجر ، ولم تحزر الشمرية مطلقاً أى الدمع كان أكثر غزارة وظل سر حبيبة طه مدفوناً معه . زرعت الحمى لوناً وردياً على وجهها . هذت كثيراً . كانت تتوقف أثر كل كلمة تنطقها وعيناها تغوصان بشفيف دمع كثير ، فيلتمع لونهما الرمادى غير الفاقد بريقه القديم والملا يستحثها إليه ، بشوق ينتظرها عند بداية الدهليز ، حيث ترمى خيوط الشمس بريقها . كان وجهها مليئاً بالحنين الوهاج . راقب الأطفال موتها صامتين ، خلف إطار السياج الخشب العلوى ، يرعبهم مشهد الموت ، فتدس عميرة أصغر أبناء مرتضى إبهامها الأيسر فى فمها تراقب بعيون شرهه موت العجوز التى ضربتها بعكازها قبل أسبوع فائت بعد أن ضبطتها وهى تسرق مكعبات السكر المخبأ وتمتصها تحت السرير . أحاطت النسوة المحزونات بالجسد المغادر أجهشت (فضائل) ببكاء حاد فى الشهقة الحادية والعشرين والتى تابعت مراثى عدها ، أسلمت الشمرية الروح فهمست فى أذن اختها سبل :

- كانت روحاً عنيدة

ارتاحت أخيراً وسائدها التى احتملت ثقل جسدها وتركت ألم مفاصلها يصرخ فيأ اضلاع السرير . تكورت فضائل والشهدية على بعضهما وبكتا وحيدتين ، وعبد الجليل يُخْرُم عينيه الحب ، يتمنى أن يلتقط حبات الدمع يلظمها فى عقد ماسى طويل لم تشفع كل التوسلات الذابلة عند قدمى مرتضى الحى الوحيد الباقى من أبنائها ، تركها تموت وحيدة يحمل نعشها البائس رجال ليسوا من نسلها .. أرادت أن تراه للمرة الأخيرة ، لكنه رفض ، فتركت له إرثاً موغلاً فى القسوة سيبطش به ، لفته بإحكام مفرط فى خرقة

لطالما مسحت بها دموعها قالت : - أنه لم يغفر لى دم طه وهذا دم الآخر أعيده إليه ، لعله سيسامح نفسه . كان ذلك الإرث هو الاظفر المفقود للصفوان أحتفظت به منذ الظهيرة التى وجده فيها الجهم كانت تخرجه من صرة علقتها بين ثدييها الذابلين ، تقبله ، تحنو عليه ، تقبله بأصابعها وهى تتمثل ساعات الألم القاسية التى عانى منها ولدها الصموت قبل الموت . تنادى موته من عنفوان قلبها المتفجع به . بقى الأظفر معلقاً بين ثدييها إلى ما قبل وفاتها عندما قدمته القادرية لمرتضى ، سلمته إياه بقلب متشف وهى تقول : إنه بقايا الصفوان !

واستدارت دون أن تسمع منه كلمة واحدة .

في ظهيرة جمعة هبط فيه الخريف بارداً في الحوش الصامت ، جلست الوضاءة تكتب قصيدة لم تطاوعها كلماتها ، كانت حزينة بشكل ما .
عمتي ما بك ؟
كانت مراثي تبحث في حوش النارنج عن لون قبلة ذبلت قبل الخلق ، تفتش كلما نبش الحنين في قلبها ، واحة جذوع الأشجار ، شواهدها الصامتة عن سبب آخر غير الدبابير ونار الرب في ابتعاد فتاها الأول .
- أنا أكتب أحاول ....
أضافت وهي تبحر في السمرة البرية : أتعلمين أنت ملكي .
- كيف يحدث هذا ؟
- أنا من أطلق عليك اسم مراثي . قصيدة كتبتها .. أنجزتها لحظة انعتاق صوتك .
- انت ما بك عمتي .. أراك حزينة .
رفعت العمة رأسها وكأنها تلمح خطاف نجاتها ، فكرت : البوح فردوس العاشقين .
- أنا عاشقة .
تلفتت حولها وأضافت : - أنت لن تقولي لأحد .. آه يا ابنة أخي .. قلبي تفتته الحيرة والخوف .. طبعاً أنت صغيرة على هذه الأمور لعلك لم تفهميها .
ألجمت مراثي لسانها . عرفت أنه ليس بإمكانها أن تسأل عن جفوة ابن عمتها ، رمت نظرة على جذوع الأشجار ، كانت تحفر بأضافرها كل يوم حرفاً من اسمه .
- لن تقولي لأحد .. عديني أنك لن تفعلي .. هذا أمر خطير .. لو علم مرتضى ..
زأرت عينًا مراثي قبل أن تجيب : إنه لن يعلم ، هو بالذات أبداً لن يعلم .

قبل أن تمضى همست لعمتها بحلم البارحة : - أظنك ستكونين له .

روت لها وهى تدفن سر أشجانها ، تعلق نظراتها الكاسفة بأشواقها علـى جذع حمل حرفاً من اسم ابن عمتها ، بتفاصيل حلم العمة السعيدة ، ثم أعادته مجدداً تحت إلحاح العمة الوالهة . نامت الوضاءة تلك الليلة وهى ترجو أن يكون حلم (مراثى) نبؤة زمن مرغوب به ، خدشت أحلامها حركة الشيخ ، يشحط قدماً بعد أخرى بصوت أجش مستنداً على عصا الملا المطعمة بالفضة شاخصاً بعينيه المبيضتين إلى الأمام ، هكذا فى الفراغ اللا متناهى كان يخرج مضطراً من الدهليز ، وباقى الوقت يقضيه منسياً هناك لم يعد يغنى ، فعلق ربابته على الجدار لكنه ما فتئ يكلم الموتى بأحاديث حميمية بولاء لا يخبو.

- عمو تحتاج لشئ ؟

تلمس الهواء المحيط به : - من .. من أنت ؟

- أنا ابنة مرتضى .. مراثى .

- آه مرتضى .. زمن بعيد منذ رأيته .. لقد نسينى .. نسى الذراع الـتى حمـلته .. أمك كيف هى .... دعيها ترسل لى شئ من طبيخها الطيب .

بلا وعى ركضت بنظراتها إلى الباب الخارجى الذى لم تدلفه بلوريتهم فى عودة مستحيلة لكنها همست :

- حسناً عمو سأفعل .

بَرَد الليل .. كان الخريف قد استلم رذاذ شتاء أعلن عن قدومه . فى ليالى الصيف حين يصعب النوم ، كانت فتيات الجيل الرضوانى الثالث يمكثن فوق سرير إحداهن يشرعن فى أحاديث تزيد من حماستهن ، فتتهافت أحلامهن صخابة فيعلو صوت مرتضى مهدداً . أو يعيدهن غناء عمهن عباس العائد من حانات الليل ، تحت الأغطية الصيفية الخفيفة ، ثم يسحبهن الرقاد واحدة بعد الأخرى ، تسقط فى تموجاته سبل أسرع الجميع ، حتى أنها قد لا تكمل ضحكتها أحياناً فتغفو فوراً وشفتاها متفرجتان ، إلا مراثى ، كانت تظل

دوماً إلى النهاية تبحث فى عزاء الصمت عن نشيد حبها المكتوم فيشتد توقها لضمة حنان تحلم بها .

جافاها النوم ، فأسندت ذراعيها على حافة سياج السطح ، تتسمع الصمت الليلى ونقيق ضفادع الضفة النهرية ، تعنى مقاطع طويلة رتيبة وبعيدة . هدلت قبرة على نحو مفاجئ من بين فرجات سعف النخلتين المهفهف تناثر الشغف فى موج شذرات الفضة المتدفقة من قمر خريفى واسع صريح تغلفه هالات السكون وأنفاس النوم ترتيلة هادئة حارسة للأحلام ، شعرت بأنها أصيبت بضربة قمر مجنون أثار فيها إحساساً فادحاً بالحنان فتمنت من أعماق أوردتها أن تراه من لالئ القمر المنهمر وئيداً على السطح المنكمش ببرودة الفجر كان عامر هناك .

اقترب منها صامتاً ، وقف يلتهم حبه على وجهها الملتمع ببريق أشواق حبيسة ، يوحدهما إحساس كامل بالانقطاع المطلق عن العالم .. لا شئ يتنفس غيرهما ، ولا وقع إلا لتلك الدفوف الصغيرة المرتبكة فى صدريهما .. تهتز خائفة ، مغتبطة ، ضاجة بمنابعها العذبة ، تكدس شعرها الطويل على كتفيها ، مد يده يمسد الخصلات المترعة برطوبة الليل فارتجفت .. مرر أصبعه فوق شفتيها كما كان يفعل فى ماضى الطفولة ، أحس بليونة شفتها السفلى ودفئها ، أغمض عينيه وهو يتنهد بعمق ، أمسك كفيها ، رفعهما إلى شفتيه ، كانتا مرتعشتين ، همست بوجد : - عامر .

حركت الريح الشراشف البيض فخيل إليها أن الكون سيطير بهما على أجنحة حمام خرافية ضغط يديها على صدره ناحية القلب ، كان منفعلاً يضربه بعنف ولهفة همس لها وهو يقرب وجهه فأحست بطيب انفاسه .

- إنه لك هذا القلب كله لك .. قد لا نلتقى دائماً لكنك ستكونين هنا إلى الأبد .

ضمها إليه دون أن يقبلها بكل رغبته فيها ، بكل الجموح يؤججه استسلامها الودود اللين ، كان يعتصرها بشدة فيمسكهما غياب مدهش آسر حتى أنها لم ترفع يديها لتحيطه .

جأر صوت خلفهما : - يا فاجران ماذا تفعلان ؟

اختلج الصدى ، تهدم العالم الجميل دفعة واحدة بفأس عباس ابن الزنجية الرحيمة العائد تواً من حانات الليل ليكشف سر الحب ، تحطم كون الأحلام المشتهاة ، رفعت أيدى الأجساد النائمة الشراشف فتكسرت أجنحة الحمام وانكمشت فوق الأسرة . شقت فضائل زيقها هلعة وهى تردد.

- تخزيت عامر .. يمه اشد تسوى ؟

عوت العوراء بشتائم منتقاة بعناية فائقة ، نفشت القادرية من تحت الكلة مجدداً ريش شماتتها وهى ترى الوجه الملتهب بخوف وخجل .

أينها ابنة رئيس البلدية لترى الفضيحة .. دعوها ترى !

انتهك حلم الفجر والكلمات مطر غاضب ، تناوشت مراثى الأيدى ، تمزق ثوبها ، على صفحة خدها ثأر عباس من زمانه التعس ، مع كل صفعة كان ينفذ حكماً قديماً من عبودية بعيدة ، وفضائل تدفع ابنها خلفها ، رأت مراثى وجهه من بين الأيدى يتراجع . كان يتراجع ... تراه يبتعد ، يخلفها وحيدة ، يتركها عزلاء .

استعرض مرتضى رجولته . داسها بقدمه ، فرك وجهها بنعله البيتى بوحشية أغرت زوجته أن تمنحه نخب تلك الليلة ، لقاء بطولته ، جائزة سريرية تكافئ جهده المبذول .

هرب عامر قطع الدرج بقفزتين ، بكت مراثى حينما رأته يتركها لمصيرها وحيدة قبل أن تبرد كفاه على شفتيها . خَلّف هذا الفجر فى قلبها جرحاً بليغاً لن يزول لأمد طويل .

جمّعت سبل شعر أختها المتساقط وهى تبكى ، كانت تخاف أن تلمس مواقع الألم سمعت مراثى تقول :

- آه يا أختى لقد اقتلعنى . تركنى لهم وحيدة.

تشنج زمن الأخوة السبعة المهملين أكثر من ذى قبل ، صار الإدمان أكثر إجحافاً بموافقة تمت بإجماع غير معلن . تحول إلى واقع أعمق قسوة من الإهمال المتعمد .

رزق مرتضى ولداً آخر ، كان خاتمة جولته ، خلقه ليستفز به بلورية العهد الماضى ومجد الغرام المنسحق ، ليحرق مجدداً أوراقه معها ، لكنه لن ينسى مادام حياً أنه فى كل نشوات جسده كاد يلفظ اسمها ، فى أوج لحظته البديعة متوهماً أنها هناك تحته ، كما فى السابق يفيض بها سريره .

ابتعد مرتضى فى منفى عتمته لم يفقه مطلقاً كلمات شيخ الربابة وهو يجر قدميه ، يتعكز عصا أبيه برأسها المفضض ، لكنه ظل يتذكرها وهو يهز رأسه ألماً فيما بعد .

- لك رائحة مرتضى ، لكنك لست هو !

ضرب مرتضى كفاً بكف وهو يأسف لثقل السنوات على كاهله أيضاً .

- بدأ الرجل يخرف .. إنه حقاً بدأ يخرف !

ابتسم الضرير ابتسامة من تيقن أخيراً من صدق ظنه ، إنه ليس رجل الرائحة القديمة ، صاحب الأوراق السرية ، منشورات النصر المؤمل ، وهتافات الشوارع حيث يتقاطع الرصاص فوق الرؤوس ومن مشانق الموت الجليل ترتفع الحناجر المتشنجة بأغنيات الدم المستفز .

مرت سنوات قليلة قبل أن تنعس الشمس بين الممرات ليحتمى الظل القليل لاهثاً من حر الظهيرة بين أشجار النارنج فى الحوش الداخلى ، دومت أنفاس الصيف محمومة . فى القيلولة الأخيرة التى قضتها عميرة فى بيت العائلة ، تاركة خلفها طفولة مص الإبهام الأيسر ، مهجورة قسراً . سوف تظل

ذكرياتها توغر صدرها بغضب لا ينطفئ ، لتفتح قبل نهاية هذا القرن تماماً بعد حرب الوطن التسعينية ملهى ليلاً باسمها الصريح الكامل فى ثأر لجرح ظل ينز عليها أحقاداً لا تعلم كيف تعللها .

لم تكن قد غادرت بعد عادتها فى مص إبهاهما الأيسر ، فكانت فى لحظات الخوف ، فى ظلام النعاس وافتقاد صوت الأمومة بتمنيات ليلة طيبة تستلهم من إبهامها محبة مستحلبة خفية عن أختيها .

ناضلت مراثى لتبعدها عن إصبعها فى فطام صعب ، كانت فى طفولتها القريبة ، ولقصور ناتج عن نقص الحليب تنشب أسنانها فى حافات الشبابيك الكلسية تاركة أثارها كما المخالب ، فتنزوى بعيداً عن الآخرين لتمتص القطع الكلسية ، فتفتتها تحت لسانها . ومع فشل محاولاتها فى الاختباء ، صارت تتفنن فى إيجاد مخابئ عصية على الكشف . كانت حاجتها لامتصاص شئ ما تثير أختيها الأكبر سناً فتحزنهما حقيقة أنه : الشوق القديم لشفتين لم تشبعا من ثدى الأم .

كانت سبل قبل سنوات تدس فى فمها قطع لينة من الخبز ، تبقيها تحت لسانها طويلاً حتى تذوب ويغرق فمها بحلاوة الخبز الضئيلة فكانت بتلك الأوقات تنق نقيقاً عالياً يشبه إلى حد ما نقيق الضفادع النهرية فى دعائها للمطر .

حملت عميرة لعمها عباس فى آخر ظهيرة ، صينية طعامه ، فتحت الباب يقدمها ، تخللت الشمس ثوبها الخفيف ، فشفت ظلال ساقين شابتين وخصر فج لم تكتمل استدارته بعد ، وبعينين مازالتا تحملان ثمل الكؤوس البارحة ، تفحصها ، ابتسم طالباً منها الاقتراب .

- امنحى عمو قبلة .

كانت عميرة تجد فيه الشخص الأكثر تودداً فكان يحمل لها خفية قطعاً ملونة من حلويات مجففة أخفاها عن عيون الصغار تأكلها وحيدة وصوته يحثها على الصمت .

: - لا تخبرى أحداً بذلك .

فتومئ برأسها وعيناها تومضان بنصر مغتبط

طوقها بكلتا يديه ، فبدت بين يديه هشة ناعمة تحمل سمات شيطان مبتكر ، متألم غير واضح المعالم ، فح قرب أذنها وهو يسحبها من ثوبها المبرقش بأزهار صيفية باهتة وكفه الكبيرة تدهن جسدها صعوداً ونزولاً .

- أه .. أنت قطة هادئة . اسمعى ، سيرى عمو ماذا هناك .

مد يده يفتح بأصابعه الزيق الصغير لثوبها البيتى تراجعت قليلاً إلى الخلف مع خجل ارتسم خفيفاً فى عينيها وابتسامة شفتيها تنفرج مرتعشة عن أسنان بيضاء دقيقة .

- لا عمو.. استحى

- تعالى ، سنرى كم كبرت هذه الجميلة .

كان الثدى المتكور حديثاً ، ثمرة قاسية تمردت منذ زمن قريب ، ابتسمت بشئ من البله وهى تنظر معه إلى الحلمة الوردية ، تنهض من بين الأزرار المفتوحة كحبة فستق محمصة للتو . فتق ألمها بضغطة قوية فتأوهت

- أخ عمو .. عوفنى ... وجعتنى !

سحبها إليه يندلق من عينيه شره غامر ، وفاضت شفتاه الزنجيتان بشهوة موجعة .

من أيقظ سبل من رقدتها تلك الظهيرة الموجعة ؟ قالت فيما بعد إن هاتفاً ملحاً نادها بالذهاب . حثها بقوة صوت عظيم ، لكز حلماً كانت قد بدأته ، فتركته على وسادتها . دفعت الباب بدون أن تعرف لماذا على لحظة الفضيحة .

لبرهة شحب الزمن أمامها . بقيت ذاهلة تفتح عينيها إلى قمة اتساعهما لتتحول فى اللحظة الأخرى إلى إعصار هائج ، رفست عمها نصف النائم والمهتاج أزاحت الكرسى حيث وضعت صينية الغداء عليه ، فتطايرت الصحون وهوت متكسرة ، يرسم الحساء والرز المتناثر أشكالاً لعجينة غريبة .

أجفل الصراخ المتبادل قيلولة البيت الكبير ، وصوت عباس يزأر شاتماً . تلك أخر ظهيرة لعميرة مع أفراد عائلتها .. هربت مذعورة يلاحقها نداء سبل بالعودة ، حافية لا تلوى على شئ .

باعت عذريتها فى نهاية تلك الليلة لآخر سائق سيارة أجرة . حملت بيدها ديناراً أزرق ثمن غشائها المنتهك . قال لها الرجل وهو يتجشأ فى وجهها مشيراً بيده إلى أسفل بطنها

- لم أكن أظن أنك .. كيف كنت سأعلم أنك بعد عذراء ؟

كانت تنظر فى وجهه بغباء وحيرة .

- ولكن أين يمكننى النوم ؟

دلها إلى بيت عريق التاريخ فى امتهان حرفة الأزل البعيدة لتعود بعد ما يقرب من ربع قرن آخر ، تنبو ملامحها عن ثأر يغلى فى عروقها ستعلن عنه بذريعة إنعاش المجد العائلى الزائل ، محاولة استغلال الموقع المثالى للبيت المتربص للنهر المتكدر طوال العام ، حالمة بتحويله إلى ناد ليلى تتلاصف أنواره المنعكسة على المياه المتلاطمة بسكون .

لم يسترجع البيت هدوءه لعدة أيام . عمت الفوضى الغرف ، تظلل عباس بثياب البراءة ، واتهم سبل بافتعال الأمر برمته ، قال وهو يبرم شاربه كثيف السواد

إنهن يردن أن أدفع ثمن حادثة الفجر الماضية .

نظر إلى مراثى نظرة مريبة قبل أن يضيف : - يثأرن منى لا أكثر .

أزبد (مرتضى) وهو ينقل بصره بين ابنتيه : يا خبيثات ألا يشبهن أمهن ها .. ها أترون ؟ تلفت فى وجوه الآخرين ، اطمئن إلى التعاطف ونظرات الإشفاق فواسته زوجته .

... آه يا قليل الحظ .. إنهن عقارب تأكل ظهرك !

علقت التهمة غير قابلة للنفى فى رقاب السبعة الظالين ، ونال منهن إحساس كبير بالانكسار والمهانة . فى تلك الظهيرة لطمت سبل صدر عمها عباس بكت مراثى وهى تتلقى التهم ، يضربها مرتضى بغضب مستعر تلهبه صرخات زوجته الهستيرية شقت فضائل زيقها مرة أخرى ، راقب عامر المشهد من خلف نافذة غرفته وهو يرتجف حباً وغضباً ، كان صامتاً يرى مراثى وهى تتلوى بين قدمى أبيها ، أرتمت الشهدية الوضاءة على الأرض ، صارخة بصوت ضاع فى الفوضى ، فلم يسمعه أحد .

كلكم سفلة !

دارت على وجوههم تباعاً توقفت طويلاً عند مرتضى يرتجف شارباه معجباً بدور الضحية والجهم العائد من جولة البحث الخاسرة ، ينظر بعيداً فى الأفق الرمادى تدمع عيناه . قال وهو ساهم غير قاصد أن يسمع أحد بعينه :

– أتراها ستعود ؟

تبرع عباس بالإجابة :

– ستعود . هيه لعلها الآن فى أحضان محظوظ يا اللعينة !

انتصب تغلب واقفاً . كان هادئاً . مسح بنظراته كل الوجوه المحيطة به . انسل بصمت تحلق حوله طيور وحشته ، تزعق به غربان الموت ، تدوم فى وجدانه عواصف شعور بحيف قاتل لم تخفه عيناه الصغيرتان . صعد الدرج وحيداً دون أن ينتبه له أحد . مسح الدمع المنخرط من براءة عينيه اللتين سكنهما إصرار غريب . سمع سعلات عمه الوقحة .

قبل أن يطلق على نفسه منهياً عالمه البسيط الحزين المضيع ، تسلمت سبل وجع صرخته ، قبل أن تضع قدمها على السلمة الأخيرة للدرج ، هاجمتها دفقات دمه يتساقط متدافعاً درجة بعد أخرى مدوياً فى بحثه عن خلاصه المنشود فى كل يوم قضته سبل باقى حياتها ستظل تقول لنفسها :

- لو أني بكرت ثانية فقط !

تعلق الدم فى ثوب مراثى متشبثاً بها وغطست قدماها الحافيتان فى الطوفان الأحمر لترثيه سنوات طويلة حتى اسوداد الدم وذبول الذكريات .

لم ينقطع المطر لثلاثة أيام متوالية . من خلف الشبابيك الكئيبة جلست الأختان تحصيان خراب السنوات التى مرت بهما ، تجاور غرفتهما ، غرفة سعادة أبيهما حيث بدأ ولده الأخير يحبو . قالت مراثى :

- أرأيتها ؟ أعنى فى ذلك اليوم ؟

هزت (سبل) رأسها وهى تتابع تساقط المطر فوق المظلة الصغيرة لقنديل الشارع ، يرتجف نوره الهزيل تقطعه سيول سماوية منهمرة ، عادت إليها بوثبة واحدة صور يوم الغياب الأخوى ... ربما كنت سأصل إليه قبل أن يُطلق "آخ" .

تصببت دموع غزيرة على خديها ، وتداعت تباعاً على ذقنها ، لم تفكر فى مسحها ، عضت شفتها بقوة لئلا تفلت صرختها الحارقة (لو أنى بكرت!)

دخل وميض البرق بنفسجياً لامعاً إلى منتصف الغرفة ، ضربت رشقة مطرية سريعة زجاج النافذة ، اهتز الضوء الخارجى راسماً ظلالاً شبحية لأشجار الشارع المظلم .

سحبت مراثى إليها ذات الغطاء الذى كانوا يتحدثون تحته صغاراً والبلورية بروب منزلى أحمر مزروع بأزهار مخملية كثيرة ، تفتح أسماعهم على قصصها الرائعة ، مزيحة ستائر مخيلاتهم عن فرسان عشاق وأميرات مغرمات جميلات ، بنظرات تتوسل الإنقاذ يرتمين بين ذراعى الحب فى نهايات سعيدة . بعيدة تلك الليالى حيث كان مرتضى يجلس فى أقصى الغرفة يصحح دفاتر تلاميذه ، يدفع بين حين وآخر نظارته الطبية المنزلقة التى ستسقط فى يوم وفاته الغريب وتستقر تحت يده ، يدفعها فوق أرنبة أنفه المنفعل ، غامزاً البلورية أن تنهى قصص المساء ، يدعوها لليلة حب بارعة تحت ثقل غطاء الصوف .

- إنها .. ياربى .. لم تك حزينة ، مطلقاً لم تكن كذلك :

شددت على كلماتها تقطعها بين أسنانها ، كأنها ستخنق كل حرف منها ، وأضافت مراثى وهى تحدق فى وجه أختها الغارق فى الدمع :

- كنت أراها متباهية بشكل ما .. ترميه بالشتائم والسباب لتغيظ الأخرى .

حقاً . افتتنت البلورية بتلك اللعبة ، استعرضت كل مهاراتها ، نثرت شعرها يتورد خداها العاليان مستعملة كل الحيل النسائية لإبراز مفاتنها ، ترقبها العوراء بعين واحدة ، ترصد حركاتها ، نجحت فى إثارة حسدها فى لعبة ساذجة دفعت ثمنها من حزنها على ولدها وابنتها غير المعلوم مصيرها لتطمر بذلك آخر صوت يناديها بأمومتها حيث أقسم الأبناء بالدم أنهم لن ينطقوا كلمة أمى بعد اليوم .

من بين الدمع الحانق تساءلت سبل :

- أين تظنيها الآن ؟

- من ؟

- من غيرها .. تلك المعتوهة .. الضحية الغادرة لم فرت ؟ كنت سأحميها .. إنها طفلة وحسب . كنا سنتفهم هذا الخطأ .. كنا

- حقاً من كان سيتفهم ؟ ها .. بالله ؟

أنتبهن إلى ضربات خفيفة على باب السطح استمرت بإصرار وبصوت أقوى لكنه مازال غير مسموع ، قفزت سبل من دمعها تلحق بها مراثى

كان الوقت يقارب انتصاف الليل . تناقصت الأنوار فى الغرف الأخرى على الأرض الباردة سرن بخطوات حذرة ، فهن يعرفن صاحب الطرقات الليلية تلك .

وقفت سبل تحرس باب الممر بينما انهمكت مراثى بفتح المزلاج الصدئ متجنبة إثارة صوت مسموع . سعل الجد فى الطابق الأرضى وجر خطاه الثقيلة تتلمس عصاه الطريق .

دخل الوليد من الباب نصف المفتوح . كان مبتلاً يرتجف كفأر سبح فى نهر ، ترقص فى عينيه نجوى اعتذار لا ينقطع ، تعلقت الأختان بكتفيه ، أشرق وجهاهما بدفقات حنون ، دلفتا به إلى الغرفة حيث يرقد الوضاح على وجهه ، استيقظ حالما طرق سمعه الضجيج المكتوم .

ذهب نعاسه ، إذ وقع بصره على وجه أخيه العائد فى ليل المطر.

طُرد الوليد من بيت أبيه بعد مشاجرة مدرسية . عاب عليه الصبية زواج أمه الثانى ، تزوجت البلورية من رجل آخر يصغرها ببضع سنوات ، رجل أخرق لا غير كان يتبعها كطفل بليد ، ولم يوفق رئيس البلدية بإقناعها بالرفض مفضلاً أن يموت بأيام قبل زفافها . وعاندته فلم تعنَ بمراسيم الحداد وتزوجت بانقضاء الأسبوع منه . كانت مصرة على معرفتها بأن والدها يتبع فى نزق رفضه لزوجها الجديد أسلوباً صبيانياً وأنه يجامل مرتضى وحسب ، ولم يفلح أحد فى أن يجعلها تعدل عن قرارها .

ضرب مرتضى الوليد حتى كاد يقتله . كان جسده يرتعد . احمرت عيناه من الغضب

- تدعى البطولة لأجلها لقد تركتكم كالكلاب !

أطرق الوليد برأسه وهو يقول

- لكنها أمى ..

لم يكمل ، فقد ألقمة مرتضى قبضة انفض خلفها نبع ضئيل من الدم ، ثم أشار بأصبعه إلى الخارج .

- كيف أنت ؟ أين كنت طيلة هذه الأشهر؟

كان شارياه قد اخشوشن زغبهما منذ مدة . فمسدهما وجلس قريباً من المدفأة حيث وضعت مراثى إبريق الشاى على فوهتها ، فأطلق أزيزاً خافتاً .

اقتربت سبل منه ،أحاطت رقبته بذراعيها ، أسندت رأسها إلى كتفه قبل أن تقول :

- كنا منشغلى البال عليك . أين كنت تنام ؟

ضحك (الوليد) كأنه مبتهج

جربت كل الأرصفة فى العاصمة قبل أن أعثر على عملى الجديد فى مقهى الاتحاد ، أنام كل ليلة على إحدى (القنفات) ، يوجد الكثير منها

- سمعت إذاً

سكتت (سبل) فلم يعد بإمكانها أن تكمل ، كان الجرح جديداً يصعب نكأه ، وتلك الحسرة تزدهر فى داخلها تدوى كل لحظة (لو أنى .. لو أنى ... بكرت!!!)

- سمعت .. والأخرى لا شئ عنها ؟

- لا شئ ؟

بحث الوليد عن أخته عميرة فى كل مكان ، لم يكن يفهم أو يستوعب كيف حدث هذا الأمر . دخل أوكار كهوف لذة مدفوعة الثمن ، نسيها الزمن فتراكمت عليها عفونة الوقت . قلب ثياب فتيات يعلكن التعاسة بثمن بخس عله يتعرف إلى رائحة أخته ، فعرف أن خلف كل جسد معروض قصة تشبه من بعيد أو قريب حكاية الأولاد السبعة وعرية الحظ العاثر .

جالت فى ذهنه وهو جالس قرب المدفأة بلهيبها الأحمر ، كل الأشهرالمنصرمة وعبئها الثقيل بين حزن الوحدة المترامية حيث لا مأوى يحميه من برد الليل وعضات الجوع ، وحزن الفقدان المبكر لأخيه المهدور دمع ، وغضب لا يمكنه التعبير عنه وهو يبحث عن نصف دمه المضيع وشرف ينتهك مجاناً على جسد طفلة بيعت لأرصفة الغواية ، أشيع وقتها وتبجحت هى فيما بعد بأنها كانت : أصغر مومس فى العاصمة وأكثرهن إبداعاً فى العمل!

- وعباس ؟

التقت الوجوه فى نقطة واحدة واسم عباس يضربهم بالمطرقة يكنس بوجعه كل الذكريات يلقيها على سواحل الملح المخبأ فى الجروح.

دخـــل الجهم قبل أن يجيب أحد . لم تبد على وجهه آثار المفاجأة . سلم على أخيه جالساً . كان متجهماً . كلما مر عليه نهار تزداد سحنته عبوساً وجفافاً متحولاً مع الوقت إلى كتلة شبحية مظلمة يصعـــب فك طلاسمها ، لم يكن يتكلم إلا لماماً ، ولا يتذكر أحد ما متى ابتسم آخر مرة فكان الوضاح يقول وهو يقمع ابتسامة متسللة إلى شفتيه : - رحم الله امرءاً حمل وجهه وصف اسمه !

بادر يسأل الوليد :

- حسناً ماذا ستفعل ؟

- بأى شئ ؟

قَلَب الجهم راحتيه مستغرباً .

- بحياتك .

- آه لم يعد هناك الكثير للجندية ، سألبس ثياب العسكربعد أيام قلائل ، لذا جئت أودعكم ، لن يكون هناك مشكلة .

ضحك وفى عينيه ارتبكت لغة اعتذاره الدائمة .

- لم تضحك ؟

سأل الجهم عابساً وهو ينظر بصرامة إلى وجه أخيه . أحنى الوليد رأسه وتمتم :

- أحسبنى أضحك من نفسى !

ربتت مراثى على كتفه :

- لاعليك

نهضت تعد له فراشه وهى تقول : سأوقظك عند الفجر . أخذت مراثى ثيابه المبتلة قرب المدفأة . دست فيها بضعة دنانير ، تقاسمتها العطاء سبل النائمة على ساق أخيها الممدودة ، يتبعثر شعرها الأشقر الطويل ، فتتلاصف خصلاته حين يضربها وهج المدفأة الأحمر المضطرب . خرج الجهم من الغرفة بعد تحية قصيرة . صفعه النسيم البارد المبتل بمطر الأيام الماضية ، غمز الوضاح بعينه .

- لم هو هكذا ؟

سوت مراثى الشراشف وهى تقول :

- هو هكذا يعانى وحده اتركوه .. لحزنه .

فكرت أن الغضب المكبوت وإحساسه بالخجل والنقيصة هما ما يؤلمانه . نظرت إلى قامته عبر زجاج النافذة كان المطر قد بدأ ينث مجدداً .

أخرت الحوادث الأخيرة قبل زواج الوضاءة من محامى القلب الذى ترافع عنها فى قضية طلاقها من ديكها السابق ، وفاز بقطف شهد لم يستطع مقاومته كثيراً ، بل إنه قاوم غرامه ببسالة، فانتهى به الأمر إلى الإعتراف بأحلى هزائمه وأجملها على الإطلاق . كان يجهز بمثابرة عاشق على كل الفرص المتاحة لرؤيتها ، يؤطر عينيها كحل أسود متين السحر ، فيعود إلى بيته يتلهف لقاء آخر يفتعله . كان يعرف أنه مقابل الفوز بها عليه أن يتخلى عن حلم الرجولة ينسل ممتداً عبر العصور يحمل بصمة فحولته فى ذرية تحمل اسمه . فبرغم جمال الشهد في عينيها فالوضاءة عاقر فطلقها ديكها الفريد الذى لم ينجب هو الآخر رغم أن حنوناته السبع زوجنه أربع زيجات متتالية. وبمصادفة فريدة اكتشفن أن زوجاته الأربع كن عواقر .

بمرافعة فياضة المشاعر أعلن محامى القلب أن عليه أن يخسر قضية فحولته لصالح جبروت الحب المشع من عينى الوضاءة . وجد أنه غير قادر على الاحتفاظ بحلم بائس مقابل تلك العيون تذوب عسلاً وشوقاً .

– ما فائدة أن ترزق دزينة أولاد تنجبهم من سرير لا يمنحك سوى الصرير

رتبت العروس حقائبها . تركت بضع تذكارات بسيطة للأطفال وصورة وحيدة لمراثى . أسفت الوضاءة قليلاً لرحيلها عنهم فى وقت حرج . وفى قراراة نفسها كانت تريد الهروب حتى أقاصى الأرض بعيداً عن هذا الخراب كانت تعرف أن كل شئ يتهدم ، أن كل تاريخ الرضوانية يتقوض وأن هناك خللاً فى كل مكان . ترحمت وهى تلقى نظرة وداع على غرفة الملا وشمرية غرامه الوحيد ، على الأيام القديمة ، غبطتهما لأنهما ماتا قبل أن يدركهما ألم هذا الطوفان.

دنت العمة المسافرة من مراثى سألتها عن عامر ، سؤلاً ذا نبرة مواسية مرتبكة :

- ما أخباره ؟

حنت البنت رأسها واسترجعت بلحظة الليلة التى ذبحت فيها أجنحة الحمائم الخرافية ليلة فشل الكون عن التحليق بأجنحة الحب الأول ، حب كلفها الكثير قبل أن يبدأ .

- ألن تسامحيه أبداً ؟

سطت عليها رغبة أن ترى وجهه الحبيب المختفى عن العتب .

- عمتي .. لم يعد هناك ما يمكن الحديث عنه ، لم أره إلا لماماً ... منذ تلك الليلة وأنا اتحمل وحدى وزرها لا أعرف أخباره .

استدركت متسائلة قبل أن يدركها الدمع ، كانت شفتاها تختلجان :

- هل ستكتبين لنا من هناك ؟

- بالتأكيد سأفعل .. قد أرسل لك لتأتى للعيش معنا حالماً نستقر.

- آه عمتى .. لن أترك أخوتى .. نحن بحاجة لأن نكون معاً.

تذكرت الوليد البعيد وهو يقول : كيف لنا أن نحيا بلا قلوب فى بيوتنا ؟

حملت العمة وجه مراثى بين يديها ، فكانت تريد أن تقول لها أشياء كثيرة ، لكنها لم تجد فى خزانة وجدانها ما يناسب الحزن الراكد فى العينين السوداوين .

كتبت بعد مدة من ذاك الوداع (من أين تغترف عيناك الحزن) ولكنها مع ذلك كانت تعرف كل مناهل العذابات تلك .

احتشدت العائلة وصغارها فى غرفة الشهدية لتوديعها ، فمن يدرى متى ستعود من أرض غربتها فى بلاد الصقيع القصية بصحبة محامى لاستكمال دراسته ، حيث ستجلس على شرفة يتساقط عليها ندف الثلج متذكرة النخلتين وثلج القداح المتناثر عطره فى صباحات ربيع مبكر . كانت

واعية تماماً لهروبها من كل ما يحيطها ، وأن سفر زوجها لاستكمال الدراسة عذر تعلقت به لتحلق بعيداً عن الحريق الذى تراه فى نبؤة عينيها .

ودعتها فضائل بعين باكية وأخرى تسكنها الراحة ، وثمة أمل يزدهر فى صدرها باستعادة عبد الجليل تخلف مرتضى عن الوداع . قال إنه يؤلمه أن يرى دموع الرحيل .

وأرسلت القادرية صورة صفوان للذكرى بيد ابنها معتذراً عن قدومها :

- أمى يمنعها الحزن عن المجئ . إنها فى الغرفة تبكى نسيانكم للصفوان أبى .

فكرت الشهدية كم هى خبيثة هذه القادرية؟ وتبادلت مع أختها نظرات ذات معنى ، والعوراء تسيل من فهما كلمات لا حصر لها ، تنظر بحسد لجمال الشهدية المتألق تحت لون حدادها . اهتز قلب فضائل لحقيقة ساطعة وهى ترى الحقائب تنزل الدرج تباعًا : أن البيت يخلو .

فأخذت تعد على أصابعها أسماء كل الذين كانوا هنا وارتحلوا.

لم يرجع عبد الجليل تلك الليلة إلى البيت . دخل كل الحانات باحثاً فى ثمالة الكؤوس عن وهم النسيان ، فكان كل قطرة يشربها يحرق جوفه بشدة لحبه المرير ، يوجع قلبه بتخيل الجسد الممتلك تواً لأصابع أخرى وشفاه رجل آخر . تقيأ أمعاءه المحترقة وهو يستند على جذع شجرة يابسة . كان حتماً سيجد عزاءه لو أنه عرف أنها ستبكيه بعد سنوات لاحقة ليلة تهجس فى روحها لحظة موته ، فتستعيد بحنان متجل كل ضياعه من أجلها ، وستلمس فى قلبها مقدار عذاباته المضنية ، سيفاجئها أن تجد فى جزء خفى من قلبها شوقاً ناعماً له ، ودت لو أنها منحته إياه فى عمر مضى .

كأن البيت قد خسر شيئاً مهما بسفر الوضاءة ، نامت مرائى تلك الليلة يتعاظم فيها إحساس الوحدة والخسارات المتتالية ، من خلف النافذة

حيث كان القمر لا مبالياً بعيداً يسطع على وحدتها يطلع ببرود على مكابراتها ، بين الإغفاءة وحلم الصحو ، لمحت قامة عامر المديدة . كانت كفه تفترش زجاج النافذة : أغمضت عينيها وقلبها يختلج بضربات الوجد يزحف إلى زجاج النافذة حيث ترقد بصمات أصابعه ما أن القى ضوء الصباح لونه فى عينيها حتى تساءلت أكان ذلك حلماً أم أنه كان هناك ؟ لكنها بألم واظبت على الابتعاد عنه ، محاربة كل رغباتها الجياشة فى رؤية عينيه ووجهه المستدير كوجه الجد الساكن فى فضاء الدهليز معلقاً فى عتمته منذ زمن غير يسير .

بين رفوف أحلامها كانت مراثى ترتب بعناية فائقة لقاءات عتب لن تحققها وتقضى لياليها فى حوار صامت معه ، وتفشل بعذاب وجرأة كل محاولاته لرؤيتها والانفراد بها ، لكنها كانت تهمل عمداً إسدال ستار نافذتها ، محرضة إياه لزيارة أحلامها الليلية فتختلج أهدابها وهى تغمض جفنيها عنوة مدعية النوم ، فكان عامر يختلس النظرة إليها مبعثرة الشعر على وسادتها المتململة ، يحصى حركة الأحلام تحت جفنيها ويتسائل بلهفة إن كان له نصيب فيها ؟ فيجد نفسه هامساً .

- إيه يا مراثى هل لى مكان فى عينيك ؟

ولا يملك الشجاعة لأن يبحر فى عينها نهاراً تتحديانه بعناد وشغف يلتمع سوادهما ، فيقضى الليل كما كان يفعل أبوه ، حيث استطاع أن يفهم عذاباته المستديمة وأن يغفر له ، مستنشقاً الهواء الذى تتنفسه قرب عتبة غرفتها ممنياً نفسه بأنه هو ذاته قد كان يسكن رئتيها ، فيعض أصابعه معاقباً كفيه اللتين أفلت قبضتيهما فى لحظة جبن لن يصفح لنفسه عنها ، سيتذكرها طازجة المرارة ينبش وجدانه سؤال مخجل :

- كيف سأعيش وأنا مكبل بلحظة جبن أفقدتنى حبى ورجولتى؟

واعتذر فى ذاته لأبيه ومرتضى لأنه ترك دم الصفوان يعوى على عمود الكهرباء وأدرك بصدق ما يعنيه العيش مع طوق رهيب اسمه الجبن .

كان يجد نفسه كلما خلا إلى ضميره غير قادر على الصفح ، فتهاجمه دوماً رغبة فى البكاء التواب ، حيث لن يمنحه الزمن فسحة صغيرة للتعويض عن لحظة جبنه وفراراه ، فكانت (مراثى) ترتبط فى تفكيره دوماً بحزنه المتهشم فى ساحات معاركه سيقول دوماً : - أنا وحزبى نفر حين يتوجب علينا المواجهة .. نحن بلا لحظات حاسمة :

مع كل جسد يمنحه لحظة حب طائشة ، ستسعيد ذاكرة أصابعه تلمس الأكتاف الغضة اللدنة التى تمنحه فى إضاءة ربانية باركها أكليل بدر مكتمل الضياء نشوة حب منتهك بلا رحمة ، حب ارتجف شوقاً له ليخنق مبكراً .

وحدها (فضائل) تهجس بما فى قلبه ، ولا تتجاسر على البوح بشئ ، تراقبه بصمت حيوان خائف ، تتنصت على لغة أحلامه بين عينيه الغافيتين منادياً (مراثيه) فيصحو أكثر غضباً ويأساً وأشد حباً .

سال الوقت بطيئاً بلا مباهج كبيرة ، محشوراً بين الكتب المدرسية وحسرة العيش بدون أبوين فعليين ، وأخبار البلورية تنقلها الشفاه موشاة بالريبة وتكلف الحنان تعذب الوضاح بغياب تغلب الفادح .

افتقد وجود أخيه المرتحل مع إطلاقة رحمته الفاجعة ، فقد كانا معا يشكلان عالماً متناقضاً كان يتلاصقان ببعضهما كذئبين صغيرين ينهشان بعضهما ، يرقدان في سرير واحد ويتبادلان أسرار طفولتهما ونشاطاتها المتناقضة كان الوضاح أكثر جرأة ، بعينين صخابتين لا يثبت لونها على قرار كمزاجه ، فكان يدر تغلب أحياناً على نصب فخاخ لفئران النخيل يلهو بها قليلاً ، يعذبها قبل أن يطلقها ، أو يسطو على قطيع دجاج القادرية ، فينتف ريشها ، فتعود الدجاجات عاريات المؤخرات زاعقات من الألم داميات الأجنحة ، ومع أن تغلب كان الأكثر رقة بين أخوته ، إلا أنه لم يكن يرفض غواية مبادرات الوضاح القادر على خوض المغامرات بلا تهيب كبير . كانت أجمل أوقات تغلب في ضحى الأجازات المدرسية يقضيها بين القبرين في خلفية البستان ، متسمعاً أصوات القبرات ، جامعاً لفراشات خضر وملونة أو قاطفاً زهور أشواك بنفسجية أو صفراء ، يجففها برفق وتؤدة وبعد موته السريع وجدت (مراثي) ميراثه الصغير . فاحتفظت به ، فكان كلما يفيض بالأختين الحنين تفتحان علبة الأسرار المجففة ، فترطبان الفراشات والأزهار المجففة بدموع الفجيعة وحنانها المرير .

خلق الوضاح وأخوه تغلب فريقاً واحداً ، متضاد الأمزجة والميول ، لكنه شديد الالتصاق ، لم تكن هناك من صفة تجمعها سوى الشغف الأخوي . كان الوضاح يجد في حياء تغلب لذة تعادل لذة تغلب وهو يراقب أخاه في معاركه الدامية مع أبناء الجيران والفوز بها ، إلا أنهما حين كان يتعاركان ولسبب تافه دائماً كانا بعد برودة اللهاث يضمدان بعضهما ويتواسيان بقطع وعود حارة سينكثانها حتماً عند أول فرصة،بعدم العودة إلى العراك ثانية.

في يوم الرحيل التغلبي ضرب الوضاح رأسه بكل الجدران حتى نز الدم من الخدوش المتورمة عليه يطفئ صوت الدوى المروع للإطلاقة ، حاول فقئ عينيه وهو يصرخ :

- من سأرى بعدك .. تغلب .... يا تغلب .

دخل القبر قبل جثة أخيه ، ناثراً التراب على رأسه ، كانت أختاه تحاولان تهدئته وهما تبكيان ومع هياج الألم كان يضرب رأسه مجدداً وهو ينوح :

- إنى أسمعه من تحت التراب ينادينى .. الرحمة . انبشوا عنه هذا التراب الثقيل .. ذاك أخي وحيد هناك لم تركتنى وحيداً ؟

وحين أضناه التعب أغفى على درج الدم المغسول ، إلا أنه بعد لحظات قليلة صحا على حقيقه أن أخاه الأليف يرقد فى ظلمة الليل وحيداً تحت كومة تراب ثقيل ، فانطلق يعدو إلى السطح محاولاً أن يحلق بألمه إلى أول الطريق الحامل نعش أخيه ورفيق دمه وصباه . كان الذعر على أشده فى الليل الحالك الألم ، تدافعت النسوة خلفه ، ضمته سبل إلى صدرها وهى تبكى ، حاول مرتضى أن يمنحه بركة يده إلا أن الوضاح حدجه بنظرة واحدة افترست كل محاولاته بالاقتراب ، وأقصته بعيداً عنه ليظل هكذا إلى الأبد لم يهدأ حزن تغلب ، ففى كل ركن كانت عيناه تطلان من وجه متألق الشكوى يضىء برهة فى جوف العتمة ، فتطل عيناه الصغيرتان باسمتين بدمع يلتمع ثمة ليهرب بعدها كدخان بعيد . هجرت نهائياً غرفة القتل الأخير ، ولم ينفع معها إعادة الترميم وإعادة الطلاء ، فكانت دائماً تظل هناك خصلات من شعره ملتصقة بجدار موته ، تموج فى فضاء حسرته الوحيدة ولون أرجوانى مهيب يصبغ الغرفة كل مغيب ، فتدخل أختاه مع اكتظاظ نشيج الشمس إلى ملكوت نهايته المؤلمة تبكيان غيابه حتى تذبل دموعها ، ولم تعودا قادرتين على ذكر اسم تغلب أو النظر إلى وجهه المؤطر

فى صوره القليلة ، فرفعت وخبأت ولم تعد تزين أعلى الجدار فوق سريره . وتعود الوضاح أن يجلس بين القبرين كدأب (تغلب) القديم دون أن ينتبه للوقت كان يشعر بحرقة معترفاً :

- إن الحياة لم تعد كما كانت فى السابق لم يعد هناك تغلب .

ثقل على وضاح ذهاب الوليد مع الجنود ، يقطعون الشوارع على ظهور الدبابات السريعة المتوجهة إلى حرب العرب المستمرة منذ بدء الخليقة المنقضية فى أيام ستة ، ينهمر عليهم مطر الأزهار، وزغاريد الأمهات يبللنها بندى الدموع العطشى المتلهفة لضمة الأبناء ، يرسلن التحيات إلى أولادهن ببريد إنسانى حى يعلقنه على شفاه الجنود فترسل أم صوتها عناقيد شوق : - ابنى فى لواء المشاة .. أعلق فى رقبة ثوبك العسكرى سلامى ! .

ويبحث الجنود عن رفاق لا يعرفونهم ، تربطهم ببعضهم روائح الأمهات المنتظرات على الشوارع . حمل الوليد رسائل الآخرين دون أن يفكر بالبحث عن وجه أمه ، إلا أن عينيه توهمتا بمقدار اللهفة التى يحملها إلى أختيه وجهيهما فى منعطف طريق مر بجانبه ، فقال لرفاقه بحماس : - لقد رأيت أختى !

بعد سنوات تقل عن العشرين عاماً ، وحرب طويلة حسبت بأعداد بياناتها الموقعة فى مئات تحصى بصعوبة ، سيمر الوضاح فى الشوارع ذاتها إلى حرب انتحارية أخرى ، تمسح عيناه كل زاوية فى العاصمة ، مؤملاً أن يراها مرة أخرى متلهفاً الوصول إلى أرض قاحلة ستسرق منه مستقبله ، باحثاً فيها عن مجد سينفيه خلف أيام النسيان وقضبان التعاسة ، فتمسكت الأختان بحلم بعودته ، تستعيدان بحنان أمومى ضحكاته تبدد وحشة

الليالى الكابية ، لون عينيه الحافلتين بخطاياه الصبيانية ، وغاراته المهووسة على دجاج القادرية وصخب قلبه المغمس بخبث الأرانب ، يحوم حولهما صامتاً ، الجهم ، كاتماً فى قلبه ما يشعر به من انفعالات متضاربة محتمياً بالسكوت مخافة الإعلان عن وجع قلبه المهجور ، فانهمك فَى حزنه وقد ابتدأ مسيرة خرابه متعرضاً إلى اعتقالات مفاجئة ، ومحاولاً مع آخرين كانوا فى تلك المرحلة مخلصين بأحلامهم ، ينشرون أشرعة خلاصهم قبل أن يعبر إليهم الطوفان ، منهمكين فى عملية ترميم غير مجدية ، ليجدوا أنفسهم بعد ذلك فى مستنقع تهم متضاربة ، حيث سيعتبرهم حزبهم الذكى طفيلين انهزاميين ، وتعتبرهم أجهزة السلام الأمنى مخربين وبقعة تهديد صارخة للأمن الداخلى ، وبمفارقة مضحكة أكثر منها مبكية سيوضع الجميع فى سلة الإرهاب الداخلى ثؤلولا فى خد السلام العالمى .

قبل سنوات انضم الجهم مع عامر إلى ذات الحزب الاشتراكى ليجدا نفسيهما بعد حين وجهاً لوجه ، فريقين متخاصمين ، يحملان ذات الأهداف البارعة .

تبعا معاً حجافل الجيش بصحبة متطوعين آخرين أرسلهم الحزب فى وحدات مقاتلة لحقت مؤخرة الجيوش التى ستعود ، تسبقها الأناشيد وفرق الموسيقى العسكرية المدوية بنصر سيقطعه السادة الناضجون ، بنار التخمة الأبدية فى صحون البوفتيك الأمريكية المعدة سلفاً بحرص جبار .

لم يجد مرتضى ، وقد بدأ يشيخ باكراً فى هدوء البيت الخاوى من ألق شبابه غير صحفه الشحيحة التى كانت تحملها إليه فى ماضيه المزدهر ، بلوريته المنسلة من بين أصابع هزيمته إلى أحضان رجل آخر ، فيتذكر صوتها وهى تسأله :

- مرتضى أقرأت هذا الخبر ؟

تلطمه بحنان مؤخرتها الطرية البيضاء ، فتسكن أصابعه حس اللمس ، فلا يعود بإمكانه معرفة أسرار الحروف المتعرجة إلا بعد أن يغلق عليه باب الغرفة يسحبها خلفه سعيدة بسلطة غوايته .

صحفه خيطه الوحيد المتبقى له من الحياة يقرأها ، ينقب فى أخبارها ، يحلل أحداثها للعوراء فلا تفقه كلمة مما يقول ، إلا إن إحساسه بالتفوق الذهنى عليها كان يمنحه زهواً خاصاً يساعده على التخلص ، ولو قليلاً من مرارته ، كان بمثابة وقود أخير لرجولته ، بقدر ما يمنحه شعورها بالدونية تشبثاً به ، يلعب ولداهما فى الحوش المظلل بأريج النارنج وأذرع السعف المستديم الخضرة تهفهف ريح الخريف فيها بنشيد هامس . ركضت سبل تحمل بيدها رسالة الوليد مبخرة ببارود المعارك ، يتبعها شعرها صاخب الشقرة تلهث فرحاً .

- لج مراثى .. تعالى

صرخت من الباحة الداخلية يعلو صوتها

- رسالة من الوليد

اهتز المقعد تحت جسد مرتضى فى معادلة صعبة من المشاعر الوليد المطرود من بيت الوطن الطفولى الأول هو نفسه رافع إحدى الرايات فى الوطن الآخر . المدفعى المطرود يكتب اليهم . كانت سبل تقرأ بصوت مسموع متهدج ، تمسح مراثى دمعها محاولة خطف الرسالة لترى الكلمات المحملة بنبض أخيها البعيد ، يرسم اعتذار عينيه فى كلمات يعتذر بها عن سوء الخط وانقطاع الأخبار ، نسيتا أباهما بإحساس مشترك بأن الأمر لا يعينه ، فهذا الأخ لهما وحدهما ، وحسبه أنه قد أنفق عليه فضة بهيجة ، أتت من دفقات ظهره على جسد البلورية والفتى قال :

- أختى لم يقل :- والدى

(علـــى ضوء فتيل فانوس التمر الداخن ، أحد اختراعات الجنود المضحكة ، أكتب اليكما) .

جهدتا فى تخيل شكل الفانوس الغريب دون أن تحدسا لثانية واحدة أنه سيكون رفيق أمسيات وليالى البيوت فى شتاء حرب الكون الثالثة . ستتذكران الكلمات وتريان الفانوس العجيب يرسم أشباح دخانه على الجدران ملقياً لوناً بائساً على الوجوه البشرية المرتعبة من فيض القنابل ، ليكون شاهداً على التطور الهائل للعقل البشرى قبل أن يقفل هذا القرن المبجل شبابيك أوراقه ! .

وصف فى رسالته الرمال الرخوة والرجال حيث يقفون على مشارف دمشق . يحب كتب عن مدفعه الساخن الذى سيصحبه جولات أخرى فى حربه الطويلة التى لم تنبع بعد ، عن مدالية الحرب اللامعة التى علقها الضابط على صدره ، ليعلقها بدوره هو والجنود على عنق مدفعه الجبار محتفلين بكؤوس الشاى على مشارف مدينة قيل أنها محمية بسبب شجاعتهم .

كتب عن رجال لا يعرفانهما ، ووقع عشرة منهم بألقاب مبتكرة ، المقطوع الإصبع وجبار المفلطح ، وخلف ذو العين الناتئة وحسان شوارب الخل ولم تفهما مع إنهما ضحكتا كثيراً كيف يكون للشوارب طعم الخل ، قال الجنود فى نهاية رسالتهم :

- نحن مشتاقون ، قبلوا بغداد عنا .

ولم يغفلوا الإمضاء المجيد لفانوسهم ، فتركوا بصمة لزجة لحبة تمر. نامت ورقتا الرسالة تحت الوسادتين،فوجدت (مراثى) قلبها يسألها

بإلحاح أليم عن عامر أوجعها جداً تلك الليلة انشغالها به ، وجاب خيالها كل الرمال بحثاً عنه ، ارتجفت شفتاها وهى تنطق همساً باسمه ، فانسلت من فراشها إلى حيث كمنت (فضائل) تحت غطاء الخريف البارد ، كان شعرها المفضض يمتزج بالخيوط القمرية بوحدة لونية شديدة الانسجام والغرابة .

- عمتى ؟

ارتفعت الهامة الفضية بتساؤل .

- ألم يرسل لك عامر .. أهناك أخبار عنه ؟

رقت نظرات العمة ، مدت يدها المعروقة إلى وجه الفتاة المرتبك .

- لا والله بنتى:

عادت إلى وسادتها تتابع بنظرها الحب الملتاع فى كبد مراثى واحتمت تحت الغطاء والنعاس .

كانت قدما مراثى باردتين عندما اندست فى الفراش ، جاءها صوت سبل كسولاً رخواً

- لج أنسى ، أكو واحد يحب زمال!

أنضمت مراثى إليها فى فراشها . كان دافئاً ، أزاحت شعرها فنثر عطراً رطباً أحاطت بيدها رقبة أختها الأصغر ، وفى داخلها تلهث فى يأس رغبة أن يحتضنها شخص ما ، أن يسد بحنانه ثقوب الحزن المندلقة بهموم لا مفر منها ، كانت تعرف أن ثقوب الحزن تبع من ينابيع قلبها الوحيد المهمل ، وأن كرات القطن الصغيرة المدفونة فى آذانها غير قادرة على كتم أصوات الأنين . فى ليلة أخرى كانت تمشط شعرها الأسود الطويل محدقة فى المرآة فى سواد عينيها ، قالت وهى ساهمة تسمعها سبل دون أن تعلق :

- أن ثقوب الحزن أعمق من أن يطمرها القطن أو النسيان !

كانت تريد أن تقول أشياء كثيرة لكنها لم تجد غير الوسادة تبثها دموع

ما قبل رحمة النوم . تذكرت قبل أن تغفو صوته طازجاً فى فجره القصى وهو يحتضن كفها الراعشة ، يضعها على قلبه الخافق بعنف

- إنه لك !

ظل الصدى يرن فى رتابة مريحة "لك .. لك" فحلمت به لتستيقظ تجلس من أشواقها .

سُمح للوليد فى ظهيرة كانونية مباغتة وباردة أن يبقى فى بيت العائلة .

دخل عليهم تسبقه دقاته الواثقة على الباب الخشب الواسع غير المرمم من أمد بعيد . كان مرتضى جالساً فى الديوان المتحول إلى غرفة للتجمع العائلى ، مع شيخ الربابة الأعمى ، يشحذ ذهنه المتقد رغم سنواته السبعين التى سيعيشها مضطراً إلى عزلة تسعيناتها ، يستعرض بريق ذكرياتها مع الملا عبد الرحمن ، يتنفس بعمق أبخرة الحساء الساخن القابضة على عنق جوعه ، بانتظار أن يدله أحدٌ ما على ذلك السائل الدافئ ، قبل أن يسأل مرتضى عن الطارق دخل الوليد كان مختلفاً ، بدا كبيراً ، واثقاً من نفسه ، فرحاً بصورته ، بأخباره ، بأختيه تعلقان شوق قبلاتهما على كتفيه الحائزتين على لقب جندى مظفر .

دخل ببدلته العسكرية المغبرة ، رفع غطاء رأسه الصوفى وألقى تحيته واقفاً لم يجد مرتضى المهتز قلبه من مفاجأة حضوره ، إلا أن ينتصب واقفاً ، مد له الوليد يده مصافحاً ، ثم أرتمى متلهفاً فى أحضان شيخه الأعمى ، فسالت دموعه فوق لحيته الكثة الشعثاء متمتماً بكلمات غير مفهومة إلا أنها واضحة الحنان .

تكورت العوراء فى جلستها ، ولم تستطع (القادرية) سوى أن ترحب به بعيون شرهة فشلت فى استيعاب الجديد المختلف عن الفتى المطرود ، يقف

قربها ابنها البكر ثائر بسمرته الشاحبة المكتسبة من لون بشرتها ، تخنقان عينين ثأريتين انزلقتا عن وجه أبيه مزيجاً محيراً غير متجانس لاتحاد عالمين مختلفين . أسرع الجهم إليهم ولأول مرة ضم إليه أخاه واقفاً ، كانت شفتاه ترتعشان بإعلان عن رغبة فى البكاء فوقف للحظات متصبراً على رغبته القوية فى ضم أخيه الأصغر إلى صدره ، تختلج عضلات وجهه ، ثم فتح ذراعيه صامتاً ونشغا معاً ببكاء العودة .

اصطخبت الأسرة الكبيرة . زغردت فضائل بصوت يشبه صيحة ديك هرم مدارية احزانها لغياب ابنها خلف الجنود ، وأملت أن تكون عودة الوليد بشيراً واعداً لرجوع وحيدها .

عاد الخجل المعتذر إلى عينى الوليد . استسلم بسعادة لهذا الدفق العائلى غير المتوقع ، لم يمهلوه لحظةً واحدةً ليسترد انفاسه ، كانوا يتحدثون بصوت واحد . لم تسأله فضائل عن ابنها ، لأنها هجست بعدم جدوى سؤالها واكتفت بأن تستعيض بفرح عودته من غياب ولدها الموجع ، تحيط بها مثل دجاجة بناتها الخمس يكأكئن بكلمات تتناثر فى خوض اللقاء بابتسامات رهيفة .

نهض مرتضى قبل الجميع بعد الغسق بقليل ، وأعلن بصوت جليل آمر كأنه يعود إلى أيام الماضى :

- حضرن له الفراش .. لا بد أنه متعب فقد كانت مسيرته شاقة .

وخرج ، مكث صمتهم برهة ، لينطلق صخبهم أشد حرية بمغادرة مرتضى تتبعه العوراء ، فصار الهواء بالنسبة لهم أكثر خفة ونقاء .

حمل الوليد إخوته من أبيه على كتفيه

- لقد كبروا .. أصبحوا أثقل وزناً .

قبل أن تناديهم أمهما إلى غرفتها ، أخرجوا من كيسه العسكرى الفقير ، بقايا شظايا فوارغ الرصاص ، وصور الجنود ، ورسائل خربشت بأقلام مختلفة .

مع شهقة اللقاء بأخيه ، تناثرت كتب الوضاح المدرسية ، التى لم يتعلم يوماً الاعتزاز بها . سقطت زخات مطر ورقية ثقيلة فوق الرؤوس فاضحة درجاته المدرسية الهزيلة . كانت الدورس بالنسبة للوضاح معضلة لا حل لها وأمراً غير مقنع ، فهو لم يصدق يوماً أن تكون الأرض كروية لأنه يراها على امتداد البصر واسعة منبسطة ، كما أنه لم يفهم الجاذبية التى تمنع الأشياء من التطاير في الهواء ، والأمر الأصعب هو معادلة الأوزان ببعضها حاول مرتضى جاهداً أن يقنعه أن كيلو غراماً من القطن يساوى من حيث الوزن كيلو غراماً بين الحديد ، يبدأ أسبوع من المعاناة والشروح ، فطن الوضاح إلى حقيقة اختلاف وزن القطن ووزن الحديد وتساءل ببراءة.

- لو أن كليو غراماً من الحديد سقط على رأسك ماذا تظن أنه سيحصل ؟

وأسرع وحده بعبقريته التى اكتشفها توا يجيب :

- حسناً أنه سينفجر لا يحتاج الأمر أن تخبرنى ، أيفعل هذا كيلو غرام من القطن!! ؟

لم ينتبه الوضاح للكف اللاذعة تترك أثرها على رقبته ، قفز لا إرادياً وهو يتعثر يتبعه مرتضى بغضب لعناته على ذكائه الكسيح ، وظل الوضاح مقتنعاً بما لا يقبل الشك أن الحديد عند سقوطه المفترض على رأس أحد ما سيفعل ما لا يفعله القطن ، استغرب كيف أن والده لا يدرك ذلك ، لم يعد مرتضى يعول على تقدمه فى المدرسة . اعتبر أمر فشله محتوماً ، الا أن الوضاح أهتم كثيراً بدرس الجغرافية ، فكان يرسم بشغف خرائط الأنهار الجافة ، ويتابع بإصبعه حدود البلاد التى يفترض أنه سيزورها يوماً حتى

ينطلق فى تحقيق رغبته فى أن يكون أشهر جوال على الأرض البسيطة ، فكان يسرح كلما سمحت له عضلاته المتحفزة للانطلاق . وفى لحظات الاسترخاء القليلة يفتح عينيه على سقف الغرفة مصالباً يديه تحت رأسه ، غاصاً بأحلام الغابات والأنهار السريعة ، وبلاد تتحدث بلغات صعبة ، وجبال يقطعها فى الثلج وحيداً ، كان يحلم بالأسفار واكتشافات جديدة تنتظر أن يفتحها ، وهو الأمر الذى لم يتح له الوقت أن ينفذه ، فلم تتخط قدماه متراً واحداً بعيداً عن مقابر الجنوب .

اشتبكت الدموع مع الكلمات الترحيبية العاجزة على شفتى الوضاح ، وترك لأصابعه أن تتلمس بملامسة دافئة وجه الوليد العائد تواً بنصر لن يطول، بأصابعه تابع تفاصيل وجه أخيه الطيبة ، كأن بشغف يلمسه وبرقة غير معهودة به اكتشف أن تضاريس وجه أخيه أصبحت أكثر جدية .

خفت مع تقدم الليل احتفالات اللقاء ، واتضح التعب على الوجوه العائلية ، فأغفى الأولاد فى حجور أمهاتهم ، وأبحر الأعمى بعينيه المطفأتين بعيداً ، يطقطق بخشب عصاه الموروثة على الأرض ، مهتاجاً لوقع المدافع ، يشم دخانها فى صوت الفتى ، مستشعراً هسيس الرمل فى الثغرة فى جدار اللعنة المبنى فى سنوات الاستنزاف . ردد مع المهاجمين بصوت مسموع :

- الله أكبر .. الله أكبر.

- لقد كبروا جميعهم بصوت واحد .. ألم يفعلوا ذلك ؟

كان يصفق مبتهجاً لقصف المدفعية ، لضجيج قنابلها فى الجولات ، أنتعشت ذكرياته دفعة واحدة ، بحماسة قديمة استرجع ليالى هجماتهم السرية الشرسة ، وصهيل الفضية العنود ، والرقص الذى يلى على وتر الربابة ، خليلته الشرسة المتروكة بلا أصابع تحت غبار الهجر المجبر عليه ، وقف مهتاجاً يضرب الأرض بعصاه بصوت كأنه شفرة ملغزة :

- ملا.. وينك ملا .. أسمعهم ملا .

جحظ بياض عينيه ، فقد رأى واعياً بكل ملكوت الإحساس الملا يستند فخوراً على وسائده العالية ، يقرقر دخان أركيلته المعطر ، يمسد شاربه الناعم رغم ابيضاض السنوات عليه ، كان راضياً ، همس ، من عمق صدره وهو يتلقى بيده كتف الكرسى يعينه على الوقوف

- أنت هاملاً .. أه يا سيدى .. أنت هنا .

تشمم الجميع عطر التبغ فدمدم عليهم صمت مهيب .

تعب الكلام ، وصار النوم يلتقطهم واحداً تلو الآخر ، فبقى الأخوة الخمسة المتبقون من قافلة البلورية وشريكها مرتضى ، وحدهم كما لم يحدث إلا لمرات قليلة فى حياتهم القادمة ، يفتحون بشجن شموس ذكريات براقة الحزن .

دارت عليهم سبل بكؤوس الشاى المختلس من مطبخ منتصف الليل ، سمعت بوضوح مستغرب قهقهات الجهم ، أشعل الوليدا بجرأة جندى منتصر لفافته علانية سحب منها أنفاساً طويلة ، ظللها بكفه كما يفعل الجنود عادة فى الجبهات الأمامية ، نام الوضاح فاغراً فمه بعين نصف مفتوحة ، ينعكس فى بؤبؤه المترجرج ضوء المصباح ، غمز الوليد لإخوته وهو يقول :

- أنظروا إليه .. إنه مثل ذئب البرارى ينام بنصف إغماضة .

غطته مراثى دون أن توقظه وهى تحرز حجة الغد التى سيعدها فور استيقاظه كى لا يذهب إلى مدرسته . قضوا ليلتهم فى غرفة الديوان ، غير راغبين بالانسحاب من ميدان لقائهم إلى غرفهم ، مخافة أن ينفرط عقد فرحهم الخماسى ، فناموا فيها كيفما اتفق مدفئين بحنان أنفاسهم .

كانت مراثى فى تلك الليلة على خلاف ما سبقها وما سيليها من ليال

على استعداد تام لأن تغفر لعامر جبنه ، وأن تمسح آثار صمته اللعين الذى أسقطهما معاً فى هوة يائسة ، انتظرت بلهفة الحنين المحيل الساعات إلى عقارب وهمية تلدغ هدوءها ، تتشبث بكل طرقة باب ، حلمت وهى يقظة ، أنها ستفتح الباب الكبير لتجده أمامها فتضمه إليها متنشقة عبق عودته ، فكانت أذناها تستدير باتجاه وقع الخطوات على الطريق ، وفى قلبها دعاء يتوسل :

- أرجوك أن تأتى .

عندما نفضت عنها غطاء الصباح عرفت أنه خذل نداءها .

من يومان قبل أن يصل بريده . تألق وجهها بلفحة نارية أشعلت سمرتها الذهبية ، تدفق الدم إلى وجهها بسرعة نبضات قلبها ، نفحت ساعى البريد كل مدخراتها النقدية وهى تشعر نحوه بامتنان عظيم ، تلمست الرسالة فى الدهليز متوقعة مرور أصابعه فوق الغلاف الأزرق قبلتها بهيام وهى تتمتم :

- إنه حى سيأتى .

قرأت فضائل الرسالة وهى تقبل كل كلمة فيها قبلات سريعة ، يسعل خلفها عبد الجليل يشتمها بصوت أبح خافت لئلا يسمعه (مرتضى)

- بت الأوادم .. إنه ابنى أيضاً .. لم أنت ملتصقة بها .. بت

لم تابه فضائل بشتائمه التفتت إليه .

- عبد الجليل لا أسمع إنه يسلم عليك .. يقول إنه مشتاق لك جداً .. وأنت كذلك مرتضى .

قالتها وكأنها تهديهم شيئاً نفيساً ، ومرائى تسحق بيدها بانتظار نصيبها فى أشواقه . انتهت الرسالة صفعها غيابها ، فتداعت فى انثيالات

حزينة صخور خذلانها .. تساقط من خديها لونها النارى المتقد منسحباً إلى وكر شحوب الهزيمة ، عصف الخواء فى داخلها ، فخجلت بحنينها إليه ، برغبتها فى نسيان خطاياه وغفرانها ..

انسحبت بخطوات متعثرة مقهورة ، تتبعها سبل المدركة حجم فجيعتها أحتمت بالمطبخ ، أول باب صادف تعاستها ، لتترك على صحون الغذاء المغسولة توا بصمة غضبها . أسقطت الصحن الأول بعنف سورة الرغبة فى تهشيم رأسه ، الآخر لفقئ العينين اللتين تاقت أن تبحث فى شقرتيهما عن صورتها ، كانت تتلذذ وهى ترى الشظايا تتناثر كسنوات غرام العصافير تلك . جلست سبل على طاولة المطبخ قرب كدس الصحون المتناقص تناولها الأطباق وهى تطلق أراجيح ساقيها كأنها تشارك فى لعبة طفولية ، قالت وهى تناولها صحناً كبيراً هو ذاته المفضل لديه طبعت عليه صور عصافير تغرد منذ سنوات صامته فوق أغصان خضراء رفيعة :

- وهذا للذكرى النهائية لحب مغفل .

على صوت نفير الهشيم المنظم ، وقفت القادرية تفتح بوابة فم شوهته دهشة غير مفهومة لهذا العصيان ، مع انتهاء كدس الصحون ، كانت مراثى تمسح دمعها المنسل بسبب خذلان الأمل وليس الأشواق لتثأر ، لنفسها بعد سنوات قليلة ، عندما أخذت تتسلم بشكل رتيب رسائل التوبة العامرية ، لتتركها مغلقة فى قاع صندوق زينتها ، الإرث الوحيد من الشمرية ، تتفرج بحياد متقن على الطابع الغريب فوق الأغلفة الزرق ، تصعد حسرة طويلة وهى تقول :

- كم وصل بريدك متأخر !!

بينما الفضول القاتل يهز سبل المتشوقة دوماً لفض الأسرار ، تحثها على فتح المغلفات المتوجة برسم طائرة ، تتصيد الفرصة لاستباحة كلمات الرسائل ، كانت واثقة أن مراثى لن تجرؤ على فتحها لأنها تخاف أسراب

العصافير التى ستنفلت من حروف الكلمات ولن تفلح بعد ذلك فى ملاحقتها. رواغت مراثى بحذق رغبتها فى محاولة باسلة لتجنب الحنين المنحوس إلى الماضى .

جفـفت (مراثى) آخر دمـــعة كرت على خدها وهى تحدق فى وجه أختها ، تأملتـها مليًا وكأنها تراهـا للمرة الأولـى . قالت وشهقة تتلجلج فى حنجرتها :

- كيف يمكن أن تكون هكذا . أعنى أن لا تدعى الآخرين أن يتركوا بصمة ألم لديك ؟

تجـــمهر مكر حزين فى وجه سبل ، وانعكست بقايا الشمس على شعرها ، رفعت كتفيها بطريقة أرادتها أن تبدو لا مبالية :

- لأنك حمقاء لم تتعلمى أنه لا أحد ... لا أحد على الإطلاق يستحق أن نمنحه من الحب أكثر مما ينبغى !

نزلت من طاولة الخشب ، كان جرح قديم قد بدأ ينز الآن .. عضت مراثى شفتيها بقوة وهى تعتذر: - أنا حمقاء .

عرفت فوراً أنها نكأت الجرح . التفتت إليها سبل أن تغادر المطبخ ، عبرت بقايا الصحون ثم ثبتت فى وجه أختها نظرات وقورة ، وظل ابتسامة يخترق شفتيها .

- نعم أعرف أنك حمقاء ، لكنى لهذا السبب لهذا الحمق بالذات أحبك ، وأعرف أنك بلهاء أيضاً ومع ذلك سأقول لك ، أفضَل ما فى المصـــائب أنها تعلمنا كيف نحمى قلوبنا لئلا تتكسر كهذه الصحون .

كان الجرح قد أستيقظ ولم ينفع اعتذار مراثى إلا بقليل من الـــسلوى لكبريائها ، تذكرت سبل وهى لا تقرب البكاء سنوات الحب ، همست لنفسها وكأنها تكتشف مجداً :

- إنها كانت ثلاث سنوات!

مرت الأولى فى رجاء حذر للنظرات المختلسة . كان فتاها يقف فى آخر الشارع بانتظار الحافلة يرمق طريقها بلهفة ، نديا مثل الصباح ، لم يكن يتكلم ، عيناه فقط تلقيان حولها قصائد النظرات المحمومة . عام طويل متكبر الصمت ، طارت فيه نظرات العيون المرسلة برسائل شوق مجنحة . كانت فى الخامسة عشر من منتصف مرحلتها الإعدادية ، تحمل يومياً كتبها المدرسية المتحولة فجأة إلى رحلة مشوقة مشبوبة ، كانت تفتعل أحياناً وقفة قصيرة تحت الأشجار عند منعطف الطريق تختلس نظرة إلى وجهة وشاربه الناعم السواد فتعود وعيناها أشد غراماً .

كانت تمر كل صباح أمامه ، يتحفها بتنهيدة حارة تشعر بها تحرك خصل شعرها الأشقر لتجد عند عودتها وجهه يفترش أوراق كتبها المدرسية ، راقها أن تكتشف أنفاسه فى رائحة مشطها عندما مررته فى الجهة اليمنى من رأسها ، حيث تمر عليه تنهيداته اليومية الساخنة.

مرت العطلة المدرسية الأولى لحبها الصامت ، معذبة كئيبة حتى لمحته فى صباح مبكر وهى تلقى نظراتها المتثائبة من فوق سياج السطح ، يقف متكئاً على جذع نخلة هاربة من بستان الماضى ،وحيداً فى أحلامه بنظرة يلقيها عليها ، فتبرعت ذلك الصباح على غير عادتها ، وتحت ذهول عمتها (فضائل) بأن ترى شؤون السطح ، فكانت تتأخر بتجميع الفرش وترتيب الشراشف ، وتبكر برش بلاط السطح حتى تحولت أرضيته الحجرية لامعة نظيفة ، تسرق بين آن واخر مشهد قامته وابتسامته البعيدة وتحاور فى وحدة أشواقها صمته .

بداية العام التالى ، سار خلفها صامتاً كعادته ، لكنه حين جاورها مس بأصابع محمومة يدها ، دس فيها أول رسالة حب ، ورقة كتبت بأناقة حروف

طالب جامعي ، ختمها بزهرة حمراء ، جففتها فى دفتر الحب . حفظت كل كلمة فيها ، وأحصت عدد الحروف ، وبعد شهر من تلك الرسالة أحصت عدد النقاط ثم صارت تخترع فواصل للتنهيدات الحارة المفترض أنه كان يرسلها أثناء الكتابة . الموعد الأول كان يوم اثنين جميل ، واستحال بها إلى تقويم كونى فيتحول الكون كل يوم اثنين إلى حمى فرح فترقص أمامها بلاطات الطريق وأشجار الحدائق . فى الاثنين الأول تعثرت الكلمات خجلى ليعتادا بعد ذلك على رحلة منتصف الأسبوع فيبرق بغابة ضياء تعيشه بوقت سريع، يمر جميلاً خاطفاً مبهراً بين هوى كلماته واتساع مشاريعه ، فتحترق يدها بأصابعه الضاغطة ، فتعود مترنحة محمومة من الحب تطير قدماها فوق الأسفلت ، وتغدو بكلتيها شبيهة لنسمة وردية أو غيمة بنفسجية الرؤى فلا يعود أحد يسمع وقع خطواتها .

فى عامه الأخير فى كلية الهندسة وفى السنة الثانية للحب صمما معاً أول تخطيط لمنزلهما ، وأنشأ على خارطة ورقية شكل المطبخ ، وأعادا ترتيب النوافذ والشرفات وبيوت الأزهار ، تحت روعة الأحلام كل شئ ممكن . أخذت تخيط سراً ثياب نوم وردية لم ترتديها مطلقاً وشراشف جميلة تناوبت مع مراثى تطريزها فى ليالى الصيف المملة بأزهار ملونة بهيجة متخيلة الترف الذى سيلى متسمعة لضحكاتهما معاً ومتابعة أصابعه فى رحلة البحث عنها .

فى أول اثنين من العام الثالث للحب انتظرته فى الشارع تحت أشجار المنعطف ، خمس ساعات وعشر دقائق هن ساعات وقت دوامها المدرسى . كان المطر ينث ناعماً مريتاً على شعرها وكتفها فتمسح قطراته وهى شاخصة بعينيها إلى الطريق الذى سيأتى منه ، تترسم خطوته الرشيقة ، لكنه لم يأت. فى مواعيد كل اثنين كان هيامها به يشكلها مخلوقة أخرى راقصة بين خطى طفولة بريئة وبأحلام ساذجة وأنوثة صارخة تتوعد أشواقها بانفجارات

باهرة لا حصر لها ، يتورد خداها ، وتكتنز شفتاها أكثر بانتظار قبلة سريعة تحت الأشجار فى غفلة من العيون ، تركض أمامه وهو سعيد بكنزه الذى يراه ينمو كل يوم ، ويظل طوال الوقت بعيداً عنها يستحضر صوتها واستدارات جسدها وشعرها المنثور على كتفيها شلال نور وفتنة ، فتنهض رجولته تناديها بشوق لم يألف البرود إلا فى السنة الثالثة للحب المدمر . فحين تمر رعــــود الخوف تبرد ارتعاشة الحب ولن يعود هناك أمل فى قطف أزهار الشوق ، إلا أنها فى فورة لهفتها لم تنتبه لخليط اليأس المشبوب بالرغبة فيها والخوف من مستقبل حذره من مساوئه كبار السن فى عائلته . كان حين يخلد إلى نفسه فى عمق نجواه يشعر بغبطة يعلوها شئ من الغطرسة لامتلاكه فتاة مثل (سبل) تجمع بين أكداس الملائكة وصخب الأنثى المولعة الحب . كان يدرك ملء وجدانه أن كل شئ فيها أكثر مما ينبغى حتى صلابتها كانت أكثر مما يحتمل فيجد نفسه أكثر يأساً من قيادتها .

لم تره فى الصباح الذى تلا بعده . كانت مرتبكة بأشواقها المؤجلة وحزينة ، انتظرت حتى الاثنين الآخر وهى مفعمة بأمل لا شك فيه

- إنه قادم .

لكنه لم يأت . كل اثنين لستة أشهر طويلة ، كانت تتزين وتقف بأنتظاره خمس ساعات وعشر دقائق تحمل معها زهرة الليلة الماضية، دون أن تأبه بعيون المارة وفضولهم ، ترفع عينها باتجاه واحد لا غير ، ترمش أهدابها بانتظار صبور بلا ملل ، تعيد فى رأسها عدد حروف ونقاط رسائله ، تسترجع بحنان تفاصيل تخطيط البيت المؤمل سكنه ، فقط لون الستائر هو ما كان يحيرها اختياره ، أضافت بسعادة بالغة أزهاراً أخرى ستزرعها عند باب المطبخ ، وأرادت للنافذة أن تكون أكثر اتساعاً .

- كى أراك عندما تمضى وتعود .

فكرت : سأخبره بذلك عندما يأتى .

لكنها لستة أشهر كاسرة متتالية تعود بذبول زهرتها . فى يدها من غير أن تراه ، دون أن تفقد الأمل فى عودته .

انتظرت بشجاعة قاسية أن يأتى وحده ، مراهنة بذلك على مقدار ثقتها بمشاعره ، لم تشأ أن ترسل إليه ، لكنه فى نهاية أشهر الانتظار الستة ، كفت عن الذهاب إلى مدرستها ، قالت بعناد أليم لا رجعة فيه : لن أذهب .

مع بؤس ذبول أمانيها ، كانت كل صباح ترمق النخلة التى كان يتكئ عليها ، وتعيد الكرة أخر النهار . فى آخر اثنين بارد حمل غباره رمالاً خشنة فحشيت منافذ البيوت بخرق كثيرة ، فى السنة الثالثة للحب ، نهضت من رقدتها بوجه ممرور ، شهقت بخوف وهى تقول : - إنه يتزوج ، هذا يحدثنى !

خمشت قلبها كأنها ستنتزعه من مكانه . ارتدت ثيابها على عجل ، تسللت خفية مع مراثى عبر باب البستان الخلفى المهجور ، ذهبت مباشرة إلى بيته لم تكن تعرف على نحو أكيد أين يسكن ، خطاها الحادسة بوجع قلبها المكتوم قادتها .

بعيون لم يصلها الدمع رأته بين جمهرة أفراحه ، لم يهتد إلى سبيل لإخفاء اضطرابه ، ارتجف شاربه الأسود الرشيق ، اختلجت عيناه ونما جفاف ابتساماته على وجهه .

تشبثت بيد مراثى فى طريق العودة ، قالت جملة واحدة بصوت لا حياة فيه : لقد اختار يوم الاثنين !

ثم سكتت نهائيًا ، انتابتها حمى شديدة ، لسبعة أيام ظلت تصارع

سخونة القلب التى طفحت على خديها ، وخطوط الدمع الصامت تميل بانحراف إلى أذنيها ثم تنزلق إلى الرقبة . سهرت مراثى عليها ، تغرق رأسها بكمادات باردة وتمنع عنها بسبب هذيانها المشتعل باسمه ، وخوف افتضاح سر غرامها الملتاع ، طبيباً مقترحاً لزيارتها ، هو صديق لأخيها الجهم ليفحصها . كانت تعرف بخبرتها المكتسبة من ألم خيبات القلب أنه ما من طبيب ينقذ من ألم الحب سوى : الوقت .

فكانت تقضى الليالى قرب شقيقتها تمسح دمعها المنحدر من عينها المغمضتين ، فلم يمنع النوم انسكاب قطراته الملتمعة ، تسمع وجيب قلبها يشهق ، ويشهق بعتاب مرير لم يصل لصاحبه . فى اليوم السابع للحمى ومع اقتراب الفجر ، تفجر صراخ سبل المحموم ، جحظت عيناها وهى تصرخ :-

سأتأخر مراثى .. يامراثى سأتأخر ، قد يأتى اليوم .. إنه الاثنين .. الاثنين (مراثى)

كانت تشير بإصبعها إلى مكان مبهم ، هبت من فراشها وهى تتمتم

قد يأتى .. أنه الاثنين !

انتفض جسدها برعشة برد قوية ، كزت على أسنانها ، رأت (مراثى) من خلالها دموعها الخائفة قرأت على وجنتيها الغائرتين وشفتيها الشاحبتين عنوان موتها المحتمل فنادت دون إرادتها :

- لج ماما تعالى !!

بكت بحرقة وهى تحتضن بقوة رأس شقيقتها المحموم وهى تهمس بها:

- الله يخليج لتموتين !

همدت حركة سبل دفعة واحدة تلاشت قوة أصابعها و(مراثى) تمـــرر يدها فوق رأسها كأم مأخوذة بسحر مقيم تردد بلا تعب : لن تموتى . لن تموتى .. أنا معك .. لن تموتى ظلت تعيدها كترنيمة ، ترص جسدها بجسد أختها تلهث إلى جانبها : لن تموتى .

فـــى صبـــاح اليوم التـــالى فيما شـــق الـــضياء الستائر الخامـــلة ألوانهـــا جـــاء صـــوت ســـبل واهنـــاً ضعـــيفـــاً : مراثـــى .... مراثى أنا جائعة !

لم تعـــد إلى الحديث عنه ، قطعت لنفسها وعداً نهائياً لارجعة عنه :

- لن يكون هناك ألم .

- كيف ؟

- عندما لا يكون ثمة أمل فى أحد ما .. فى أمر ما ، لن يكون هناك ألم .. لن يكون هناك خيبة إن الألم كله يكمن فى الخيبات التى يسببها من نرجو أن يمنحونا ما نحلم به !

لكنها أبقت على زهرة الحب الأول ، حمراء جافة تذكاراً يعيد حرقة الألم قالت :

ليس هذا لأتذكر الحب .. بل لأجعل الألم صاحياً فى ذكراه .. حتى لا ننسى أبداً !!

فتعلمتا درساً مبكراً أن المرأة ستكره ذكريات رجل بكت بسببه وتتذكر دوماً رجلاً بكت لأجله .

كانت الأسرة فى البيت الكبير أكثر كآبة وعزلة أيام الأعياد ، تتوزع نسوة العائلة الكبيرة بملابسهن السود ، بين المدافن المتفرقة ، يحملن بأكياس

ورقية أصابع الشموع ، تذوى بلا مبرر فوق سطح المقابر ، بدموع شاكية الصمت ويجهدن بإشعال أكبر عدد من عيدان البخور ، ليعطرن أنفاس الموت فتصبح الفضاءات المحيطة بعالم القبور المقفز برائحة ثقيلة خانقة ، وحدهما قبرا طه و خليل ، ظلا بمنجى من هذه الطقوس الكئيبة ، بموت الشمرية ورحيل الملا ، لم يعد من الأحياء من يتذكرهما ، إلا مرتضى المحتجز فى فزعه منذ ليلة الفجيعة المعلقة على عمود الكهرباء بأظفر مفقود ، فقبع بخوف مدلهم وربما بشعور بالذنب وخجل من جبن لن يتجاوزه على الإطلاق ، فلبث القبران ينعمان بهدوء السكينة الموحشة فتعرشت على أكتاف ترابهما المتهدم خيطان اللبلاب الخضراء ترشقهما بأزهار بيض ، تبدد ذلك السكون المهيب هفهفات النخيل ، ونقر عصا الشيخ الأعمى ، يستدل الطريق المرصوف بحجارة مسامية صفراء ذابلة صفرتها ، يجلس هادئاً مواسياً نفسه بلقاء قريب ومتذكراً الماضى المنحسر ، كما هو دأبه فى طقس لم يغيره على مسار السنوات الماضية والتى سيحياها فيما بعد .

تباطأ الفجر فى الحضور عامداً ، همهمت ريح منعشة لا تنسجم مع مناجاة التنشيج النسوى المتفرق بين الممرات الضيقة لبيوت الآخرة المتراصة فوق بعضها . انكسر لون الفجر العابث باحمرار شمسى ليفضح سر حمامتين هاجعتين فى دعة وانسجام تنبشان فى ريش بعضهما فوق قبر تغلب .

- إنهم ملائكة !

هتفت سبل فى شبه يقين وبصوت هامس . أمكست مراثى بيد أختها تحثها على السكوت بانتظار انتهاء مراسيم الحنان الحمائمى .

جلستا بعيداً قليلاً عن القبر ريثما تقرر الحمائم إنهاء عملية غسل الريش .

لمحتما كيف تناثر زغب أبيض دومته الريح قبل أن يغيب ، فامتد خيط الذكريات اليهما . تذكرتا بلا كلمات ، كيف كان تغلب أخوهما الصغير يجمع فتات الخبز ، يبرمها بفتائل مستديرة ، يملأ بهما كفيه ليمدهما بدعاء صامت ومثابر إذ اصطبر بشكل يومى على إطعام رفيقاته ، حتى اعتدن صحبته ، والمكوث فوق رأسه ينبشن فيه .

لم يكن الأمر لهواً بقدر ما كان تعبيراً عن احتياجاته للصحبة الأليفة المفقودة وتعويض حنان مرتجى ، مع أن أختيه دأبتا ترعيانه و الوضاح بحرص يماثل إلى حد كبير حرص الجدات فيتناوبن على إبقائه نظيفاً فى طفولته ، فتجلسه سبل فى الشمس تمارس فى كثافة شعره هوايتها فى البحث عن فرائسها الصغيرة ، مفتشة بلا كلل عن مخابئ القمل العداونية ، تطلق عليهن أسماء مضحكة شتى ، فتسمى إحداهن بالبدينة وقد تسمى الصغيرة منهن - لولو - أو السيدة الناعمة ، لتبعد عنه الضجر ولتضمن بقاءه فترة أطول فكان يغفو أحياناً بين أحضانها ، يسحبه إلى نعاسه الدبيب الدافئ للأصابع ، فكان حين يصحو من غفوته الحالمة القصيرة يسأل بلهفة :

- هل وجدت اليوم لولو ؟

كانتا تتحملان بصبر أكبر من صبر الأمهات شقاوة طفليهما المحرومين من لفتات الأبوة المغلق عليها بإصرار أكيد باب الغرفة الآخر. استوعبتا بلا شروحات لم كان (تغلب) يجلس كئيباً قبالة باب

غرفة أبيهم المغلقة ، ساهماً يمضغ مع عميرة إبهامه ، وفى عينيه الصغيرتين تتكوم غيوم كآبة طفولية مبكرة يصغى دون ضجر إلى ضحكات أخويه الآخرين مع مهجع الأسرة الجديدة ، ويبتسم حالماً بأحلام لم يدرك كنهها أحد . وجدت الحمائم فى عالمه المشحون بتوق كبير للصحبة ملاذاً لها ، فكانت تترك إطار السياج الخشب لتهبط مقرقرة بين كفيه تلتقط بنقرات سريعة مدغدغة باطن كفيه كرات الخبر المفتولة ، وحينما كان ينهمك عنها بفروضه المدرسية على منضدته الخشبية التى اختار لها مكاناً يناسب مزاج رفيقاته البيض فى الحوش الداخلى ، كن ينزلن إليه بفوضى رفرفة متلهفة يعاتبنه على أهماله لهن ، فتحرك ريح الأجنحة المرفرفة أوراق الدفاتر فى دعوة للهو . فيتابعن النقر فى رأسه فتمازحه سبل قائلة :

- لقد أخذن دورى القديم بالتقاط قملاتك السمينات !

لم يكن من السهل مشاهدته فى الأيام السابقة لموته دون ذاك الشراع الأبيض المعد لسفر لم يحرزه أحد ، فكان دائمًا وقبل المغيب وهجوع الحمام فى بيوت الليل يرى مصحوباً بهالة الأجنحة . قبل وفاته بيوم واحد فقط استعرض مهارة حمائمه العابثة بشرب الماء من شفتيه . كور أمام أختيه فمه على رشفة ماء فحطت واحدة منهن فوق رأسه مادة عنقها إلى أسفل وجهة كان منظرها مبهراً بحنانه وهى تغرر بقطرات الماء آمنة جداً فحذرته سبل من حمى الطيور التى قد تصيبه.

اعتادت مراثى بعد أن فجر رأسه بإطلاقته اليتيمة ، أن تراه فى أحلامها ماشياً بلا هدف تحف برأسه المهشم هالة ضباب كثيف من أجنحة الحمام ، فى حلمها الأخير جفلت يدها الممتدة إلى الأجنحة القمرية المصنوعة من زبد بحر الأحلام أرادت أن تبعد تلك الأجنحة بحركة

يائسة ، يحفزها شوق لرؤية وجه أخيها سمعته وكأنه فى صحو المرارة يرجوه :

- دعنى أرى وجهك .

انتقض رأسه مع تلك الغابة البيضاء ، وسمعت صوته واضحاً :

- أختى أبداً لن تفعلى .

فى أحلامها التالية أكتفت برؤية وجوه حمائمه التى دأبت على الحضور إلى مكانه الخبز التغلبى القديم ، أضافت إليه سبل الرز المتبقى فى صحون العائلة وطاسات الماء فكانت تغرغر بهديل متقطع ، رافعات رؤوسهن المستديرة كما الدعاء .

لم تجد محاولات القادرية تخريب عمليات إطعام الحمائم ، متذرعة بأن ذروقها سبب مباشر ومقرف فى تلويث بياضات الغسيل المعلق على الحبال ، فكان رد الأختين قاطعاً لم يترك لها فرصة إعادة المحاولة ، ولم يملك مرتضى إلا أن يهدئها فى تحذير مبطن بأنه غير مسؤول عما سيحدث لها أو لبياضات غسيلها إن هى أعادت الأمر فى محاولة أخرى فقبلت على مضض مبيت خسارة جولتها .

لبثت الأختان فى صبرهما تنتظران انتهاء مراسيم العيد على القبر التغلبى فى صحبة الحمائم ، طحنت سبل أقراص الحلوى البيتية ، نثرته على كتف القبر ، فتجمع سرب فى موج أبيض فريد متداخل ، كانت خرزات العيون السود المدورة تلمح بامتنان وفهم ، مع اشتداد الشمس وجلبة أصوات زيارات صارخة للقبور الأخرى تحركت الأجنحة فى طيران هارب موحد . حلق السرب الأبيض بحركة دائرية مودعة ومضى . لمت (مراثى) عباءتها وهى تقول :

- لقد مضى معهن !

غسلن القبر من ماء ابريق أعد لهذا الغرض ، مسحن برؤوس أصابعهن الاسم المحفور بلون أسود على قطعة المرمر الرمادية تعمدن ترك بركة ماء ضحلة لحمائم القبر رفيقات موته وحياته .

فى طريق عودتهما إلى البيت وهما تتابعان انحسار الطريق تحت العجلات المسرعة فكرت سبل بصوت عال :

- أى أمر يمكن انتظاره بعد كل تلك التعاسات ؟

- حقاً أى أمر.

أشرقت ذاكرة عبد الجليل على نحو مفاجئ ، فعرفت (فضائل) أنه سيموت ، توجت الصحوة لحظات موته المؤلم البطئ ، بعد أن قطع سنواته الأخيرة مضيعاً بين الحانات لعله يقارب النسيان المريح لألم حبه الذابح لأوردة حياته . تفتحت السنوات الماضية أمامه حية نابضة . كان يمسك بيد فضائل وعيناه تجحظان ، يتصبب العرق على وجهه فيلتصق شعره المحتفظ بكثافته على صفحة جبينه ، يصرخ بغتة :

- فضائل أسمعى ... لقد أتوا .. إنهم قد جاؤا مجدداً

تذكر بفزع رحلة الموت فى قطار العطش .

لم يكن هناك من سيؤيد كلماته ، فكل من عاصره قد مات أو اختفى فى مكان ما إلا أن فزعه كان حقيقياً . كان الخوف مرسوماً بنقوش جبارة على وجهه ، يتسمع وحده صفير القطار ، تطرقه عجلات فى مرحلة مميتة ، سيبدؤها مع رفاق له ، بأناشيد حماسية نارية ، لتنهى بصرخات متحشرجة العطش :

- أخ يمة .. آخ !

أصغت فضائل يغلبها حنانها إلى ضمه ، وعت كل هلوساته المحمومة، تلمست معه الحديد الساخن الذى حشر فيه مع رجال آخرين ، كان يعرف بعضهم يناديهم بأسماء غريبة ، فتجاريه فضائل فى لعبة الموت ، فتدعوهم للجلوس فى ضيافته ، فيسألها أن تسقى الرجال العطشى.

أشد ما عذب موته الخشن تلك الرحلة اللعينة التى لن يكررها التاريخ مرة أخرى وحبه القاتل كان يروى بصعوبة ، كيف ضاق بهم الصفيح السميك الملتهب بنيران الشمس الصحراوية ، ليتركوا هناك للعطش المتعمد ، ينشبون أظفارهم بمفاصل العدو الحديدى الساخن الأخرس ، يتبولون القطرات القليلة المتجمعة فى مثاناتهم بحرص مأساوى ليتناوبوا شربها لاعقين حبات العرق المالحة فتكوى شفاههم المتشققة اليابسة ملوحتها .

- عيونى فضائل فى لحظات الفناء تلك كنت أريدك .. كنت أشتاق لحنانك .

ضغط على يدها المعروقة فأخفت دمعها .

- أه أحسست بقوة أنى أحبك بقدر ما أحببت .. أحببت ..

تحشرج صوته وصمت ، فأدركت القصد.

- سامحينى ... أليس من ... أعنى هل وصلت رسائل ؟

قالها ، ثم صرخ من مزق رئيتيه المليئتين ببلوى الاختناق . نهض من فراش مرضه كأنه سيهرب من قدر أتعبه .

- إنهم هناك فضائل دخيل النبى ليمنعهم أحد .. أسمعهم خلف الحديد السميك

اعتدل فى جلسته وهو يعوى بصوت مفاجئ ، مقاتلاً أشباحاً يراهم وحده :

- أولاد الكلب .. أخوات (...) أين الرصاص .. أيها المجرمون ... هيا امنحونا الرصاص .. أنه خير لنا من رؤية وجوهكم .. هية يا سفلة .

عاد إليه حريق العطش ، سكت لاهثاً فى أحضان (فضائل) مسحت وجهه المحموم وهى تتلو آيات قرآنية ، تجهش فى البكاء بين كلماتها فلا تجد عزاء سوى أن تهمس له :

: - لا بأس سيكون كل شئ بخير .. إهدأ .. لقد ذهبوا

نظر فى عينيها مباشرة كأنه تذكر أمراً نسيه :

: - سأذهب للملا على أن أكلمه بشأنك .. ماذا يعنى كونى رجلا فقيراً ، إلا أنى مناضل . هو سيقدر هذا ... هل تدربن ذلك .. آه منك حين تدمع عيناك .. أحبهما تدمعان .. راح أموت فضائل ..أبكينى الآن.. الآن!

كان يرى رسول الموت بانتظاره عند حافة السرير ، فشق صدره بصراخ يستغيث بدمع بها فضائل : - ابكيني الآن ...

توسلها أن ترقد إلى جانبه ، كانت أصابعه تلهث فوق جسدها الشـــفاف الهزيل في وداع محتوم ، أفلتت منه رغبته وتلفت حوله بذعر : سيأتون

تكوم وجهه المحموم فوق الوسادة ، أغرقته فضائل في صدرها النحيل المحفز بالتشنج .

كان دمعها يغسلهما معاً ، يعمدهما بملح الفراق الكاوى . لثم كفيها بشفتيه الخشنتين . كانت رائحة الحمى تفوح منه لاذعة قوية تعلن بصراحة أنه لا رجاء منه . ومع اشتداد ألمه كانت فضائل تدعو الله بحرارة أن ينقله عبر بوابة الموت لينقذه من لعنة عذاباته الطويلة.

كان الملا ينتظر وخلفه رتل موتاه ، وفوضى حمائم (تغلب) تهفهف بزغب فضى متطاير والصفوان يجر حبل مشنقته حزيناً صامتاً كعادته .

نادى عبد الجليل باسم كل من عرفه ، أناس لم يسمع أحد عنهم ، ومرتضى يمزقه الصوت ، يلف يده خلف ظهره ، يسير بخطوات مرتبكة فى الممر الداخلى ، يسمع نواح الموت يناديه ، فتنكأ جراح الأمس غير المندملة ، وصوت الصفوان يرهقه يضرب ذاكرته بضعف : وينك خويه ؟

بكت بنات عبد الجليل الخمس اللواتى بالكاد تعرفن عليه بذاكرة شحيحة ، اشتاق دون أن يجهر بذلك لحانات نسيانه الصعب ، بناته المنسيات كما كان يسميهن سابقاً .

صفرت رئتاه المتخمتان بآثار حريق الحب المدمر المتقد على مر السنين فى مراجل قلبه تسانده أكاليل دخان السجائر الرخيصة ، الملتفة بعناقيد

مؤذية ، يتحشرج فيها الشهيق بصوت صدئ ويتبعثر الزفير فيخرج متقطعاً طلب كأساً ، ترددت فضائل ، فرد عليها بمنطق لا يقبل الجدل :

- إنها لن تكون سبب موتى !

ضحك ببراءة وعذاب ، عب الشراب المظلل بياضه الشاحب دفعة واحدة وحقق رغبة أخيرة بتدخين آخر سجائره براحة تامة ، وبنزقه القديم طالب الجميع بالحضور . سأل عن (البلورية) محدقاً بوجه مراثى لأمد غير قصير ، قبل باطن كفها وكأنه يواسيها .

قالت عيناه بلا إفصاح بالكلمات : آه من عذاب عينيك ... آه كم جربته .. لو تدرين كم أعرفه .. إنه الحب ذلك القدر المرعب ! .

وضع وجه الجهم على صدره وسأله بلهفة :أنت عامر؟ أليس كذلك ؟

كان يبحث فى الوجوه لاهثاً ، يدور فى عينيه سؤال خارق ، سؤال وحيد مؤلم ، معادل للحياة ذاتها ولا يجسر على البوح به ، حتى وهو على حافة الموت ، كان صدره يتشنج بالحسرة ، ويخار تنفسه المضطرب مثقل بالأشواق المخنوقة . كشفت فضائل عن أكثر رغباته صدقاً وحرارة ، تجردت من كبريائها وقدمت إليه فى اللحظة الأخيرة ، قربان المرارة لآلهة قاسية ، فمسحت الغبار عن الصورة الوحيدة للوضاءة تلمع عيناها الواسعتان بابتسامة نبوءتها .

حدق فى عينى غرامه الجبار ، ومن أعماقه الخربة تسربت الأنة الأخيرة لقلبه ، ويداه تضغطان بعرفان كبير يد فضائل استعاد بومضة هاربة قبل موته بلحظات ماضية السرى لذيذ الألم ، فانهمرت عليه أمطار لوعته حتى أغرقته فى فضاء أبيض رحب وبعيد .

اقترب مرتضى من أخته : - أهناك ما يمكن عمله ؟

أسدلت (فضائل) الجفنين فوق عينى (عبد الجليل) وقد انطبعت فى

مائها المنحسر صورة الوضاءة راسخة كبصمة أبدية . هزت فضائل رأسها بالنفي وهى تمسح دموع هزيمتها . عندما حضر الطبيب المتأخر ، شخص سبب الوفاة : - سرطان الرئة .

وحدها فضائل كانت تعرف بشكل قاطع مرير أنه مات بسبب:- لوعة الحب .

كانت تعرف أنه حتى لحظة موته الأخيرة عندما ارتخت دقات قلبه وتوقفت عن الحياة لم يتوقف حبه للوضاءة على الإطلاق .. فى فراش وحدتها الجديد بكت سنواتها المهزومة بحب ثابرت على حمله بين جوانحها النحيلة ، حب خذلها حتى النهاية .

ظنت مراثى ، وهى تعلق ثياباً مغسولة بطشت البلورية النحاسى القديم يقطر منها الماء فى كل ضحى يوم سبت من أيام العطلة المدرسية ، إن أشواقها المديدة قد استغاثت بصوت (عامر) فجسدته لها ، نبرة حية مسموعة .

عادت لتلتقط قطع الثياب وهى تتحسر ألماً ، تقرقر حولها حمائم الحزن التغلبى التى وجدت طريقة للتعايش مع ديك (القادرية) النهم ، ودجاجاته المتبطرات ، متوهمة أن قلبها المحرور من غرامها وأقداره الصعبة قد أوحى إليها صوته ، وكادت أن تحصى كم من الوقت قد مر دون أن تسمع صوته لولا أن أعادتها زغرودة باكية متقطعة أطلقتها (فضائل) .

ركضت سبل نحوها تلهث يتورد خداها بانفعال وهى تقول :

- رجع (مراثى) لقد عاد !

انتفض قلبها بقوة وغزاها امتنان كبير للقدر المانح هبة اللقاء ، رمشت عيناها باضطراب عدم التصديق ، بيدها المبتلة من الغسيل لمست جبينها

كان جسدها يرتجف ، وذابت ساقاها فلم تقو على حملها ، وجدت قلبها وحده يجهش بالغناء :

- لقد عاد ...... عاد.

تفصد العرق ناعماً بقطرات شفافة فوق شفتها العليا المرتعشة . استندت على ذات الشجرة ، شجرة النارنج التى جلسا تحتها فى ضحى جد بعيد ينسجان بظلالها حكاية غرام العصافير ، لمحت حرفين من اسمه ، حفرتهما بأظافرها ، أهتزت أوراق الشجرة بسيل الذكريات الراعش فى وجدان مراثى .

اكتظ الديوان بأهل البيت و عامر تكبر على محياه ابتسامة عريضة يدور بين الوجوه متلقياً القبلات والأحضان ، يتلمس شيخهم الأعمى وجهه ويحدس كم كبر هذا الفتى ، ويتمتم بآيات المعوذات و القادرية وأبناؤها الأربعة تلقى حبات الملبس الملونة فوق رأسه ، وانهمكت العوراء باستعراض محبتها يداعب مرتضى ولديه وقد شبا دون أن يعرفا تماماً من تكون عائلتهما الكبيرة ، مخبأين فى غرفة العائلة ، بينما تربع عباس المتبقى الأخير من أبناء الزنجية الرحيمة المهاجرين خارج سياج البيت يتوسد وسائد الملا الحائلة ألوانها يفتل شاربيه .

من بين الأجساد المحتشدة رأته مراثى يكاد قلبها أن يفر يشكوه الفراق ، لكنها فوراً تراجعت إلى الوراء بذعر صامت عندما اصطدمت عيناها بيده تحيط كتف شابة غريبة . رمقتهما (مراثى) بنظرة هزم فيها الشوق والآمال وسؤال مرتجف يمتزج فى عينيها بدمع غير منكسب ، رمته سبل بسؤالها بصوت مرتفع سمعه الجميع :

- من هذه التى معك يا عامر ؟ ألن تعرفنا بها ؟

مسدّ عامر شعر الفتاة القصير قبل أن يجيب :

- أنها سلمى .. ألا تذكرينها . أنها تتذكرك جيداً . كنتما معاً في المرحلة الإعدادية .

- لا أذكر أني رأيتها .

وضع يده على كتف الفتاة المبتسمة : - إنها رفيقة عزيزة جداً .

بدا على الضيفة الخجل .. كانت ابتسامة حبيبة تفترش صفحات وجهها وشئ من الانبهار يغشى نظراتها ،وبصوت هادئ ردت على سبل :

- أنا أذكرك .. أنا ..

وأرادت أن تكمل شيئاً، إلا أن وجه سبل المستفز بكل شياطين العداء جعلها تهمل ما بدأت به .

كانت مراثي الصامتة في صحراء خيبتها تجرجر خطاها مبتعدة ، ولم تتمكن من تلقف نظرات عامر الهائمة خلفها ، ولا التقطت الرجاء المنادي فيها للبقاء . انسحبت وهي تعنف قلبها . تقضم بأسنانها أشواقها التي وخزت صدرها . قضت تلك الليلة . والليالي التي تلتها وهي تقسم لنفسها أن لا تعود إلى التفكير به . في اليومين التاليين اللذين قضاها عامر في بيت العائلة ، قبل أن يختفي مجدداً متجنباً المداهمات الليلية والأسئلة النهارية المدوية ، لم تتح لنفسها فرصة اللقاء به ، تشجعها (سبل على طي صفحات العذاب المرتسمة على وجهها ، فتحاشت النظر إلى قلبها لئلا تجده عنده كما اعتاد أن يكون منذ نهضة الحب الاول ، تتسمع صوته في باحة الحوش فتحتمي منه بغلق شبابيك غرفتها وإنزال ستائرها ، وهي ترجو بعمق عروقها أن يدخل عليها الغرفة عنوة وأن يجثو قربها يلثم كفيها ، ويعيد ما قاله في فجر وحيد أصيبت به بضربة قمر تسطع أشواقه .

- إنه لك هذا القلب كله لك وإلى الأبد .

كانت دموعها تتلجلج منسابة حارة بسبب اللهفة المنكسرة فى ضلوعها فتستغيث بالبيت المترع بأنفاسه تتنشقها بكل قواها بذات اللحظة التى تتمنى أن تملك الشجاعة على بتر رئتيها لأنها تجرأت على الاستمتاع بهواء مر عبر صدره فى تلك الليالى كانت تعوى بكل صمتها . وفى الليل الممل المسهد الشغف كانت تستغيث :

لابد لأحد ما أن ينقذ قلبى .

وكان قلبها يتداعى .

كادت سنوات السبعين من عمر قرن المخاضات المتعسرة أن تقفل بوابتها بأقل ما يمكن من الخسائر لولا تلك الليلة ، بطرقاتها المضنية ، الناهبة هدوء أمسية أدركها البرد قاسياً ، أثلج النخيل فتهدل سعفها وتهاوت أوراق الأشجار بأغنية موت صفراء ، طرقات صبر عليها الباب الكبير الذى لم يرمم خشبه طيلة تلك السنوات ودخل فى فوضى اشتباك زمنى والتباسات شائكة ، تيقظت فيه ذات الأصوات المقلقة ، ركضت فضائل وهى تحدس شراً ، ألقت نظرة سريعة متفحصة على أسرة بناتها الغافيات وجانب السرير الزوجى الخاوى، وضعت أثناء ركضها فوطة بيضاء جللت هامتها الصدفية الملاصقة .

ركضت سبل ، بطفرة واسعة وصلت منتصف الدرج ، يرتج ثدياها المكتنزان يدفعها فضولها المتنامى بحذق جبار ، يطل بروؤسه السبعة من عينها ، لتفتك بقدرة غريبة على أسرار الآخرين المحيطين بها . فضول ميزها ، دفعها لدس اكتشافاتها فى ثغور الحقائق المغطاة بطحالب عتمتها ، لتعلن بعد سنوات الإنهاك وهى تعتلي سلم سنواتها الثلاثين أنها تعبت من الحقائق لأنها أكثر ريبة ، وليس هناك أكثر قسوة منها إلى حد تفضيل .

أن تبقى مخدوعًا خير لك من اكتشاف عقارب الحقائق التى تكمن تحت وسادتك ، والأسوأ أنك لا تملك أن تبعدها عنك !

عجزت ساقا مرتضى عن حمله نفضت الضربات اللجوجة القوية على الباب ، عموده الفقرى ، تلفت حوله كأنه يبحث كما فى السابق عن آل صفوان، مفتقدا بحرارة - الوضاءة - بأجراس أحلامها ونبوءاتها الصاحية مع احتدام الأحداث . اصطدم بالشيخ الأعمى فى ظلمة الدهليز، لأول مرة منذ أكثر من ربع قرن قال له :

- آسف !

ولم يكن هناك مبرر للأسف . اشتد الضرب بكثافة رملية خانقة ، قبل أن تصل سبل إلى المزلاج ، انفتح الباب على مصراعيه ، دخل حشد من رجال الليل بعيونهم المتقادحة كقناديل راقصة ، اخترقوا الدهليز تفرقوا فى الغرف كأنهم يعرفونها . صرخت - بنات فضائل من تحت الأغطية الثقيلة ، ولولت العوراء بشعرها المنكوش ترمش بعينها الوحيدة تلهث بخوفها ، ألجم صوتها الزاعق مرتضى ، فوضع يده كما فعل ذات مرة قديمة على فمه مكممًا الكلمات قبل أن تنهمر من شفتيه .

كان أفراد العائلة الكبيرة كالمؤخوذين يلاحقون بريق الأسلحة المتوامضة بأيد الرجال المنقبين فى الغرف . وقف أحدهم مباعداً بين ساقية ، كان واضحاً أنه قائدهم .

- يبقى عامر والآخر ما أسمه ؟

صرخت فضائل :

- ماذا ؟

- سمعتينى ياشيبة ، أم أنك ابنة كلب صماء ؟

جمعوهم فى الباحة الداخلية للمنزل متراصين على بعضهم خوفًا وبرداً . كان الباب الكبير مفتوحاً على مصراعيه عندما دخل الجهم تحيط به عتمة السؤال وغباء المفاجئة .

لم يحزر من أين انبثقت تلك اليد الغليظة التى أمسكت بتلابيبه ، وصرخ فى صوت من جوف العتمة : ألقى القبض على أحدهم سيدى .

تحركت جلبة الأقدام ، وقرقع السلاح بلغط مكتوم ، وامتزج مع صوت أصطفاق عظام مرتضى ويده الملتصقة بفمه . جُرت سبل من يدها بعنف تشدها مراثى بيأس باكٍ وفضائل تلطم وجهها ترافقها صرخات العوراء والشيخ يسأل بصوت متوسل :

- ماذا هناك ؟ مرتضى .. ماذا يحدث ؟ ياناس فهمونى !

كان الجهم العائد تواً غافلاً عن إرباك اللحظة المتربصة به وقد سبقته فى كمين انتظار ، لا يزال مأخوذاً صحا باللحظة التى اصطدم فيها جسده بجدار اللحوم الطرية المرتجفة وصوت فضائل اللاهث الشائخ من فراق عامر وموت عبد الجليل تعيد ولولة مرستها السنوات المحيرة على ترديدها

تشبثت سبل بأخيها وهم يجرونهم تبعاً قبل أن تفصل عنه . أسند مرتضى الخائرة ساقية بقبضتى اثنين من رجال المداهمات الليلة المحنكين تتكسر فى حنجرته الكلمات .

يابه ... والله ماعندى شئ ! عيونى لقد وقعت ... بس ...

كاد أن يبكى فأحس الجهم بحنق كبير فصرخ به :

- كن رجلاً يا أخا الصفوان !

سقطت عصى الشيخ فأخذ يلتمس الجدار يتبعه كعادته القديمة . ارتطم نداوءه بحيطان الظلام فاقتعد عتبة الدار وهو يبكى عجزه ، أدرك أنه لن يعود بالإمكان أن يستدل طريقه كما كان يفعل فى الماضى ، مسح الأرض بكفيه المجعدتين ، سمعته فضائل من خلال دموعها وهو يقول بصوت ذاهل :

- سامحنى ملا ... ضاعت الدرب !

لوح بكلتا يديه فى الظلام الكئيب حوله يلتمسه وكأنه يبحث عن شئ ما .

لم تدرك سبل كم قضت من الوقت فى الرحلة الجديدة خارج بيتها العائلى حيث أوتها غرفة شديدة الإضاءة ، تنبع أنوارها الساطعة من سقف عال بتحكّم خارجى ، لم تكن على جدرانها المساء المطلية بلون أبيض دهنى مشع سوى خربشات تواريخ نحتت بأظافر أيدٍ أخرى .

اختلط الزمن عليها ، فدخل الليل والنهار بإشعاع متصل لانهاية له . قضت زمنها المحمى بتلك الإنارة المبهرة ، وهى جالسة على سرير ضيق فى الغرفة المبهمة . كانت حواسها المتيقظة تحاول التقاط أية نأمة حولها إلا أنها كانت كمن يقطن خارج أبعاد المدارات الفلكية السبعة ، فدأبت تستعيد بتنظيم مركز لأحداث الليلة البغيضة .

أيقنت بحنان مخيلتها أنها أحبت بيتها ، بتعب جدرانه ، ومرض طلاتها الحائل لونها الأبيض إلى رمادى مغبر شوهته خرائط مطر السنوات الماضية . أرسلت عينيها فى رحلة شوق إلى الغرف المتراصة بعوالمها السرية ، واشتاقت أن تكون هناك لتنجز ، كما بدأت مع مراثى حياكة جوارب الوليد الصوفية ، لقدميه المنهكتين من ألم الروماتيزم ، حيث يقضى خدمته العسكرية فى جبال الوطن الثلجية القصية .

كان يقول كلما أنت ركبتاه قبل حلول الشتاء :

- إنها لعنة الشمرية ، لقد وهبتنى بسخاء ثروة ألم مفاصلها ، لقد ورثت دليل مطرها !

تسمعت سبل فى وحدتها ، صمت مراثى وحدست : - لابد أنها تبكى بصمت وتحيك وحدها الجورب الصوفى .

صاحت فى نفسها كأن أحداً ما سيسمعها :-

- أه ستنجز فردتها قبلى !

شعرت وكأن مراثى تخاطبها كما يحدث فى الأيام الصعبة :

- كل شيء سيكون بخير ... بخير !

توقعت أن تقص مراثى حكاية غرامها الجديد لسنانير الحياكة ، ففى ذاك البيت ليس هناك إلا سبل واحدة لتحاورها ، طمأنها إحساسها بأن هناك من ينتظر عودتها هاجساً بها فرددت فى نفسها :

- كل شىء سيكون بخير .. بخير .. بخير ... تباً مراثى .. بخير .. بخير ...

نظمت فى ذاكرتها المشحونة بصمت اللون الأبيض المعادى ، أحداث الليلة غير المتوقعة والتى ستفتح بابًا آخر لحياة ستعيشها مجبرة أول الأمر لتعتادها فيما بعد ، وتجنى ثمار تعاستها الناضجة . بسببها تهشمت ، وإلى الأبد دورة العقد الأخوى الفريد تدحرجت حباته خلف طيات هجر مقصود . وستفتقد ذلك الانسجام الهائل الذى كان ينسج علاقتها بالجهم ، فبرغم كسل ابتساماته وضجر كلماته السود والغيوم المتلبدة فى عينيه ، إلا أنها كانت تعثر دومًا على فرحة صغيرة تطفر إلى عينيه كلما انسل إليهما فى غرفتهما ، حيث لم يتبق غيرها ومراثى من أسرة مرتضى المضيعة بين الموت وفرار عميرة القاتل ، لتجهز الجندية على الوليد والوضاح المنظم حديثاً إلى صفوفها بعد أن هجر دراسته . أنهى الجهم دراسته فى العلوم السياسية منذ عامين ، وستنهى مراثى عامها الآخر فى كلية القانون بينما تابت سبل عن الذهاب إلى إعدادية البنات لإنهاء صفها الأخير . استعادت بذاكرتها المنسية عنوة غباء انتظارها المرير كل اثنين لخمس ساعات وعشر دقائق . أعادت بدقة كلماته فى لقائها الأخير :

- يقال أن لكم انتماءً سياسياً مختلفاً !

تنحنح وكأنه سيقول شيئاً آخر لكنه صمت . كانت تدور حوله مثل عصفور مبهور بغرام عشه المبتكر كانت خلفه تماماً حين نقرته بأصابع راقصة ، وابتسمت كلماتها بين شفتيها : ماذا يعنى هذا ؟ أخبرها وهو خافض العينين عن هواجس عائلته العارفة بالطريقة التى علق فيها آل صفوان على عمود

الكهرباء وعامر وهروبه المستمر . صالبت سبل يديها فوق صدرها ، رصدت بعينيها وجهه المنكفىء ، كان ينبش أرض الحديقة المترامية ، بمقدمة حذائه .

- لقد نسيت أن تذكر أن لى أختا هاربة من بيت العائلة . ألم يذكر أحد هذا الأمر ؟

هز رأسه قبل أن يجيب : - لم يذكر أحد . هذه الأمور يمكن تداركها ، قد تحدث لكل العوائل . ولكن !

كانت سبل قد اقتربت منه فحللتها أغصان شجرة يوكالبتوس كبيرة وانعكست شمس العصر على شعرها ، فأشرق نورها من بين خصل الشعر الأشقر ، بدت كأنها جنية خرجت تواً من غابة أحلام ضائعة ، همس بود واضح :

- لله كم أحبك .

ونسيا تماماً حتى نهاية اللقاء أن يكملا حوارهما ، لكنه كان يعلم أنه يودعها وأنه لن يعود للقائها وأنه برغم عذابه من فراقها سيتركها تلم أحلامها فى إيجاد زهور مناسبة لستائر المطبخ وحدها !

لاحظت سبل بمرارة فى وحدتها المشعة ، كما خلت الأيام من آثار الطفولة وعناية الجدات المتوجبة على كتفى الأختين ، فى احتلال مبكر لدور الأمهات بنحو مبالغ فيه أحياناً ، وصفته بلا أسف ذات يوم .

كنا نستعيض بالأخوة عن الدمى :

لم تكونا متيقنتين من تأثير حنانهما ، لتكتشفا فى وقت ميت ومتأخر جداً ، فى سنوات لم يعد يحمل الاكتشاف فيها إلا حسرة أحزانها ، انهما كانتا كعتبتى خلاص غير قابل للدنس فى قلوب العصبة المتبقية من أبناء البلورية وسئ الحظ مرتضى عبد الرحمن الرضوانى ، فكان الجهم يأتى مثقلاً بحزمة هموم يخجل من طرحها ، اعتاد أن يحنط نفسه

بشمع السكوت المتكبر ، تواقاً للمسة حب ، لم يحدثهما عنه ، لكنهما حدستا فقط ، بأشد أساه فى حب منكود ، حب من طرف وحيد خاسر لابنة العمة - أولاد اللعنة - كما تسميهم مراثى .

وحدها سبل بفضولها القاتل نبشت وهى ترمم قذارات غرفته ، فى أوراق الليلة الماضية قرأت عن هوى جبار ساحق ، دمر تلاشي اللقاء آخر أحلامه حتى أنها حزرت من بقع رطبة مكثت فوق تلك الأوراق المدفونة جيداً .

- أنها دموع !

وكانت محقة .

توجع قلب مراثى بهذه الحقيقة واستيقظ صاحياً عذابها بغرام العصافير القديم .

دأبتا تراقبان الجهم لتتوصلا فى يوم جمعة عائلى ، نظمت فيه بلا تخطيط مسبق جلسة غداء فى حوش الدار المتربص بها الربيع باكراً ، وتربع بين أغصانها الزاهية بترف أخضر جديد ، إلى قناعة دامغة لا رجعة فيها ، بعد أن سمعتا بوضوح فاضح طويل نبضات الجهم تخرج من صدغيه وهو يرسل عينيه بنظرات حب مكسور يرفرف بجناح وحيد تعيده إلى يباب عزلته . كان نبضه يومض فى عينيه موجات مضيئة متدافعة . تنازل الجهم فى تلك الجلسة عن شمع سكوته واستعار بفرح اللحظة المباغت ، مرحًا أريكه ، فهمست سبل لأختها: أنه عاشق لا أمل به !

فشلت كل خطط الأختين المحبوكة ، بحياكة نسيجية متأنية ، تشبه إلى حد كبير حنان نسيج الصوف لأقدام الوليد الروماتيزمية ، فكانت فضائل تقف بالمرصاد كحارس يقظ لمنارات البحر وبحدس الأم تمنع الفجيعة ، لم تشأ لابنتها أن تتعذب من غياب غير معلوم كما حدث سابقاً لـ مراثى قالت وهى شبة واثقة :

- لن ينجم من التقاء خطى النحس وانكسار القدر ، إلا الكوارث !

فكانت نظرات الجهم المتسللة إلى وجه هانيا تعود خائبة الرجاء ملتاعة سعيدة بالتواجد القريب . لمس يدها بحركة بريئة غير مقصودة عندما ناولته بعد الغذاء كأس الشاى ، فاندفع الدم هجوماً قرمزياً إلى وجهه ، فابتسمت الأختان بحنان .

مع انكسار ضوء الظهيرة علق النعاس أراجيحه فوق أجفانهم ، كان الشيخ يتلو عليهم فهو لم يعد يغنى منذ أمد غير قليل ، قصائد نظمها الملا بشمرية حبه المستديم ، صاغ حبات عناقيدها فى ليالى سنة الهجران والباب الأزرق المقفول . تفكر الشيخ صاحياً كيف صرعت الشمرية هانيا الألمانية بزغبها اللامع .

كذهب منصور على جلدها العسلى ، قال وهو ينغم كلماته ضارباً الأرض بعصاه ضرباً خفيفاً : - انتعشت الشمرية عندما أطلق الملا اسم هانيا على ابنة فضائل . هانيا العاشقة الشقراء الخائبة ، لا يزال فانوسها مع أغراضى .. يالها من شمرية !

غرق فى صمته كأنه يستعيد نيابة عن مولاه ذكرياته الطرية عن سيدة الصابون المعطر وفانوسها الوحيد وفساتينها بأعاجيب فراشاته بألوانها الغزيرة لم ترفض ابنة العمة الجميلة هانيا حب الجهم كما أنها لم تقاوم رفض فضائل لقصيدة الغرام المرفرفة بجناح واحد ، فكانت تزيد عذاباته بنظرات عينيها العسليتين وتنهدات موحية ، تأجج الحرقة كأنها تتقصد بدهاء الأنثى المرغوبة إذكاء ناره الأزلية لتبقيها متقدة يحسبها مع خرابه المتبقى لهذا القرن وكانت سبل بتفاؤلها تجد فى الأمر انحرافا ممكناً بخط الحظ ، وتراه مراثى تعويضاً فريداً لحرمانها وعزاء لمأتم غرامها وتجاربه فضائل لأنها لا تجد فيه المأساة المحتملة فكانت تشفق على قلب ابنتها من عذاب الحب .

تذكرت سبل بتحفز شديد الشيخ الضرير عندما سئل عن غرامه ، كيف جفل وهب يزحف إلى بئر عتمته خانقًا عبرة أفلتت منه عنوة فى ظلمه الدهليز ، فلم يفلح فى إبقائها فى صدره . عندما استقبلته الرطوبة اللذيذة أطلق للمرة الأولى مر بكائه الملتاع في حبه الطويل المذبوح على صخرة الوفاء وصاح من عمق فؤاده وهو يعتصر رأس عصا الملا بقوة ، ونطق قلبه للمرة الأولى والأخيرة :

- أه .. أه يا شمرية ! ياثمرة القلب .

تذكر عاجزاً عن البوح أنها لم تذكره حتى فى لحظات موتها حين كان ينتظر أن تفكر به لمرة يتيمة ، كسلوى نهائية لقلبه الكتوم بحب ظل طى الكتمان مأسوراً بين ضلوعه ، وأنه طيلة السنوات المنقضية والتى ستأتى بعدها سيظل يتوجها ربة عذابه الحلو المميت الذى لن يتخلى عنه . قال بصوت سمعته سبل الزاحفة إلى سره العميق يحمل نذير حكمة قاسية يخاطب موتى الدهليز :

- نحن أكثر موتاكم ! إنكم فى القلب أحياء اكثر منا !

تكور الشيخ على نفسه فى عمق الدهليز ملتفًا حول عكاز الملا كان يبكى كما لم يفعل من قبل . كانت دموعه العمياء تنزل منحدرة على كفه المتجعدة الملتمة على رأس العكاز ، فتجمعت فى ثغورها بحيرات حب مالحة للشمرية منحدرة على كفة المتجعدة الملتمة على رأس العكاز ، فتجمعت فى ثغورها بحيرات حب مالحة للشمرية الراحلة . تجرأ للمرة الوحيدة أن يبكى غرامه المستحيل للمرأة العنود ، زوجة قائده ، واستعاد بعيون قلبه المتفتحة على وجيعته سنوات مثابرة على الاستطالة ، استعاد وميض عينيها الرماديتين ، وقامتها المليئة بالفتنة ، وسطوتها الفريدة ، سمعته سبل يعاتبها .

- أخ يالوعة روحى منك لو أنك يا شمرية ذكرتنى لمرة وحيدة لحملت وحدك حتى القبر امتنان فرحى .

تذكر كيف جلس على عتبة غرفتها فى ثورة الحمى الأخيرة التى اجتاحتها ولهاثها المتعب ومناجتها لكل أحبابها الراحلين ، كان يتصبر على آهات الألم ، ونشط سمعه يلاحق صوتها المتقطع وهى تتذكر أسماء أولادها ورفيقات صباها ، مغنية الأغانى القديمة . وتسمى الملا بأحلى ما كانت تناديه فى حياتها ، أخفق فى أن يجد اسمه بين الأخرين . وعزاؤه الوحيد أنها كانت تغنى آخر أغانيه قبل أن تطلق زفرتها النهائية ، لكنه كان على يقين أن الملا ربت على كتفه وحياه مواسيًا قبل أن يصحب الشمرية الناهضة من فراش مرضها بخفة إلى حيث دهليز الموتى ، سمعت سبل بخوف أنفاس الموت تعود إلى أوكارها هادئة .

فى الزمن المنفى بشدة إضاءة الغرفة ، تشوى بنورها الساطع بلؤم ، أحلام سبل فتختلط الصحوة بالنوم ، فلا تعى حقيقة زمنها ، رأت بقايا دم تحت أظافرها عندما أنشبتها في وجه واحد منهم فى ليلة القدر التعيس ، بتلذذ كان صوتها يقول وهى تقلب كفيها تنظر إليها بإعجاب وتشف .

- إنها دماء أحدهم . أنت بطلة ياصغيرتى سبل الرائعة !

دارت فى الغرفة متباهية ، ثم سكنت بعد برهة على الفراش صامتة تنظر بشرود أعمى .

بعد بضعة أيام عادت إلى البيت ، كما ذهبت بصحبة رجال لا تعرفهم ، مرت قبلها على مكتب فخم لرجل لم تشك لحظة مذ وقع عليه بصرها ، بأن هناك قدراً ما سيجمعهما ، لكنها لم تتمكن من تخمين مقدار الأسر الذى سيتبادلان فيه الأدوار بلعبة محكمة الأداء .

ادخلته فوراً تحت سطوة شقرتها وبطش شفتيها المكتنزتين ، سيقول لها فيما بعد ، وهو يراقب بولهٍ استدارة التفاحة المحرمة على شفتيها :

- كأنى بالكلمات تخرج مدورة من فمك !

كانت مدركة بوعي الأنثى ، وهى تحدق فى عينيه المائلتين تختلط فيهما القسوة المتناهية بسذاجة فذة ، ثقل وجودها ، لكنها حتمًا فى تلك اللحظة لم تحزر أنه سيكون بإمكانها أن توافق بجبروت اعتادت عليه سريعاً عندما قدم لها ، بعد زمن لا بأس به خاضا خلاله حروبًا دامية لتحديد الأدوار ، طلب التماس كتبه على ورق مكتبه الصقيل موقعًا بأسمه الكريم بعد أن أيقن ، وهو واقع تحت رحمة أناقة وقوة أنوثتها ، أنه لا مفر من الإذعان لسيادتها :

- لو تقبل صاحب العصمة أن أقبل يدها .

ببساطة شديدة لا أثر فيها للانفعال قالت :

- لا. ستوافق صاحبة العصمة أن تقبل قدميها .أصابع قدمى أولاً !

حركت أصابع قدميها بغرور جديد عليها ، متسائلة فى نفسها إن كانت قد غسلت قدميها فى الوقت الذى كان يلثم أصابع قدمها . إصبعاً بعد الآخر بامتنان يشبه التقوى ، كان للمرة الأولى يستمتع بلا قيود بجذور ضعف لذيذ كان يخشى أن تمر السنين دون أن يلتذ بممارسته .

كان المكتب نظيفاً بأثاث فخم ، تفحصته سبل بنظرة سريعة ، راقت لها شجرة خضراء فى الزاوية خلف كرسى الرجل ، كانت أوراقها تلمع بخضرتها الزاهية ، وقد مسحت بزيت خاص فالتمعت خضرتها تحت أنوار الغرفة بنضارة فريدة وبحاسة حيوان محاصر فكرت بلحظة سريعة بأنه لامجال للتراجع ، خطوة للوراء قد تكلف ثمنا باهظاً ، بصوت واضح سألت :

- أين أخى .. وأبى ؟

- لست بوضع يسمح لك بطرح الأسئلة .

استدرك قائلاً :

- أظن أنى كنت طيباً معك طيباً جداً !

فكر قليلاً وهو ينظر مليًا في وجهها ليضيف : فكرى بنفسك أولاً ... تعلمى هذا .. دائماً قولى لنفسك أنا أولاً حتى الله يطالبنا بأن ندعو لأنفسنا أولاً ومن ثم .. إذا تبقى فللآخرين !

كان درسه الأول قد بدأ فوراً . منذ أن طرفت عيناه برؤيتها . نظم فى ذهنه المتقد خطة لترويض لبوة الخط الليلى العاثر فى استثمار مفيد. جلس هادئاً على كرسيه ينقر بأصابعه على بعض الأوراق ، قلب فى كتاب شعر ، لم تلتقط عيناها اسم كاتبه ، حدست أنه قد مر قبلها فى هذه الغرفة . ضغط على جرس ليدخل فوراً شخص لم تلتفت إليه ، أشار بإصبعه إشارة سريعة ، دخل الرجل ومسح قطرات دم حديثة دون أن يترك أثرا لها ، التقت عيناها تلك النقاط المكورة شبه الجافة ولم تسمح لها أن تثير فيها أى شعور .

عاد يقول بمرح ظاهر : عادة لا تتم هذه الأمور هنا ، ولكن قد يحدث أحياناً !

لمح فى عينيها وهج الكراهية .

وراهن فى نفسه على ترويض هذه الكراهية ، طامعاً بأن يحولها إلى معزوفة مختلفة كان يعرف أنه يتوق إلى أن يكون محبوباً . ومنذ صعد دكة سنواته الأربعين كل صباح حين يطالع وجهه فى المرآة محدقاً فى حاجبه الكث المائل وعينيه الصغيرتين اللتين لا تخلوان من مكر طفولى ، يشعر بحاجته لأن يرى وجه فى عينى شخص محب ، كان يتوق للحظة تستولى عليه تدفقات قلبه لتخلق مناخاً معادلاً للقسوة اليومية اللامتناهية والمضطر على أن يحياها ، فكم من المرات وجد نفسه متحسراً على دموع المعذبين الواقفين تحت رحمته ، فكان يكفر عن خطيئة الرحمة بزيادة جرعة العذب .

- إنهم الضالون عن الطريق المستقيم . عن الصراط .

فتزداد قناعته رسوخاً عندما يسمع توسلاتهم بالتوبة أملاً بالغفران ، إن على الناس قاطبة أن تصدق أساليب رحمتنا كان دائماً يقول :

- على الجميع أن يصدق . قسراً اذا لزم الأمر ، إنهم يعيشون فى جنة الرحمة السفلية التى وعد الله بها الصالحين . أنهم يجب أن يدفعوا الكثير ليستحقوا البقاء فى هذه الجنة ، جنتنا !

كان فى شطحات خياله المدعومة بقراءات لابأس بها للتاريخ مدركاً لحقيقة راسخة لا تقبل الشك : - أن الوسائل للوصول بالأشياء إلى ذروتها ستزول لتبقى النتائج وحدها فى ذمة التاريخ المكتوب ، أما ما تبقى من مقدار الألم أو التضحيات سيمكث صامتًا فى تاريخ الوجدان الذى لاصوت له .

كان يعول فى كل خطوة يقوم بها على الذاكرة البائسة للشعب ، فكان يقول كلما اقتضى الأمر .

- نحن شعب بلاذاكرة ! من يتذكر ماذا ؟ إنهم ينسون ، نحن برحمتنا ننسى خطايا المواطنين ونسامح أحياناً قدر الإمكان عصيانهم . لتسهل الأمور أكثر حين تكون بلا ذاكرة أنها دائماً بداية جديدة .

ثبت فى وجه سبل نظرة طويلة ، اكتشف مقدار كرهها له . ستقول له فى أمسية لاحقة متسائلة :

- ألا تظن أن القسوة هى تعبير عن جوع أليم للإحساس بالحب ؟

خرج من صمته ودائرة كرهها له ليقول بحيوية وانتعاش :

- سأعقد معك تسوية مرضية .. يجب أن تتم الأمور برضى جميع الأطراف ... نحن قوم متحضرون ... ألسنا كذلك ... ديمقراطيون .

كانت أفكارها بعيدة عنه تبحث فى قاموس مفرداتها عن وصف للماثل أمامها ، كطفل نزق يلهو بحبل مقصلة ، ستصفه فيما بعد لـ مراثى وهى ساهمة :

- كان يبدو كقاتل فى ثوب شاعر ... أو ربما شاعر بأصابع قاتل : أكرهه ... مراثى كم أكرهه !

وكان حقا يتأرجح بمناخات مزاجه المنفلت مثل زئبق مأسور بين خطى الجحيم والجليد ليتحول فيما بعد بسبب شموس شعرها إلى عاشق مدمر بأصابع يقطر منها الشعر والدم يحمل سلاح قاتل حزين يبكى فجيعة قتلاه ، ويرفع كأس النخب لبطولته المفتعلة .

- سأطلق أباك .. قد أطلقه بتعاونك .. على هذا الاعتبار فقط .

فى تلك الليلة بالذات حقق نواف الضامن وعده ، فألقت سيارة لامعة ، مرتضى بفزعه المستديم ، تلقفته فضائل وهى تبكى فوق رأسه ، تحييه بيديها تضغطه إلى صدرها .

- اسم الله عليك خوية .

همست بأذنه كأنها تداوية ها أنت ، أنت الآن فى بيتك .

لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها عن أشد الأسئلة توجعاً . والآخرون ؟

قبل أن ينصرف رجال المهمة الليلية ، استدار أحدهم وقال بصدق خلا من كل تعبير : كلّ بوقته .

كان مرتضى عاجزاً عن الوقوف ، جلس على البلاط البارد متشبثًا بجسد فضائل الهزيل تفوح منه رائحة البول والعرق والخوف ، هرعت إليها العوراء وهى تولول :

- دنعل أبو السياسة .. هاى الحصلته منها !

ستعلن العوراء السياسة على المدى المتبقى من عمرها لأنها ستعرف بعد ليلة واحدة أن الخوف أخصاه نهائياً ، وأنه لن يعتليها مجدداً فى تلك اللعبة الليلية المبهجة .

بعد محاولات خائبة عديدة ستدرك أن سلاحه المسلى قد أعطب تماماً ولا سبيل إلى إصلاحه ، وأنه سيبقى تذكاراً متدلياً لا جدوى منه على الإطلاق ، فأعتبرت نفسها أرملة حزينة ، وتأسفت لحياتها الضائعة بحسرات ستطلقها كلما فاجأتها رغبتها الناطة من تحت خاصرتها ، وأحيانا رغم أنفها .

ضحك نواف الصامن من أعماقه وهو يسرد على سبل تفاصيل التحقيق مع مرتضى :

- كان وشيش تبوله عالياً ، وسمعت بوضوح اصطكاك أسنانه ، فينكسر الكلام بين شفتيه ولا تخرج منه سوى أصوات مخنوقة تشبه الكلمات . قرأت فى أوراقه شيئاً مختلفاً .. ياله من مسل عظيم :

التفت إلى سبل يبحث فى وجهها عن تأثير كلماته ، كانت دموع كبيرة تتجمع فى عينيها لم تسمح لها بالانخراط على خديها . قال بصدق آخر ، يحمل نبرة رجل حكيم ومحايد :

أهذا ممكن لقد تبول المسكين قبل أن يجيب عن اسمه احم .. أتعزين أن للخوف مبضعًا يخصى البشر ببراعة اكيدة .

بلعت سبل دموعها قبل أن تقول : لعله قد صار مسناً أكثر مما ينبغى !

لكنها لم تستطع كبح إحساس بالخذلان يجتاز خاطرها أوصلها إلى همسة عتب مؤلمة : لم هكذا يا مرتضى !

كانت الأيام فى سطوع البياض حولها تزداد طولاً واتساعًا لم تعد ذكرياتها تكفيها لإضاعة الوقت ، حتى إنها تاقت إلى جلسات الاستجواب ،

فقد أهملت بخطة ذكية تفتق عنها ذهن نواف الضامن ، وكان قد بدأ دروس الترويض بطول بال وأناة نحات .

افتقدت بشدة إلى حنان أختها ، فكانت في وحدتها تضم إليها ذراعيها مستوحية وجود مراثي قريباً منها ، فتهدأ حين تبدأ أصابع كف أختها بترتيب فوضى شعرها ومخاوفها واعدة أياها : كل شئ سيكون بخير . عذبها أن تفصل عنها كل هذا الوقت ولم يتمكن ذهنها من استرجاع يوم واحد لم تكونا فيه معاً ، ففي المرة الماضية اقتيدتا معاً .

كانت رحلة مشوقة أكثر منها مفزعة أو مربكة ، تعرفن فيها على حنان المومسات ، وافتضح ببساطة غير قابلة للتصديق سر القادرية وأسرار أخرى .

في صمت الوحدة المريب المشتعل بسطوع أبيض مقيت ، ابتسمت سبل وهي تستعيد أيام حنان المومسات في رحلة فريدة أعقبت مداهمة ليلية ، اقتديت هي ومراثي . لم ينطق مرتضى بحرف واحد ، كان يراهن مصحوبات برفقة رجال لا يعرفهم قيل له «لضرورات أمنية» مرر أصابعه على ظهريهما ، وكطفل بائس لوح لهما .

لمت فضائل بناتها وجلست على دكة الباب تلطم صدرها ، وهزت القادرية رأسها بحركة غير مفهومة لا تنم عن تعبير محدد ، بينما أبعدت العوراء ولديها بحركة سريعة ، دفعتهم إلى داخل غرفتها ، كان في عيون الجميع بلا استثناء نظرة تعلن بنحو أكيد .

- الحمد لله انهم أخطاؤنا :

كان الليل الشتائي المنذر بالمطر ، قد أعلن عنه بقطرات نثيث انقطعت سريعاً ، تراكمت الغيوم ، فهطل الليل بغتة . لم يكن الجهم قد عاد فموعد أوبته إلى البيت ما يزال بعيداً ، حث الشيخ خطاه العمياء وهو يلهث بصوت مخنوف : مراثي .. يابنات .. سبل !

ظلت أصابعه تبحث فى لحم الجدران المتآكل بلا جدوى ، بينما صوت خطواتهم يملأ الزمن حوله بالمتاهة فكر أن يستجير بأرواح الموتى المنقذة . ألقت سبل نظرة متفحصة حولها قبل أن تقلها العربة الغريبة فى طريق مجهول ، فهمست بصوت مخذول : رباه كم نحن عزل !

لمحت قبل أن تبتعد بها العربة ، الشيخ وهو يتعقبهما ، يضرب الأرض بظلمة عصاه فلم تسمع ما قاله .. لمست يد مراثى التى ضغطت على أصابعها مشجعة . همست فى بحر الصمت سجائر الرجال فاتقدت جمرات اللفائف .

وقع الضابط المسؤول فى السجن أوراقها ، وتساءل بصوت يعلوه الشك :

هنا عندى ؟ تعلم أنهن بالداخل قضايا . ماذا أقول جميعها أخلاقية :

إنها الأوامر !

كان المطر ينث خفيفاً بصوت دافئ يشبه الهمس ، فينزرع بقطرات لامعة فوق رأسيهما بصحبة حارس المناوبة الليلية ، حين عبرتا الباحة الواسعة الفاصلة ما بين مكتب مأمور السجن الحائر وقاعة السجن الكبيرة .

وقفت الفتاتان فى منتصف دهليز عريض ينفتح على قاعة واسعة قليلة الإضاءة ، تلامعت ارضيتها الأسمنتية الملساء الداكنة بانعكاسات المصابيح المعلقة من أسلاك كهربائية متدلية من سقف عال مظلم قبل أن تستيقظ وجوه شبحية لساكنى القاعة الأسمنتية وتقترب من الفتاتين لتحيط بهما جمهرة من عيون بنات الليل المستغربة غير المصدقة لكلمة صارت فى آذانهم كوخزة ابرة ساحرة . أعاد الحارس إعلانه المحذر بصوته الجهير :

- سياسة .

ما إن أغلق الحارس الباب خلفهما حتى بدأ المطر يهطل مدراراً مختلطاً بصليل السلاسل الحديد ومزاليج البوابة الثقيلة . ساد السكوت فى القاعة

الكبيرة قليلة الإضاءة ، قبل أن يختفى وجه الحارس كان صوته ما يزال يرد صداه .

- سياسة .. ساسة .

مرت بضع ثوان فى سكون مطبق لم تعرف الفتاتان الواقفتان فى منتصف الممر إلى القاعة ما يمكن عمله ، إلا أن تلك المعضلة حلت نفسها بسرعة فائقة ، فبعد دقيقة واحدة أطلقت السلطانة وقد عرفت لقبها ومرتبتها فيما بعد ، أوامرها العليا بصوت ضخم : استقبلتهما .

تذكرت سبل وهى تبتسم ، السلطانة بثدييها العظيمين وهي تومئ إليهما بالتقدم ، تلتمع فى كفيها خواتم كبيرة بأحجار ملونة أحاط بها رف غير صغير من فراشات اللذة ، كان بالإمكان ببساطة تخمين مقدار التعاطف الشديد الذى أبدته النسوة حيال الفتاتين .

أشارت السلطانة إليهما بالتقدم ، ربتت إلى مكان قربها بيدها المتخمة بالخواتم :

- هنا . تعالا هنا .

تفرست فى الوجهين . نقلت نظراتها بينهما بعناية كبيرة ، كأنها ستنتقى أحداهما ، فدخلت فى مفاضلة لم تتوصل معها إلى حل مناسب .

كانت بعض الايدى قد امتدت إليهما ، تتلمس أطراف شعريهما ، جاسة جلديهما ، قالت فتاة نحيلة جداً عرف فيما بعد أنها لقيطة ربتها السلطانة « كرامة للنبى » .

- شنو يعنى سياسة ؟

أجابتها السلطانة بصوت مدرك حكيم :

- يعنى الخوض فيما لا يعنيك . دس الأنف فيما لا يخص . يعنى المصائب .

ألقت حسرة واسعة وكأن ذكريات حزينة نبشت للتو ، وعادت تتفرس في وجهى الفتاتين : ألم أركما فى مكان ما ؟

هـزت مراثى رأسـها بنفـى سـريـع مـع أنهـا علمت حق العلم أنها : أم (القادرية) !

حزرت مراثى فى نفسـها لم كانت القادرية تعود من زياراتها لوالدتها بخدين متوردين وعينين تومضان بالارتواء والعافية .

همت السلطانة العظمى أن تكرر سؤالها : أين أكون قد رأيتكما ؟

إلا أن أفكارا أخرى دخلت إلى ذهنها صرفتها عن سؤالها ، وشردت فى نظرة إلقتها نحو القمة التى كانت تنفرج عليهن من شبابيك الليل الممطر .

هبت شمس الصباح صاحية ، فبدت القاعة بأرضيتها الأسمنتية أقل ظلمة وقد تخللتها أعمدة عريضة من ضياء الشمس وعت لغة لونها الذهبى ، فى سماء لا تمت بصلة إلى غربة الليلة الفائتة . شغلت فراشات الرغبة بالسؤال عن الوقت .

نشرن وهن يثرثرن ، على حبال صنعت من جوارب نسائية ، ثياب داخلية قطر من بعضها الماء ، وتحلقن فى حلقات متقاربة ، متنبئات بأخبار الخارج مطلبات لتوقعات جهدت سبل أن تفك رموزها ، وازدهرت صوان فى فطور دسم ، أومأت السلطانة إلى البنت النحيلة وأمرتها أن تدعو سبل ومراثى إلى الإفطار ، فدعتهم بصوت جهورى عريض سمعه كل من فى القاعة :

- هيا يا بنات .. لتأكل الدعارة والسياسة معاً فى بيت الحكومة :

ضجت القاعة بالضحك ، وفرقعت مشاغبة بعض الأصابع بأصوت عالية وكادت بعضهن أن تبدأ بالغناء لو لا أن ارتفعت يد سلطانة واشارت بحركة قاطعة آمرة بالسكوت .

ستتعرف الفتاتان المحبوستان من الليلة الماضية ليس فقط على سلطان السلطانة المكتب بفعل حكمة الليالى ، وحنكة الأيام التى قلبتها فى مواضع شتى ، بل على حنانها المسيطر برحمته الطاغية على من هن تحت رحمة سطوتها ، فكل واحدة من الفراشات العاملات تحت إمرتها تعرف أن حبلاً للنجاة قد تلقيه لها السلطانة قبل لحظة الغرق .

ضحكت سبل كثيراً جداً حتى اهتز السرير تحتها وهى تتذكر خطبة السلطانة بإظهار مزايا لعبة فراشات الليل فكانت تقول مبتهجة :

- كونك بغيًا يمنحك القدرة أن تفعلى ما يحلولك وقت ما تشائين بالشكل الذى ترغبين . إنها سلطة بل هى السلطة .

فى أول صباح لهما فى القاعة الأسمنتية ، تكورت قطعة شقراء تحت الشمس المشعة ، جلست وهى تقلص عينيها فى دفء نعاسها فوق حافة النافذة . كانت مراثى ترنو إليها بنظرة حانية ، وتعاطفت معها كلياً حين أفزعتها أصوات صخابة قادمة من البوابة الرئيسية وزغاريد وأحضان مفتوحة وقبلات مدوية فى فضاء القاعة الضاجة بنحو غريب بفوضى لقاء حار ومفاجئ لقادمات جديدات . ما إن أطمأنت القطة على سلامتها حتى عادت إلى وضعها السابق تفتح عينين مدهوشتين من الضجيج البشرى .

دخلت نساء ملونات كن مازلن يحملن فى أيدهن ، واقيات رجال مطاطية ، نفخت إلى أقصى حد ، فانتفخت واستطالت مضحكة مزرية . انهمرت القبلات على كتف السلطانة فلانت نظراتها ومسدت على أكتاف الفتيات بيدها المتخمة بالخواتم .

- حمدا لله على سلامتكن .. الجميع بخير .

أخبروها بأشياء كثيرة وأسماء مختلفة ونشاطات عديدة وكان لديها متبرعات للإجابة لكنها سألت بصوت وقور : أين الباشا ؟

قفزت إليها فتاة جميلة : أوه يا سلطانة ، لقد تسربت من بين أيديهم كحفنة ماء آه لو تدرين كم كان الأمر مسلياً ؟

- إذن لم يمسكو بها . حسنا . عفاكن . .

وسرت بنظراتها بعيداً تراقب ضجة فتياتها بابتسامة ارتسمت على زاويتي فمها .

أيقظت شوارع العاصمة ذلك الصباح ، رافسة كل رتابتها ، أغرب تظاهرة نسوية ، وقد ظهرت فراشات الليل كما لم تظهر سابقاً في رابعة النهار ، تختال بفوضى زاهية الألوان في أحد شوارع العاصمة الرئيسية، تقودهم الباشا تطالب وهي تغني بإقامة نقابة شرعية لبنات المهنة المحزونات المغدورة حقوقهن ، تحف بتلك المسيرة النسوية المربكة ، سيارات الشرطة الصاغرة تموج ألوانها الدائرية ، بينما صمت زغيق منبهاتها الكريهة ، لم تكن الحالة تستوجب الاستنفار بقدر ما كانت مسلية ومحيرة . على مدخل مبنى وزارة الصحة طيران واقيات مطاطية رجالية منفوخة ، انفجرت بعضها بأصوات عالية ، فوضع رجال الشرطة أيديهم على الأسلحة تحسباً للطوارئ رقصت فراشات المتعة بلاموسيقى على إيقاع أيديهن المصفقة ، فطلب منهن مندوب عن وزارة شؤون المجتمع أن تتفرق هذه المهزلة وأن لا يستغل الحلم الحكومي ، ونبه إلى أن هذه الحماقات قد تؤدي إلى عواقب وخيمة . وقال أيضاً إن المسؤولين لن يتهاونوا في هذا الأمر وأنهم سيعاقبون مسببي الفساد ، ويلاحقون المخلين بأمن الدولية ، فوقفت الباشا بجسدها الممشوق غير هيابة من أحد وهي ترفع صوتها بخطاب رنان مطالبة الدولة بحفظ حقوق راعيات المتعة . أفشلت المومسات خطة وزارية تدعو بالتعقيم الإجباري لهن لتنقية المجتمع وتخليصه من آثارهن ، فأتهمن المندوب المكلف بلقائهن بالسادية وقصر النظر ، فقالت أحداهن :

- أيرمى أحد بإسفنجة تنظيف الصحون خارجاً ثم يأمل بأن يحصل على وعاء نظيف .

فلقبن بـ : الأسفنجات ، ولهذاالسبب تحديداً ابتدأت (الباشا) خطابها العتيد قائلة : نحن الإسفنجات !

ضحك الرجال المحيطون بها وأفراد الشرطة شدوا شواربهم ، وابتسم مندوب وزارة شؤون المجتمع ، فأعادت القول بصوت أشد وعزيمة أقوى :

نحن الإسفنجات البشرية . نحن اللواتى نمتص قذارات لياليكم الجافة ، المانحات لسأمكم متعة الأحلام ، نشدد على مطالبنا بمنح أوراق شخصية لأبنائنا فيحمل الابن اسم أمه وأن نحظى بنقابة منتخبة تبحث عن مصالحنا وإلا ..

وتفرست فى وجوه الرجال المحيطين بها تومض على وجهها أنوار الكاميرات الصحفية :

- وإلا .. فأننا سنقفل فى وجوهكم مصاريع أسرتنا

تمايلت بغنج فاضح ، وعلت حولها الزغاريد ، وحملت على أكتاف النسوة وتطايرت مجدداً بالونات موانع الحمل المطاطية المنفوخة جيداً . ذهل مندوب وزارة الداخلية ، وأعلن حالة استنفار سريعة محدودة ، وارتبك الحرس، وتعالى رنين الهواتف فى مبنى الوزارة ، وحطم رجال لم تعرف هويهم كاميرا أحد الصحفيين ، ومنع بقرار وزارى عاجل نشر أى خبر عن هذه التظاهرة على واجهات الصحف ، ولم تكن أية ضرورة موجبة لإصدار مثل هذا القرار ، فلن يجرؤ أى صحفى على نشر أى خبر ولن تتحمل أية صحيفة وزر شجاعة نشره سواء بجهد شخص أو بإبداع الخطة .

جئ بسيارات الإطفاء وأغرقت الفراشات برذاذ الماء القاسى ، فغسلت الزينة على الوجوه ، وكشف عن بؤس جلود الوجوه وحزنها .

لم تفلح الحملة الحكومية فى التعقيم الإجبارى . فبعد العجز الذى أبدته وزارة شـؤون المجـتـمع فى اسـتـيـعـاب العـدد الكبـيـر لإيواء أبناء بلا آباء معلومين ، وجد أنه من الأفضل اجتثاث هذه العلة من جذورها ، بإخضاع كل بنات الهوى بلا استثناء تحت طائلة العقم الإجبارى وإشهار المشرط فى وجوه أرحامهن المتدفقة باستمرار بخلق - سماسرة المستقبل - ولصوصه القادمين كذلك سقط مسعى الفراشات فى الحصول على نقابة شرعية تحمى مصالحهن وتنظـم أمورهن الاجتـمـاعـيـة واشـتـهـر عن الباشا قـولهـا : لقد تعـادلنا مع الحكومة . لا غالب ولا مغلوب !

لم تتـوقف حرب الفراشات عند هذا الحد ، فقد أعلن العصيان الفردى على عشاقهن الذين خذلوهن ، واختفوا تحت أقنعة المناصب الرسمية ، ولم يترنح العصيان إلا بعد أن سكب العشاق دلاء عظيمة من الـدموع الساخنة وعشرات الوعود المقطوعة فى تحسين أخلاقهم الرجولية .

- لو أنك رأيتنا يا سلطانة !

صاحت إحداهن وهى تقفز طربًا : كانت شوارب أفراد الشرطة تتراقص وعيونهم تلمع و.... احم القت نظرة ثابتة بها بعض الحياء على وجهى سبل ومراثى المصغيتين بانتباه شديد فأضافت طبعاً لا يمكن إضافة المزيد .. انتن تعرفن الباقى !

ضحكت الفتيات بهرج ومرح . كانت السلطانة العظمى تهز رأسها بوقار سام ، سمعتها الصبيتان وهى تقول :

- أحسنت يا باشا . أحسنت .

عـبر ثلاث ليـال ويومين مـتصلين ، انفـتـحت امام سبل ومـراثى بوابات عـوالم سرية مـوغلة فى الرغبـات والأسى ، شـاهدن كـيف تذبح النسـاء ثمن

النفاق الاجتماعى والجبن الرجولى والادعاء غالباً ، سمعن قصصًا تشبه الأساطير وحكايات حب فرسانها من ورق وخطيئة .

ودعن السجن فى اليوم الذى كان مقرراً للزيارة الرسمية ، فانتظرت فراشات الرغبة بفارغ الصبر قدوم الباشا برفقة محام قيل إنه داهية مخضرم وكان سابقاً أحد عشاق السلطانة المعذبين بهواها وإنه ظل غير قاطع الأمل بمحبتها .

- خسارة ألا ترينها ... أنها تحفة إلهية .

قالت سلطانة ذلك وهى تعيد فى ذهنها سؤالها : أين ياربى قد رأيت هذين الوجهين ؟

- لم تلقب بالباشا ؟

سرحت سلطانة ورقت تقاطيع وجهها الأسمر الضخم ، فاحت من نظراتها حكاية زمن قديم محتفظ بحميميته :-

- لأنها كذلك ، ولأنها الوحيدة التى تشبه الباشا روجينا . أنت لا تعرفينها .. أنا كنت صبية حديثة السن عندما بدأت المهنة من بيتها .. آوتنى وعلمتنى . كان لها جسد يتلوى بأحلى الرقصات وجمال أخاذ ودلال صرع رؤوس الرجال ... مشاهير الرجال تمرغوا تحت قدميها .. روجينا كانت تجمل ليل بغداد ... أختها كانت مغنية مشهورة إلا أن روجينا هى الأجمل .

التفتت إلى سبل بوجه جدى غير منتزع من آثار الماضى :

- تخيلى أنها كانت تضع نصف مواردها اليومية فى بيت عمومى فتحته للفقراء ، يطعمهم ويؤويهم ليلاً ، كانت تدور بينهم مثل أم رؤوم تمنحهم بركة حبها وحتى التلاميذ ، الكثير ممن حملوا شهاداتهم يدينون بالفعل لجسدها ، بعضهم موجود الآن اسماؤهم كالطبل .. نحن .

صمتت وحدقت فى عيون سبل بنظرة عميقة . وتمهلت قبل أن تكمل :

- نحن نحمل قلوبا أرق مما تتصورون .

- من تعنين ؟

- أنتم يامن لا تمارسون ال ... رحمة الله على روجينا . كانت (باشا) تجلس على كرسيها ، وتضع الطربوش كأنها الملكة بعينيها .

تجرأت سبل واستعدت لسؤال اخر : وهذه الأخرى ... هل تستحق أن تكون (باشا) ؟

ضحكت السلطانة : ستكون . أنا أعدها لتكون . فأنا اقرأ فيها بصمات روجينا هذه الباشا ، شابة مختلفة ، عريقة قوية جميلة مسيطرة ، تلهو بكبار الرجال بلاتهييب ، تمرغ كبرياء أكبرهم وأشدهم جبروتاً ، لكنها رقيقة مع بنات الكار رحيمة بالجميع . أسميتها الباشا وهى ستكون كذلك ، كم أرجو أن لا تكون نهايتها على يد عاشق تافه كما حدث مع روجينا فقد مزق جسدها رجل احبته ، الوحيد الذى احبته ،

استولت على السلطانة أيام بعيدة ، روضت فيها أحداثاً كثيرة واستباحت من جديد صورة ماضيها ، فاستغرقت فى موجة حنان استأنفت فيه كل ما سبق .

على البوابة علقت سبل تعويذة عجنتها بتنهيدة أطلقتها من صدرها .

لم تجرؤ على البوح بها . لكن مراثى عرفتها وتخوفت منها ، فأسرعتا تحثان الخطى بعيداً عن طريق السجن لتتجنبا لقاء الباشا .

تذكرت سبل . استعادت نبضات قلبها السريعة وفزع أوهامها حيث حدثتها نفسها وهى تتسمع أخبار الباشا التى قيل أنها سليلة احدى العوائل العريقة ، فخمنت وكانت على حق أنها : عميرة !

لم تستعد انتظام تنفسها ورباطة جأشها إلا حين نضج فى ذهنها الامتنان الشديد لحرس السجن المتفانين فى إظهار التعاطف معها . حرص الضابط المحقق على أن يخدشها بسؤال جارح ، فوجئت سبل بشجاعة مراثى وصلابتها غير المتوقعة قالت فى نفسها وابتسامة لذيذة ترتسم على شفتيها : شجاعة هذه العاشقة الخائبة ! حين ارتفع صوت مراثى الهادئ واضح النبرة والكلمات والتحدى .

- لم نحن هنا ؟ أيه تهمة نحملها تدفعكم لحجزنا ؟

لم يكن الضابط مهيأ للإجابة ، قلب الأوراق التى أمامه وراح ينقر المنضدة المعدنية بقلم فى يده : إنها أوامر .

وسكت .

أفرج عنهما بعد أن أتم تحقيقًا وهميًا ... سؤلتا عن أسميهما ، وعن أمور أخرى سخيفة ومعلومة للمختصين بأمرهما ، حينها واجهت مراثى صاحب السجن وهى تضرب وجهه بنظرات ثابتة : ألهذا حجزنا !

وانتظرت إجابة لم تسمعها .

قفزت سبل من مكانها بحماس تصفق بكفيها فى الغرفة البيضاء وهى تردد :

- عفية مراثى .. سباعية أختى !

ضحكت عالياً وخيالها المشتاق لأختها يقود وجه مراثى إليها ، تطوف به بسمة دامعة ، فوجدت حنانها يطلق برقية مستعجلة لم تشك لحظة فى أنها ستصل إلى أختها كاملة : مراثى أنا بخير .. لا تبكِ ... أنا بخير .

أنهت برقيتها ، وتكورت على نفسها وبكت . بكت رغبتها فى أن تكون مع أختها وأن تسمع مجدداً ما كانت تمل سماعه من قصة غرام جيدة غير منجزة ، بدأت مراثى تعزفها وحيدة متعرفة على أساسها بصبر .

أعيد استجواب سبل ، لم يكن نواف الضامن موجوداً هذه المرة . نقلت إلى غرفة واسعة جداً بلا نوافذ خالية من الأثاث سوى كرسى منفرد ، يحمله المحقق معه كلما تحرك ، وقفت سبل تدير رأسها مع حركة الرجل حامل لكرسية ، وبصدق منفر كريه كان يسألها : أين عامر ؟

أجابت وهى تفتح عينيها دهشة : ما أدرانى ؟ لا أعرف .

- من هى سلمى ؟ ضبطت وأنت تسيرين معها .. وجدنا صورة لك معها . كنتما معا فى المدرسة . لاينفعك الإنكار . تكلمى !

صرخ الرجل فدوى صدى صوته عالياً ، فأجفلت سبل : - لن أنكر . جاءت مع عامر إلى البيت مرة واحدة .. نعم .. نعم كنا معاً فى المدرسة . لكنى لا أذكر هى اخبرتنى بذلك !

- اعترفى .. لا شىء يخفى علينا .. أى حزب يضمك !

- أنا .. أنا غير محتزبة ... لا أحب الأحزاب .

تذكرت فى تلك اللحظة السلطانة بثدييها العظيمين وحكمة لياليها حين قالت :

- السياسة كالدعارة . لكلاهما شبهة

اقترب بوجهه منها : - وأخوك ما اسمه .. الجهم .. يا للاسم .. نحن نعرف عنه كل شئ ولكن نود أن نسمع منك .. أفضل لك أن تقولى كل شئ بامكانك أن تشفقى على شبابك .. أى حزب ؟ تكلمى

أرعبها الوعيد المخيف الذى فى صوته قالت وكأنها ستبكى : لا أعرف ، إنه لا يتكلم .. لا أظنة فى حزب ما .

شدها من كتفيها بعنف وحدق بغضب بعينيها وكأنه سيخوض فى جمجمتها :

- لا ينفعك الإنكار . إنك لا تعرفين ما ينتظرك ، الهول والجحيم لا يعادلان لحظة واحدة بما يجب عليك الحذر منه تكلمى .

- ماذا أقول ؟ أنا لا أعرف شيئاً .

قبض الرجل على كفها ، ورفع سبابتها ملصقاً إياها بظاهر كفها ، طفرت دمعة سريعة من عينيها ، وارتفع أنينها : سأقتلع عينيك ، وانتف هذا الشعر الطويل . وأقلعه .

لطمها بعنف بكفه الكبير المتمرسة ، فتورمت شفتها فوراً . كانت ترتجف وهى تمسح فمها بظاهر كفها حين فتح الباب ودخل نواف الضامن كانت فى عينى سبل ترقد نظرة امتنان وترحيب وكأنه خلاصها . وكان هو ما يريده تماما ، ألقى أوامره فور دخوله :

- سأتولى الأمر بنفسى

ألقى الرجل الآخر تحية الاستعداد وانصرف ، ربت نواف الضامن على كتف سبل مسح دموعها وبصوت وديع راح يواسيها :

- يا صغيرة .. ياحلوة ... أنا سأحميك .. أنت خائفة .. صحيح أليس كذلك ؟

ضمها إليه وهو يهمس بأذنها : إنهم قساة .. إنهم مخيفون ... سيقطعونك ... أخبريهم بما تعرفين .. أين هى سلمى .. وعامر ؟ أخبريهم وأنا ساعيدك بنفسى إلى البيت .

وضعت رأسها على كتفه : والله . والله . . لا أعرف عنهم شيئاً .

- حسنا لعلك ستخبريننا عندما تعلمين .

هزت رأسها ، وانتعش الأمل مجدداً فيها . أعيدت إلى غرفتها المضيئة بعد أن مرت فى ممرات مظلمة ، كانت أكيدة أنها تسمع فيها أنيناً وشهقات موت مرير مرتجى . كانت تجر خطاها مرتجفة فزعة . أجابت بصوت مبحوح الرجل الذى يقودها حين سألها : -

- يستحق من يشتط عن المسيرة عقوبة الألم وليس الموت السريع المريح أليس كذلك ؟

- نعم .... نعم .

بحرقة ألم بكت فى غرفة الضياء القاتل خوفها ، ونادت من أعماقها فى أختها :

- لج مراثى وين اكو خير !

أعدت مراثى ، فى البيت الكبير سرير أختها ، وضعت بعض أزاهير صغيرة قطفتها من نبتة تقويم غرامى ، كان الربيع دافئاً جداً ، فحمدت الله أن ذلك سيقى الأم الروماتيزم المبكرة ، مع حلول المغيب سمعت صوت النهر يلطم الضفاف ، وقبرات النخيل تهدل بأغنيات المساء ، نظرت فى ساعة يدها . سمعتها القادرية وهى تقول :

- تأخرت سبل !

هزت القادرية يدها وهى تؤكد لنفسها مجدداً : كلهم معطوبو العقول ! .

سأل مرتضى عن البيان المسائى للحرب .

- مع الأخبار بابا ... سيقرأونه مع الأخبار

- وأنت لم تقفين هنا وسط الممر

- انتظر سبل

- من قال إنها ستأتى ؟ هل اتصل بك أحد ما ؟

- قلبى بابا .. قلبى ...

نادته زوجته من بعيد فانصرف كهلاً متعباً دون أن يستمع لقلب مراثى وتنبؤاته .

فى الثامنة والنصف عندما أنهى رجل التلفاز إذاعة البيان الحربى المئة وهو يعلن :

- خسائرنا شهيد واحد !

فتحت مراثى الباب دون أن تقرعه سبل ، فانبثقت تحت قدميها بركة صغيرة تقطرت من دموع اللقاء المالحة ، طافت فيها أزاهير الياسمين البيض المرصوصة فى كفى مراثى لأنها أرادت أن تنشرها فوق رأس أختها ببركة عودتها . على سرير الليل بوسائده الساهرة مع حكايات الأختين سألت مراثى أختها .

- لم بكيت البارحة ؟

كانت واثقة من ذلك حين تكور قلبها محصوراً تحت أضلعها . نظرت سبل فى عينى أختها نظرة مشرثرة ، أحصت فيها مراثى عناوين الحزن والوحدة ، مسدت على شعر شقيقتها وصمتت قبل أن يأخذها فكرت مراثى فى يأس واحباط بآخر كلمات سبل شبه النائمة :

- لافائدة نحن متورطون رغماً عنا أكثر منهم ألم أقل لك ذلك من قبل .. لنا من دفع الضريبة .

رددت مراراً : نحن متورطون .. متورطون حتى الأعناق .

كتبت مراثى بسبابة كفها اليمين على ضباب النافذة : لا مفر .

وبقيت تراكم بخار تنفسهما فوق النافذة ، أصغت بمخيلة فارغة وأصابع تلهو بشعر أختها الأشقر إلى صوت جدجد ليلى وحيد يغنى بصوت خافت ، ظلت تصغى حتى أغفت .

عاد الوضاح بحقيبته الصغيرة وغبار الجبهات محفور على جبهته تظلل عينيه رغبة عميقة إلى أخوته . صاح الوليد مبتهجاً من داخل الحوش :

- عاد الوضاح

مدت هانيا الجميلة رأسها ، فتدلت أطراف شعرها فوق السياج المطوق كسوار ممرات الطابق الثانى ، نادت أخوتها ووالدتها . سمعت طقطقات عصا الشيخ تبحث عن الطريق يسبقه صوته .

- وضاح .. وليدى

كان يمد يده فى الفضاء أمامه . قفز الوضاح إلى حضن الشيخ ، قبل باطن كفه وألقى يده حول كتف العجوز . ركضت فضائل إليه تضمه إليها فتوسم فيه لقاء غير محتمل إلا أنه مرتجئ ، لابنها الضائع المنقطعة أخباره منذ هروبه الأخير . تسابقت سبل ومراثى لاحتضانه، تعثرت مراثى فسبقتها سبل تعلقت بكتف أخيها .

- غبت كثيراً يالعين أنت جائع .. ألست كذلك ؟

وقفت مراثى قبالته مدت إليه يدى أم ملتاعة شتتها اللقاء ، فاستكان أخوها فى صدرها ، فكرت أنها لن تسمع هذه الليلة الأخبار ، ولن تحصى معهم عدد الخسائر . شم الوليد ثياب أخيه وصاح : - إف لك رائحة جرذميت ؟

بحثت عينا الوضاح عن أبيه ، وسأل : أين أبى ؟

- إنه فى غرفته .

أجابت العمة فضائل وهى تجره إلى غرفتها يتبعها الحشد كله يستند الشيخ إلى كتف الوضاح ، الذى انحنى فى طريقه على شجرة الياسمين يشمها .

- هذه جديدة ؟

تـلاحقـت عيــنا سبل ، لكزت أختها فى خاصرتها : - فضحكت .. شجرة تقويم غرامى هل أقول لمن هى؟

عــضـت مـراثـى شـفـتـهـا السـفـلـى وألـقـت فـى وجه أختـهـا إصـبع الوعيد .

لم يكن أحد غير سبل مطلعاً بتاريخ تقويم غرامى ، فقبل الوقت بأشهر قليلة ، تحديداً فى آخر صباح من شهر شباط فى سنة كبيسة ، صباح مشبع بضباب فضى كثيف ، أزاحت مراثى ستائره المنورة بضياء قمرى باهت ، لتجد مكيدة حب بانتظارها مكيدة كمنت فى ذقن الرجل الذى ستتزوجه فيما بعد . بقيت لبرهة تنفض من عينيها غبار أحلامها المتثائبة من نعاس البارحة ، لتهوم فى رحلة ستكون أسيرتها ، بدأتها من الذقن المعنون بثغرة عميقة فاتنة ستقبلها مرات عديد كتعويذة مبعدة للأرق .

بكرت ، دون أن تجرؤ على البوح بنظم قصيدة حب معذبة سيكلفها باقى حياتها .

جلست فى محاضرة درس القانون الدولى تتابع مأخوذة بالذقن الملغوم برصعة أغرتها . كانت تصغى ساهمة لأول محاضرة يلقيها شبح ضبابها . قبل أن تقفل كراسة محاضراتها ، دونت بأصابع أزهرت كلماتها براعم نبوءة ستحققها : إنه لى .

غدت أيام الكلية تأخذ منحنى آخر ، متلهفاً يتصبب شوقاً ، تعود بعدها مثقلة بصوته لتلقى رأسها المثقل بالهوى على وسادتها ، لتلتقط بعد أن تصحو أحلاها المتساقطة على الشراشف المترعة برائحة شعرها الطويل وتعيدها إلى عينيها ، خبات نفسها أول الأمر فى النوم ، تحصى عليها سبل هناتها ،

تترصد بفضول ملول شرودها الغريب ، لتقف أمامها ببسالة وعناد فى ظهيرة عودتها مع كراريسها فى منتصف الممر إلى غرفتهما : أراك عاشقة

أجفلت المفاجأة مراثى ، فألقت بوجه أختها نظرة زائغة محمومة ودخلت بهدوء واحة الاعتراف الضليلة :أنت على حق .

وعلى امتداد سعة عينيها وسوادهما كان هناك رجاء ممهور بدعوى للغوث .

كانت مراثى بحذر تتبع آثار الرجل . تجمع بقاياه كطير وحيد تلتقط بمناقير أصابعها ، عقب لفافة دخنها إلى منتصفها ، منديلاً ورقياً ما زال عابقاً بعطر ما بعد الحلاقة وبنقطة دم صغيرة ، تنشقته حتى جفت أنفاسه ، ليسعدها الحظ الجميل بأن تجد ورقة سقطت منه سهواً طوتها بعناية لكيلا تفسد بصماته . أطلعت سبل على كنزها المحفوظ بعناية فى علبة من القطيفة الحمراء الفاقعة ، بهتت سبل وهى تقلب بأصابعها الكنز الملفوف بالقطيفة قبل أن تنطلق بضحكة جلجلت حتى وصلت الطابق الأرضى سمعها مرتضى فصرخ : اخرسى يابنت الكلب .

واصلت ضحكتها بصوت مكتوم تتقطع كلمتها الوحيدة التى وجدتها ملائمة تماما : مخبلة .

لم تكن مراثى موجودة بالنسبة للأستاذ المغرمة به . كانت تحرص أن تقف أمامه ، إلا أنها كانت تحتفظ فى ذاكرتها بكل الخطوط المحفورة على وجهه ، وعدد شعرات شاربه ، وقياس كتفه العريض .. ، وطوله القاهر ، لكنه فى صباح دافئ ، وقد استلقت الشمس فيه على المقاعد فى الحديقة وقمم الأشجار وبلاط القاعة الدراسية الواسعة متسللة عبر النوافذ الزجاجية المتسخة : اكتشفها

وزع أوراق الامتحان لتحصل على أعلى درجة لديه ، أذهله أنه لم يسمع باسمها من قبل .

تقدمت إليه بعد أن ناداها ، نقلت خطواتها بصعوبة أدهشته حقا أن تحمل مخلوقة أرضية مثل هاتين العينين ، سجل فى دفتر ملاحظاته أمام أسمها : مفاجأة .

ثم وضع بلا شعور علامة استفهام عظيمة . فى المحاضرة التالية دخل مسرعاً . علقَ معطفه المطرى واستدار إلى طلبته يجول بعينيه فى الوجوه الصباحية الطازجة بصوت أبوى رائع حياهم : صباح الخير .

أرسل عينيه فى رحلة بحث عن تلك الشابة المفاجأة التى ستكمل أعوامها الجامعية برفقته . كان يبرر لنفسه فى كل مرة يبحث عنها أنه فقط يود أن يرى الاكتظاظ الهائل لسواد ساحر فى عينين لن يعاد خلقهما مرة أخرى ، سمع نداء مائهما خجلاً رقراقاً تتزلج فيه نظرات خجلى لا تخلو من مراوغة عذبة ودعوة أطارت صوابه . كانت مراثى قد بدأت تحتل دون أن تدرى قلب الاستاذ ، كما فعلت والدتها سابقاً ، وإنها انهيار لياليه تحت ثقل سواد عينيها ، فكان لا يشفع له كل التصبر الذى يبديه أمامها ، فكان فى غرفته يعض أصابعه مخافة أن ينطق باسمها ، يعذبه أن تكون طالبته وثمة سنوات تفصل بينهما بمقدار اثنى عشر ربيعاً وصيفاً ، فكان يخمن أن جمالها لابد أن سيضمن لها حبيباً لن يتورع عن الصلاة فى حضرة هدوء عينيها وشحت ابتساماتها ، كانت عيناه ترصدانها من بعيد تسير مهمومة ساهمة ووحيدة وأحياناً منقبة فى الأرض عن أشياء مبهمة لتعض شفتها مطلقة ضحكة انتصارها . لاحظ أنها برغم ازدهار وجهها وتألق البريق الأسود فى عينيها إلا أنها تذوي فحدس أنها عاشقة ولكنه لم يحدث بمن . وغرق فى عذاب صمته

وعدم جرأته على البوح . ولم يكن يعلم أن حبه يطوق دم مراثى المبتلى ، وأنها عندما جرحت إصبعها بسكين المطبخ فى ظهيرة جمعة وجدت اسم أستاذها يتسق دامياً على نصل السكين العريض ، فعرفت منذ تلك الظهيرة أنه أحتل كل مسارب دمها ، وأنها ستموت دون هواه ، فقالت لـ (سبل) .

لو أنهم فحصوا دمي سيجدون فئته باسم المهلب .

بعد أيام منهكة الترقب إشارت عليها سبل بمكر وحنكة نسائية متوارثة أمراً سيكون حاسماً . قالت لها بلا تردد: تغيبى !

- فماذا ؟

- قلت لك تغيبى

طالبت سبل بإصرار أن تعيرها الأخت العاشقة انتباهها : تغيبى لعدة أيام . يوم واحد لا يكفى لإثارة قلق رجل . يومان قادران على شهر سيف الأشواق . الثالث سيكون حاسماً ، إنه يوم القلق ، سيفتش عنك حتماً إن كان يفكر بك وإلا فعليك نسيانه .

فى المسيرة الصعبة لأيام الغياب الثلاثة ، قضتها مراثى فى بيت العائلة ، أكلت فيها صبرها المرير وأصابعها ، وأثارت غضب سبل وضجرها ، فقطعت سبل وعدا أكيداً بأنها ستربطها إلى السرير لتكف عن ملاحقتها والدوران خلفها فى زاوية البيت ، كيتيم لاح له طيف يشبه وجه أمه ، فقالت لها كأنما تكشف لـ (مراثى) أمراً منسياً : هيه مراثى ... تخيلى أنك أنت الأخت الكبرى فكفى عن ملاحقتى !

كانت مراثى لا تدري ماذا تفعل بالفراغ الهائل المحيط بها . فى تلك الفترة بالذات زرعت نبتتها الشهيرة المعمدة باسم تقويم غرامى اسم سيظل سرياً إلى النهاية . كان عرقاً رائعاً من بنات أزهار الياسمين العابقة بعطرها

الناعم فى أماسى الصيف وصباحات الشتاء ، طفقت مراثى تربط نموها بنمو حبها الجديد .

أثبتت تقويم غرامى جدارتها بعد برهة قصيرة ، فكانت أزهارها البيضاء الخاملة تفوح عبقة فى ليالى الصيف ، عندما لا تجد الفتيات ما يعملنه فى كسل الأماسى الطويلة ، تخنقهم زفرة السمك المتصاعدة ، من شخير النهر البنى غير التسكع بالحوش والوقوف عند سياج السطح ، كانت تسليهن بعطرها الناعم مانحة إياهن نشوة الأحلام المبددة للملل . ولما كان النوم يجفو مراثى ويظل أسم رجل ضبابها يضرب زجاج جمجمتها الكرستالى العاشق ، كانت تهبط إلى فردوس أسرارها ، وتظل تردد اسمه قرب الأغصان الرقيقة حتى تذبل الأوراق من حرارة أشواقها .

كان تقويم غرامى يكبر وبعد أن أشرقت خضرة الورقة السادسة والخمسين من أيام الحب الصعب قالت مراثى والدمع يتطاير من عينيها : الله . تقويم غرامى يكبر !

لم تسفر أيام الغياب الثلاثة المقطوعة بشق الأنفس تجلدها بسياط السأم ، إلا عن كارثة غير محسوبة . عادت إلى كليتها تلف بها دوامات أشواق عارمة ، تتعثر فى كل خطوة تخطوها . كانت عيناها تنبش كل قاعات الدرس والساحات بحثًا عنه دون جدوى . صدمها كما أفزعها أن عرفت أنه قد أجيز لمدة شهر كامل بناء على طلبه . وحسب توقعات وافتراضات طلبته : أنه شهر عسله !

فسقطت فى دوار الدمع والألم تعض شفتها فتدميها . فهى لم تتخيل أنه بعد أن أدرك بسبب غيابها المتعمد عمق لهفته لرؤيتها ومكابدات أشواقه تذل إرادته وتدفعه لأن يدور فى شوارع حيها متسقطاً أخبارها ، كان يعرف تمامًا أنه يترس هيبة أستاذيته ، وأن الاثنى عشر عامًا التى يكبرها بها ،

تتبعثر حطامًا وتضيع تجاربها لرفة رمش من عينيها . كان لا يمكنه سوى الهرب . فهو لم يكن يملك على وجه اليقين ما يعنيه هو لها . كل ما كان لديه هو حبه الفائق عن كل حد .

شهر طويل شهرت عليه أشواقه سكاكين ذبح مميتة تقطعت بها كل أوردة حياته . مع الليل كان يآتى زائراً شبابيكها غير عارف أنه بغيابه الاختيارى يغرق وسادتها بالسهاد ودموع الخيبة الأليمة ، وأن اسمه مهلب صادق الأيوبى كان أغنية مراثى التى تغنيها على وتر رطوبة دموعها ، فتذبل من حرارة أشواق أزهار الياسمين المبتلاة بهموم غرام مراثى .

شهر طويل أنهى فيه المهلب قضم شاربه وأكل لحم أصابعه . شهر حزين كان سيختتم أيامه تحصى فيه مراثى كل دقائقه ، تتخيل صوراً قاتلة توجع قلبها ، ترمم وجه عروسه ، تسندها إلى حنانه وتحسدها .

كان سيواسيها حقًا لو علمت بأنه يشكو عذابها منذ دهشة لقائه الأول بها وأنا فى مخيلته كحكم يستعجله الوصول ، يقضى الليالى وحيداً متنقلاً بين الأسيجة يتصيد بولع لا ينضب طيفها خلف الشبابيك الموصدة ، بانتظار رؤيتها الصباحية فوق مقاعد الخشب بالكاد يتمكن من الثبات أمامها ثانية ، فيفر بعيداً عن أدغال ليل عينيها ، متأملا عمق مأزقه بحى تلميذته ، منتظراً بصبر أن تنهى عامها الدراسى ليتحرر من عبودية أستاذيته . لم تفهم إلا بعد أن أصبحت زوجته بعد عام صعب وشهر أخرق وسبعة أيام مؤرقة ، على الوسادة الوحيدة التى ناما عليها ، تدس إصبعها فى الثغرة الوكر فى ذقنه العريض ، وهو يتلو اعترافاته اللذيذة ، متذكراً بحنو لهفته ، ناسياً آلامه فى متابعة ظلها خلف الستائر ، وصف لها حركاتها الليلية ، أخبرته وهى تضحك :

- تلك ظلال سبل لأنى لم أكن أقوى على مغادرة فراشى وترك أحلامى وحيدة !

فـى الغروب الأخير لشهر الفراق المرير ، سحبت خطاها إلى بيتها فى عودة خائبها وهالات الوجد تؤطر عينيها بفراق أزرق ، وجدته أمامها ، كان هناك تذهله لحظة لقاء غير متوقع فانتفض الدم فى صدغيه .

تدافعت خيوط الشمس آخر الشتاء متلملمة فى أفق رمادى . سحبها من يدها بالكاد تلمس كفها فانقادت إليه تحيط نظراتها بوجهه المتعب المعذب ترتجف فيه أشواق شهر وثلاثة أيام ، تلقى أنفاسها بعشرات الأسئلة ، قادها إلى بستان جدها الخلفى ، وقد بدأ بخار الغروب البرتقالى يدور بين النخيل فتدفأت به قبرات متأخرات تدثرن بريشهن المنفوش رحن يقرقرن لخشخة الحشائش تحت أقدامهما ، أحاط وجهها بكلتا يديه وبصمت من ضيع الكلمات ضمها إليه وهو يتشممها بعمق ، وقبل أن يغط المغيب فى عتمته الليلية كانت شفتاه تحزر على نحو أكيد كل بصمات شفتيها ، وبالصمت ذاته عرف أنه كان فى قلبها وأنها ستكون له ، كان قلبها يعدو . أخبرت سبل فيما بعد أنها قضت وقتاً ليس قصيراً تبحث عن قلبها فى بستان جدها ، وأنها عادت بعد أن وجدته هاجعاً بين أجنحة القبرات المتدفئات بريشهن المنفوش المقرقرات بهديل خافت .

- ليج وبعدين .. قولى اخبرينى .

كالمسرنمة أجابت : لاشىء .. أيقظتنى رائحة الشاى تذكرت أنى خلف البيت لكنى أظن انى لم أعد ، لقد تركتنى هناك فى بستان جدى الجميل ... سمعته يقول وأنا أبتعد .. أحبك ... لست واهمة ... سمعته بوضوح .. إنها الحقيقة !

رفضت مراثى الطعام لئلا يفسد آثار قبلتها ، حتى إنها لم تجرؤ على سكب الماء فوق شفتيها ، نبهتها سبل إلى أن عطر القبلة قد يتحول إلى عفونة .

سيلذ للمهلب العاشق أن يستعيد عينيها نصف المغمضتين عندما افتض شفيتها ليخبرها .

- أدركت أننى الأول ، لأنك قضمت شفتى ... يالك من جاهلة حبيبة .

لثلاثة أيام كان يستمتع بتورم شفته ، ويتابع بحسرة شفائها ، إلا أن مسلسل القبلات المسروقة خلف الستائر أو بين اغصان الشجر لم ينته، حتى أنه تجرأ على أكثر من ذلك فى إحدى الزيارات فى الخطوبة القصيرة التى لم تعمر حتى التاريخ المعلن لها لتختصر إلى شهر واحد . أغواه الدهليز وعتمة الليل والدفء الضاج من جسدها اللدن فتوسلته : لنؤجل هذا حتى العرس !

دخل عليها فى ليلة عرسهما ، كانت سبل قد ملأت إناء كبيراً بعشرات الياسمينات البيض من شجرة تقويم غرامى وأحكمت إغلاق النوافذ فعبقت الغرفة بعطر كثيف تنفس من أعماق النور الخافت المنار فى زاوية الغرفة . كانت أصابع المهلب ترتعش وهو ينضو عنها الثياب البيض بحفيفها العميق ، ركض شعرها الأسود على كتفيها وتهدل دونهما . وقفت مراثى بلا حراك خافظة العينين ترسل أنفاساً محتسبة وانية . بعد أن جردها من أخر قطعة ، وقف برهة قصيرة ناظراً إليها قال بصوت ضعيف تتسع حدقتا عينيه :

- هذا فوق احتمالى !

قبل أن تستوعب الزوجة الجديدة حقيقة ما نطق به سقط مغميًا عليه ! ظلت بكامل دهشة وأناقة عريها تنظر إليه . فكرت وهى لا تجرؤ على التقدم خطوة إليه .

- أهذا ما يتوجب عليه فعله !

استرجعت كل الوصايا التى حشرتها فضائل فى أذنيها ، ولم يكن بينهما نصيحة تتعلق بوضع كهذا ، ردد سراً كل ما حفظوها إياه :

لا تبدأى بخلع ثيابك ! لا تمدى يديك إليه ! أغمضى عينيك دائماً حاذرى أن تفتحيهما أبداً . أبداً

فكانت تنظر إلى جسده المطروح على السجادة القرمزية بعين نصف مفتوحة بلحظات ما قبل افتضاح الفجر هجست على نحو مفاجئ بوجه عامر يقفز إلى ذاكرتها . وجه زائغ النظر يائس الأمل ، استغربت أن يحضرها طيفه وهى فى غرفة عرسها . كان وجهه يلح فى وميض خاطف مرتجف كأنه واقع تحت بريق سماوى مقدر له الحدوث ، وعيناه الواسعتان تستغيثان بصوت يائس لا يسمع . لو كانت لديها القدرة كما لدى الوضاءة لعرفت أنه فى تلك الليلة بالذات تسلق إليها يحمله طير الشوق وفجيعة وشيكة ، بمحاولة مشلولة غير مجدية ستكلفه حياته ، لكنا أراد بكل ما اختزنه لها من حب ملكوم أن يراها ، وأن يقول لها مالم يقله من قبل ، وأن يعتذر عن جبنه . تسلق سور البيت حتى السطح . كانت سبل وقد أهاجت قلبها أصوات الزاغاريد قد صعدت إلى هناك ترمق قبر غرامها بالنخلة الوحيدة على منعطف الطريق ، حيث كان الرجل البائس الذى أحبت يقف هناك ، قبل أن تفتح خزانة ذكرياتها رأت عامر يلقى بنفسه على السطح .

- عامر ؟

- أه سبل دعينى أصل إليها . أريد أن أقول لها كم أحبها .

- وما الفائدة عامر . أنها بحوزة رجل آخر . سنوات انتظارها لك قد انقضت الآن . ابتعد لا أمل لك . يكفيها منك ما أصابها .

أرخى عامر يديه كأنه فقد الحيلة والوسيلة ، وبقى الكلام يحتبس فى صدره . عاد ينزل السور ترمقه سبل بنظرة متعاطفة . قبل أن تطأ قدماه

الأرض أحيط عامر بكدس من الرجال . ألقى القبض عليه فى اللحظة التى كانت فضائل تزغرد لرقعة الدم ، فتشرق بعينيها الدموع متمنية لو أنه عرس ابنها ، كان عامر بين يدى قدره يتسمع الزغاريد الموجعة فألقى نظرة أخيرة على غرفة بإضاءة خافتة أنبأه قلبه أن غرام العصافير سيدفن هناك وحدها الوضاءة البعيدة على شرفة غرفتها هجست وهى تحلم صاحية ، شبه واثقة من التفاصيل ، أن الطريق قد أنقطع بعامر ، فأرسلت مواساتها على نبض تلغراف قلبها إلى أختها فضائل التى مسحت دمعة فرت من عينيها لا تشبه فى سخونتها الأخريات فقالت فى سرها : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم مررت نظراتها عبر الباب الخارجى بحركة تلقائية كأنها بانتظار أحدما لكنها لن تحزر أبدا أنهم الأن توا قد أخذو منها ولدها إلى الأبد . وحدها سبل شهدت وقلبها ينخلع من الخوف ماجرى . عرفت أن عامر قد اقتلع للمرة الأخيرة من أسفلت الطريق . رأت كيف أنه لم يقاوم ، لم يهرب كأنه متعب من قدر أنهكه ، سمعته يصيح بصوت سيودعه للصمت : أخبريها أنها الوحيدة .

فشجت كلماته رأسها حين وقف قبالتها قبل لحظات : - أه سبل أخبريها أنى تقصدت أن أبعدها عنى ، لما قد أسببه لها من الم . لم أواجهها لأنى كنت سأضعف أمام عينيها . أخبريها كم أحبها . قبل أن يستدير يمضى بلا رجعه قال مؤكداً من لعنة اختياره .

امران اخترت بهما حتفى : حبها والحزب !

فى تلك الليلة تعلمت سبل أن تكتم سراً أن تعبر دون أن تصرح بالحقيقة المؤلمة . فما نفع الحقائق حين لا تأتى فى وقتها ؟ لم تطلع مراثى على لقائها بعامر ولا على كلماته الأخيرة التى ربما ستكون ضمادة شافية لندبة جرح عميق أو ثأر ممكن لجرح غرامها ، أيقنت بحكمة محبتها لأختها أن هذا

قد يقضى عليها ويبقيها فى عش غرام العصافير المنقرض بعيداً عن تقويم الياسمين المزدهر تواً ، والمختبئ لجماله وحسرات كوارثه العديدة .

فى يوم عودة الوضاح كرر الوليد فرحًا صيحته : - عاد الوضاح . ألغيت الحرب الدائرة منذ عشرات البيانات المفرقعة فرصة لقاء الوضاح بأخيه الوليد فكان يفتقد صحبته ويحن إليها . كان الجنديان يعودان دائماً بأوقات إجازات متقاطعة إلا فيما ندر من الفرص . كان يؤوبان إلى بيتهما بعد كل مرة يغيبان عنه ليجدا أنه غدا أكثر كهولة ، وأن البيت الكبير بأنين خشب ابوابه وتقشر طلائه يحتج على غياب رجاله عدا عباس يواصل وخز قلب فضائل وقد غدت شيخة غير قادرة على مجاراة ضغائنه ، فيحى جراح الزنجية الرحيمة وينقب عن شاراتها فى إيلام فضائل المتبقية من سلالة الـ رضوانى ، وقد ذهل هو نفسه من قسوته عندما نكأ أشد جراح فضائل وجعاً حين قال لها بتشف وصوت شيطانى مخيف .

- أن ابن الجراح لم يكن يأبه بك ، بل كان يحرث فى جسدك غيظاً من الوضاءة ! لقد أحبها هى ولم يشفع لك لونك الملائكى الشفاف .

أسقط فى يد فضائل وفغرت فاها ظل عاجراً عن الإجابة . بقيت طوال الليل تصر على سؤال وحيد وهى شبه متغيبة عن وعيها : لم .. لم ... لم يفعل هذا بى ؟ لم تفلح كل مواساة بنات مرتضى وبناتها فى إرضاء دموعها ، ولم يشفع الليل الطويل فى إخماد نار جرحها القديم المفتوح بعنف الذكر . نشغت وهى تكتم صرخة لوم متأخر : أنت السبب يا عبد الجليل .. تفو عليك !

شتمته كما لم تفعل فى حياتها ، كانت جريحة حتى أنها تمنت لنفسها الموت ، وظلت لما تبقى من حياتها قبل أن تصل آخر فجائعها ، تتجنب عباس ، برغم أنه حاول أن يأتى متعذراً عما بدر منه دون جدوى ، وبإصرار

انصرفت أكثر إلى صمتها مبتعدة إلى أصوات حزنها المشوبة بيأس متين من أخيها الأكبر مرتضى والذى كانت كثيرا ما تجد فى قلبها حنانًا زاخراً له ، فتعثر له دائما على أعذار تتعزى بها : إنه مسكين .. لا يستحق أن تعامله بهذا الشكل ، لقد دفع ما يتوجب عليها من دين للصفوان .. إنه لم يعد مرتضى الذى أعرفه وأنا أشفق عليه واحبه إنه فحل التوت المهيوب وإن كان بلا ثمر !

وكان مرتضى يعرض عليها كلما اشتد به الحنين إلى الماضى ، لأصوت الأخوة ووقار الملا وربابة صبيه المعلقة تحت غبار الزمن . إلا أنه لم يتشجع للخروج من قوقعة غرفته وحيطان خوفه وعجزه ، فصارت العوراء تعيب عليه علانية أنه لم يعد فحلاً يمنح الارتواء كما يجب فأخذ يلتف على نفسه أكثر ينفش أحيانا حين ينسى ريش خيلائه فيتبلل الريش ويهبط ملتصقًا بجلده كلما لمح خيال القادرية كما أنه كان يتجنب قدر استطاعته لقاء أولاده ، فيلقى تحية باردة أو يرد عليهم إجابة متكلفة ، فكانت سبل كلما صدم سمعها صوت مرتضى ، بصراخه تقول وهى تنفخ أوداجها : فحل التوت بالبستان هيبة والعوراء . تقول إنه فحل لا يعول عليه ، أدركت الأختان بوعى مبكر أن الخلل ليس فى الحب بقدر ما كان عليه الإحساس بمسؤولية هذا الحب فكانت توضحان للعمة المعترضة أن هناك ديونًا كثيرة يتوجب على مرتضى دفعها !

استفزت العمة فى دفاع لأخيها : وماذا عن البلورية ألا يتوجب عليها الدفع .. الا ..

رفعت مراثى يداً فى وجه عمتها مفتوحة الأصابع والاعتراض عمتى الموتى لا يدفعون !! انهم ميتون وحسب .

تحجر صوت فضائل وقد فاجأتها القسوة الكامنة فى ردود مراثى فسألت بصوت خفيض وعامر ؟

لم تتوقع مراثى أن تسمع عمتها تنطق باسمه أمامها ، وأن تسمح لها بتذكره علانية ، فغضت بصرها ، وأغلقت منافذ حسرة كمنت حرى فى صدرها ولم تند عنها إجابة ، لكنها وقبل أن تستولى عليها أحزان عامر شمت رائحة تقويم غرامى كأنما تدافع بها عن نفسها فأسدلت جدار الصمت ، ونفضت عن صدرها الذكريات . إلا أنها وجدت شفتيها مازالتا تستمعان بخدر لذيذ وهما تنطقان بهمس خفى باسمه : عامر .

كان الهاجس الأكبر الذى خيم على لقاء الوضاح والوليد هو غياب الجهم فى رحلته الخفية التى امتدت شهراً مفزع القلق ، يؤلمهما عجزهما عن مساعدته ، فلا إمكانية محتملة لمعرفة المكان المحتجز به ، إلا أن الوليد طمأن الوضاح قائلاً

لقد وعدنا الرجل خيراً .

- أى رجل تعنى ؟ تساءل الوضاح مستغرباً فأوضح الوليد مطمئناً إياه :

- رجل طيب ستعرفه . لقد زارنا مرات عدة حمل بعض الهدايا للوالد لقد ساعد سبل فى محنتها .. أعنى محنة حجزها .. إنه طيب .

- أتعنى أن سبل حجزت هى الأخرى ... ! متى ؟

- لا تستغرب أنا لم أعرف بالأمر إلا مصادفة وبسبب مرورى الطارئ فى مأمورية سريعة لكنه ساعدها فعلاً أخبرنى الوالد بذلك .. إنه طيب .

- أخى الوليد يرى الناس كلهم على شاكلة قلبه . أى طيبة يارجل .. إن الأرض مكورة على المصالح لا تكن ساذجاً .. بالطيبة لا تعبر ساتراً .. إن النوايا الطيبة قبور لأصحابها !

فى تلك الليلة بالذات تعرف الوضاح على نواف الضامن ، جهد فى حل رموز الشفرة العصية على الحل فى وجه الرجل ، ولم يتمكن مطلقاً من معرفة كنهه ، والأدهى أنه لم يستطع يومًا أن يحدد مشاعره تجاهه ، فظلت تتأرجح

ما بين الرفض والقبول . حمل الرجل بعض الهدايا وانتهز فرصة قصيرة لاحت له ، ليعيد علياأسماع سبل قصة حبه على سلسبيل صوته الدافئ .

لم يكن فاتناً أبداً . كان محير القسمات ، فبقدر ما لعينيه قسوة قاتل كانت شفتاه تحمل ابتسامة طفل يحبو بصوت بارع الدفء والعذوبة تجاهلت سبل كلماته دون إجابة ، لكنها لم تبخل عليه بنظرة أسرة ارتعش لها قلبه ، وانتفض مرتجفاً مثل عصور مبتل ، وطيلة الامسية ظل يحوم حول الربابة التى رفض الشيخ الأعمى أن يمنحه عطية لمسها قال بشكل قاطع .

بعد الملا هى معلقة كإرث فقط .

كان مرتضى يشعر بالخوف والرهبة من نواف الضامن بقدر ماكان يشعر نحوه بالامتنان .

فى تلك الليلة أغدق نواف الضامن الاهتمام على جندى الحرب القادم من رمال رصاصها الساخن . سامره كثيراً كأنه ضيف عنده ، تسمع لأخبار الجنود وحماقاتهم ، وتقفد عن بعد السواتر المحمية بأجساد رجالها مع انتصاف الليل أعلن نواف أن الوقت قد حان للمغادرة ، فوقف الوضاح قبالته وسأله مباشرة دون تلعثم أو موارية .

- متى سنرى الجهم ؟ سمعت إنك قد وعدت ..

- نعم .. نعم .. وعدت وسأفى ... لنقل قريباً جداً .

هدأت أوصال مرتضى بعد أن أطمأن لرحيل الرجل ، فقد قطع الليل وهو عاكف على خدمته يرتجف شاربه المبيض ، يذكر نفسه كل حين : لا خوف عليك مرتضى .. أنت قد وقعت منذ زمن ! كان يقنع نفسه دائماً بأنه الأن رجل لا غبار عليه .

ألتف الوضاح بعباءة الشيخ الأعمى وجلس قربه : جدو عباءتك لها رائحة رجل عجوز ضحك الشيخ ودفع يده باتجاه الصوت . بحث في وجه الفتى حتى وجد أذنه فقرصها .

أنت فتى الرضوانية .. أعرف هذا ياعفريت أشم فيك كل رائحة الماضى .

غالبًا ما كان الوضاح يقضى لياليه بقرب الشيخ يتسامران ، وقد يغفو مثل الأطفال على وقع حكايات الصوت الهرم ، يستشهد بـ الملا على صدق كلامه ، فيرفع صوته من عمق غرفة الديوان ، يضيف : أليس كذلك ؟ ألم يحصل الأمر هكذا يا ملا !

وكان الوضاح دائما يشعر بهبة من ريح لها عطر التبغ تمر عليه وهمهمة غريبة . فى تلك الليلة سألة الوضاح : أنت لم تتزوج أبداً جدى .. لم بربك ؟ مسح الشيخ وجهه المتجعد بكفيه المعروقتين ، وطيف ضعيف لا بتسامة محزونة زينت خربشات طيش عشرات السنوات التى يحملها .

- هيا جدى لا تخجل ليس بيننا غريب أو نساء .

لكن الشيخ مصدر صوت بعكازة الملا المطعمة بالفضة ، تجنب الوضاح طرف العصا وأمر أن يفتح صرة أسراره الرجولية : لا تفتح جرحًا ضمدته بعطابة السلوى قرابة نصف قرن أو أكثر ، يكفى أنى عشت دائماً لكم .. كنت للملا سابقاً ، وعدته إلا أفارقكم .. ،، كان الليل سادراً فى صمته المهيب الذى جفل على قرع خشن على الباب الكبير ، فى عودة غير متوقعة ، كانت كما قال الرجل ، قريبة جداً . فتح الوضاح ليجد الجهم أمامه أشد عبوسًا ومنعه من البوح ، نمت ذقنه وغارت وجنتاه وأدلهم لون البندق الناضج فى عينيه سأل بصوت كئيب دون أن يتيح للوضاح فرصة للتعبير عن فرحة اللقاء به .

- أين سبل ؟

هدأ الوضاح من روعه : - اطمئن أخى أنها نائمة . الكل بخير .. الوليد .

سارع الجهم إلى غرفة سبل كانت تلتف بشرشفها كقطة مسالمة . أنار الغرفة ، فأغتيلت عتمة النعاس حركها من كتفها غضنت جفنيها متجنبه الضوء اللاسع لعينيها بوغتت بوجوده . قفزت إليه ، طفرت إلى وجهه بهجة رؤياها وأنها بخير ، حدق فى وجهها بصلابة : أريد أن أسأل .

صمت ثمة وهى تنظر إليه متسائلة حنى الجهم رأسه . كانت أذناه محتمرتين لفرط انفعاله ، والتمع دهن جبنيه غير المغسول وقد التصقت به بعض خصلات شعره خرج الصوت من بين شفتيه مبحوحًا مضطرباً :

- أريد أن اسأل عن عذريتك !؟

- بخير .. أنا وهى .. بخير .

ولاح على شفتيها خجل ابتسامة فأرخت رأسها .. أنتظر الجهم برهة قبل أن ينصرف . لم يكن يعرف أنها بعد أسابيع لا بأس بها ستمنح راضية بكارتها لنواف الضامن وهى واقعة تحت تأثير مشاعر متضاربة لم يكن الإكراه بينها ، وأنها بدافع الفضول لمعرفة حكمة الجسد وقليل من الامتنان لرجل الخلاص من عذاب محتم وبعض اليأس من أنها لن تتزوج برجل ما ترن فى رأسها أجراس كلمات الرجل البائس الذى أحبته :

- يقال إن لكم انتماء سياسيا مختلفاً! أتدرين ؟ قد يدفع المرء مستقبله ثمناً لارتباطه بكم !! أنت ورطة لأى رجل طموح !

مضاف إلى كل ذلك الاعتياد على ملمس أصابعه على جسدها وعلى سماع قصائده وترنيماته وتنهداته الحارة ، وإيمانها بصدق محبته ، وإنه كما كان يقول بعد أن صارت زيارته تشتد يسترسل بساعات طويلة مختلسة فى الليل والنهار .

- لو بالامكان أن ترى بأم العين مسرى دمى لوجدت محبتك متفرعة فى كل قطرة .

كما أنه بحجة دامغة أقنعها وأقنع مرتضى بأن زواجه العلنى منها مستحيل ، بل إنه سيكون مدمراً للجميع .

- امنحونى فرصة مساعدتكم وتعويضكم .

كان يضع رأسه على ركبتيها ، يسفح دمع أشواقه فتبلل حباته اللامعة جلدها الوردى فتزدهر شجرة تعويض ماكرة لعبت لعبتها بحنكة ساحقة ، كانت تلك الدموع كثأر بليد لدموعها من الرجل الآخر ، ونواف الضامن يغرقها بأحلام مورقة يسيجها بلستحالة حدوثها ، فكان يقول قاطعًا كل حين كلماته بتنهدات باكية .

- أحلم أن أقيم لك عرساً عظيمًا . تخيلى كم ستكونين جميلة بفستان أبيض طويل ، لن يكون هناك حد لجمال تلك الليلة .

كانت سبل برغم إصدارها قرارات مشددة ضد الأحلام ، ومنعها القاسى لعينيها مهددة إياها بعقوبة الفقء ، إلا أنها مع ذلك كانت تحلم معه ، وتصدق كل ما يحلم هو به ، بينما ثابر هو بصبر مروض نمور طويل البال على ترويض نمرة الحظ الليلى العاثر المستمر بطريقة أخاذة مستبدة ، كان يدربها بتأنٍ على تنفيذ ما يريد لتكون كما يحلم هو بها ... إلا أن سبل فقست كل بيوض الأحلام وأسقطتها على رأسه الضخم بعد سنوات كأنه يزورها يومياً منشداً كل يوم قصيدة غرام جديدة ، ولكنه سقط فى الامتحان الرجولى حين حملت منه سبل . كان خوفها من الحمل يشبه الفرح إلى حد بعيد ، فتمد يدها إلى بطنها وتحسب فى نفسها مقدار المفاجأة المبهجة التى تنتظر نواف الضامن وتترك حيزاً أخر للخوف .

- ياه إنه خبر مذهل .

شهر نواف وجهًا مأخوذاً بالخبر

هل أنت سعيد حقا ؟

وكانت يدها فوق بطنها ، لم يكن عندها شك بسعادته : أنا الآن مجنون بفرحي ، لكني مع هذا أخاف عليك . تخيلى ماذا يمكن أن يحصل لو عرفوا !!

أشار بيده إلى جهة مجهولة ، سمعت سبل مرتضى يتنحنح وفضائل تجمع الغسيل ، وهى تطرد حمامات تغلب الجالسات فوق عش قريب من حبال الغسيل يقرقرن بهدوء .

- أنا أخاف عليك . أنت حياتي .. قد أفقدك .

تلوى وهو يقول : قد يشاركنى حبك ! كانت سبل تنتظر الإجابة على سؤال واحد ليفتح أو يغلق فوهة سلة مليئة بالأسئلة .

عليك أن تجهضى !

قام بكل الترتيبات اللازمة ... عندما دخلت سبل إلى البيت دون ماكان فى أحشائها خلعت حذاءها من قدمها اليسرى قبل أن تستلقى على السرير ، ولطمته به على وجهه .

ذهل نواف لكنه لم يستنكر ، وأطاعها وهى تشير بأصبعها إلى الخارج .

فوجئت به مراثى بعد ثلاث ساعات عندما جاءت لتطمئن على أختها ، واقفاً قرب الباب وفى يده فردة حذاء وحيدة .

- ماذا تفعل هنا ؟

- أريد أن أعيد هذا الحذاء إنه يخص سبل تسولت عيناه نظرة استعطاف ، مد رقبته إلى داخل الغرفة لكنه لم يجرؤ على الدخول .

تحت النور الخافت اكتشفت مراثى أن جفنى اختها متورمان فخمنت أنها كانت تبكى ، إلا أنها لم تسأل عن السبب .

لم يتمكن أحد عدا - القادرية والعوراء - من تحديد مشاعره نحو الرجل . محبة أو كرها أو رفضًا أو قبولاً . وجاء يوم حملت به القادرية ولدها الكبير ثائر بوجهه المحبوس فى صفرة مكبوته وبعينين جدا خلابتين ، قالت بصوت عريض يشبه إلى حد كبير صوت السلطانة التى اكتشفت فى لحظة شحنت بامتنان أبدى . سر عصفورتى ليل المطر القديم الداخلتين إلى سجن النساء ، أنهما ابنتا مرتضى وأن ال صفوان المعلق على عمود الكهرباء تنقص قدمه أظفر مفقود هو عمهما حنت لها رأساً ممتنة لأنهما حفظتا سرها ولم تبوحا بتفاصيل تاريخها المشوق ، قالت لهما ورعشة دمع تخفق مع كلماتها .

- ليس غريبًا على هذا الدم أن يكون راقيًا كسلالته . كما أنها وإكراماً لنبل سكوتها احتفظت لنفسها بسر عميرة الباشا التى لم يسمع بذكر اسمها فى البيت الكبير منذ سنوات . وصارت القادرية تتجنب الفتاتين واختارت لنفسها عزلة طيبة بعد أن هرمت ، ولم يعد سهلا على السلطانة أن تعثر لها على رجل ينفذ لها رغائبها الشهرية ، فكفت عن زيارتها وتحصنت بعفة متأخرة .

قدمت ولدها يسبقها صوتها : أنه لك اريد أن تجعله من رجالك علنا نمسح عن جبين هذه الأسرة مالحقها من دمار .. أو نزيل عنها بعض أدران الماضى !

وكذلك فعلت العوراء سوى أنها لم تنطق بغير كلمتين ، رمشت عينها الوحيدة قائلة : - وأنا ايضاً .

ودفعت سجاد ولدها البكر الذى سيكشف عن دهاء مكين كفل له إمكانية التبارى والوصول السريع إلى مكانة لا بأس بها ، فبعد سنوات قليل

سيكلف بمهمات تعنى باستباب الأمن ومطاردة محطمى عصا الطاعة على الدولة .

لم تحمل السنوات الثمانين إلا المتاهة . كانت الغرف المتراصة فى البيت الكبير ، موصدة بخوف على سؤال حائر ، أثاره دخول نواف الضامن فى حياة زوجية سرية ارتبط بها مع سبل كان له أثر مربك فالعداء المتوجس بينه وبين المهلب كان قد شق خندقاً فى حقل المحبة بين الأختين كان المهلب يرى فى نواف الضامن رجلاً مستغلاً للظروف ، مع أنه لم ينكر معترفاً فى أكثر من مناسبة بأنه : ذكى ومناور حاذق !

مؤكد أن نواف الضامن قادر على أن يصفعك بيد ويضمدك بحنو لا يبارى باليد الأخرى ! شهدت تلك السنوات العديدة من نوبات الغضب الهستيرى غير المسيطر عليه الذى عرف طريقه إلى سبل كانت علاقتها الملتبسة مع نواف الضامن تؤطرها قصائده الليلية بصوته البارع على مسامعها ، وأحلامه الواسعة الملتحفة بغطاء السرية والكتمان مع شعورها المستمر بأنهم بحاجة إلى وجوده ليضمن شيئاً من الأمن المفقود للعائلة كل هذا يتضارب تمامًا مع انهزام علاقتها بأختها والمهلب زوجها والحذر المشوب بالنفور من جانب الجهم لأنه طعن فى الصميم بزواج سبل السرى من نواف الضامن كما أن فضائل لمت بناتها فى غرفتها ، وأصدرت أوامرها المشددة بتقليص الالتقاء مع أبناء مرتضى ملقبة اياهم بالقاب جهنمية لم تصلهم - المرتدون أو ال... حتى استقرت أخيراً على تطلق عليهم لقباً مدويًا كانت سمعته يوماً من عبد الجليل وجدته لائقاً بهم ، فكانت تسأل بنتها فى الغرفة الموصدة بإحكام : ما أخبار النفعيين !

تهمس بالكلمات همسًا كأنها تربض فى خندق قريب من خط الأعداء ، فتضحك هانيا منها وتجيبها بطريقة مسرحية فخمة - سنصدر لاحقًا تقريراً

بتحركات الطرف المعادى ! فترمقها فضائل بعينين يتطاير منها الشرر - حاذرى أن ألمحك معهم ! مع أنها لم تستطع أن تمنع نفسها فى ليلة اعتصر قلبها هم كبير من التماس رحمة نواف الضامن فى معرفة مصير ابنها . وقفت أمامه محنية الرأس تفرك كفيها المعروقتين ، ينز من صوتها ألم قلب مطحون بالفراق المرير لوحيدها : لو أنى فقط أعرف ما هو مصيره ؟ سأكون ممتنة .

هز نواف الضامن رأسه ولم يتكلم وظلت تبرز لنفسها أمام بناتها فى الغرفة الموصدة : كان لأهلنا مثل قديم لو كان لك حاجة عند الكلب فلك أن تسميه أيها الكلب المبجل !!

لكنها لم تحصل على إجابة ، كانت ترمق نواف الضامن بنظرات استفسار صامت لشهور طويلة متتالية كفت بعدها عن توقع إجابة ما فاعتصمت بفكرة أطلقتها بصوت مرتفع وهى تحصن قلبها بالصبر - حسنا لقد منحنا الكلب الفرصة أن يكون شيئاً أخر !

وفى إعلان صريح اتفق مرتضى والقادرية تباركهما العوراء فى أن نواف الضامن : رجل فذ كانوا يقضون أوقاتاً طويلة قريباً من سبل يحصون محاسن الرجل وهمته ، وجلال حضوره ، وكيف أن المداهمات الليلية قد اختفت منذ وطأ بقدمه المباركة عتبة البيت كان الشيخ الضرير يتسمع لهم وهو جالس على كرسية وقد ازداد شيخوخة وسكوناً ، فكان يركن إلى الصمت أياماً عديدة ، فلا يسمع له أحد صوت ، وقد يترك منسيا على كرسيه الخيزران فيقضى ليلته بلا غطاء ولا شكوى فيتدثر بعباءة عبد الرحمن الحائل لونها والمثقبة فى أكثر من مكان وكان حين يهجس بخطوات سبل يمد اليها يداً سرعان ما تلتقطها فيروح يتفحص قسمات وجهها واضعة رأسها على ركبته مربتاً على شعرها ثم يمضى إلى الدهليز فى خطوات حذرة تسبقها طرقات عصاه المفرقعة على بلاط الممر ، فيسمع فى طريقه صوت مرتضى كما اعتاد أن يفعل

مطمئناً القادرية وصديقتها الأزلية : أنه رجل طيب .. نواف طيب أما سبل فإنها عصبية .. أنني أعرفها ! وأحيانا يرفع صوته كأنه يقصد أن يسمعه أحد معين ، ثم يعود فوراً إلى قوقعة خوفه مطمئنًا كأنه أنجز ما عليه إنجازه على خير وجه .

لم تمنح الحرب فرصة للوليد والوضاح لإبداء موقف ما كان الوليد قانعاً بأنه زوج الاخت ويؤجل الوضاح فى كل مرة موقفه إلى إجازة أخرى ففى كل مرة كان يصطدم فى نفسه بإشارة مضيئة يحسبها كإعلان دعائى تومض بلا انقطاع .

- لا أدرى ... لا أدرى !

فكان أحيانا يستسلم إلى مداعبة الرجل ويستريح له ، وينتفض فى لحظات أخرى فيرفض سرية وجوده . لكنه لم يبح أو يفصح .

فى المرة الوحيدة التى التقى فيها الشيخ الأعمى بنواف الضامن كانت أثناء انصراف الشيخ إلى دهليز موتاه لحظة دلف نواف الضامن. رفع وجهًا أعزل بعينين مطفأتين . وقال بصوت متمهل .

- أنت الوحيد المستفيد من كل هذا !

هز نواف رأسه - مخرف عفن !

سمعه عباس فرفع صوته مؤيداً - لم أعرفه إلا مخرفاً .. كنا سنطرده لولا أنه عجوز جداً حتى على التسول ! .

وكانت الطقطقات لعصا الملا الموروثة ليد الشيخ لم تنقطع عن ضرب البلاط العتيق .

قال بيان الحرب الطويلة وهو ينز عبر المذياع . امتثلوا راكضين بأسرع ما يمكن لتستعيد التراب الموعود بالعودة المظفرة ! سيكتشف بعد ملايين البيانات أن التراب الموعود كان غير ذى نفع وكان يجب أن يترك فى مكانه .

للم الجهم حوائجه هو الآخر ، وارتدى ثيابه العسكرية وانطلق إلى طوابير الالتحاق وقفت هانيا على سياج السور الخشب الداخلى تودعه بعينين تحمل أسفاً شديداً لأن كلاماً كثيراً كان يمكن أن يقال لولا أن فضائل حاضرة هفهفت سعفات النخلتين بتحية حانية ولبد فأر يصغى إلى كلمات الوداع المؤثرة وصوت العمة فضائل تتلو بخوف وخشوع آيات قرآنية مناشدة الرب فى سلامة ولدها وأبناء الرضوانية التفت الجهم إلى مراثى قائلاً .

- أنقلى سلامى إلى المهلب .

رفع رأسه إلى هانياً فى الطابق العلوى كانت سبل تقف إلى جانبها فطيرتا إليه فراشات قبلات هوائية أنعشت فى قلبه أملاً واسعًا وابتسمت هانيا بضمير ملئ بالتأرجح مابين الوقوع بين مخالب الحب أو مصيدة النسيان كان الجهم قادراً على تحريك مشاعرها بينما تتابع فضائل بتلويح عصا المخاوف فى وجهها كما أنها كانت تؤمل أن تتزوج برجل يمنحها أمناً مفقوداً فى بيت الرضوانية الحافل بالزوابع بعد سنوات من هذا الوداع ستفض هانيا بكارتها بسبابتها غضبًا عصيانًا ويأساً رقدت على ظهرها تباعد مابين ساقيها وهى تستعرض الأصبع المغمس بالدم تشهره بوجه فضائل الذاهلة عادت من آخر مغامرة عاطفية خاسرة برغم كل جمالها وعفتها أعلنت بوجه فضائل الشائخ العاجز .

- ليس هناك رجل على هذه الأرض يستحق غشائى إنه لك خذيه !

بكت بلوم وبقهر وحرقة وهى تتمتم :

- لسنا ألا تهمة سياسية لاشئ سينقذنا .. لا شئ سينقذنا البته حتى لو وقع مرتضى تحت اسمه للمرة الألف .

وانخرطت فى عواء يائس فقد تجعدت وإلى الأبد فى ذلك النهار البهى المشتعل بفوضى اخضرار الربيع كل أحلامها وقفت أمام الرجل الذى أحبته

وأثار فرحة لقائه ما تزال صامدة في وجهها مع أنها سمعته بوضوح حين قال لها

- لم أحصل على موافقة !

كانت تبتسم فارتعشت شفتاها وهى تسأله

- ماذا تعنى ؟

طأطأ الرجل رأسه هازاً إياه بأسف

- أقول أن الموافقة لم ..

تحير في اختيار الكلمات رفع غطأ الرأس العسكرى فأخذت تعد النجمات الذهبية على كتفيه وتعلقها في سماء قلبها وهى تردد بغباء

- لم نحصل .. لم نحصل

- كان يمكن أن أخفى الأمر عليك .. لكنى أحبك ... و

بدأت ملامحها تغيب كزورق في عباب بحر ليلى كامد الظلمة قالت وكأنها تذكرت شيئا

- نعم تحبنى أنت قلت أنك تحبنى .

ارتجت النظرة في عينيها وتراقص داخل جفنيها دمع وشيك التهاطل ضم كفيها بكلتا يديه .

أقسم لك أنى أحبك ولكن ماذا أفعل الأمر فوق طاقتى لن نتمكن من الزواج دون الموافقة الرسمية .

- ولكنك رجل .. وأنت ضابط .. ألم تعدنى بالحماية

- إنهم يقولون ... إنكم ... أعنى العائلة ... ليست ... أعنى مشكوك في ولائها .. افتهمين ؟ .. أخوك .. عمك ... ليس العيب !

دارت حوله وكان يستدير معها تهمهم بغباء .

- موافقة لن تستطيع .

نظرت فى وجهه كأنها لا تعرفه زأرت فيه

- ابتعد

لم تنتظر أن يبتعد فنقلت خطاها متراجعة تشخص ببصرها نحوه تعود القهقرى وهى تردد بصوت خفيف .

- هانيا الطيبة .. هانيا المطيعة .. أنا الجميلة .. !

كاد أن يلحق بها .. أراد بكل وجدانه أن يخفف عنها إلا أن إعصاراً عاصفاً فى وجهها أرعبه فناداها هامسًا باسمها وكان هو الأخر لا يدرى ما يمكن فعله ، فاعتصم لحظة خوفه ، وتركها لعصيان قدرها ، وتابع بعينين متوجعتين المبتعدة تلوح بيدها إلى أشباح تراها وحدها. فى صبيحة اليوم التالى ، كان نيسان يلعب فى حوش الدار لعبته الخضراء القصيرة مشبعًا الانغماس بأريج القداح ، وُجدت قضائل كتمثال برونزى نبت فجأة فى الحديقة جمعت فى الفجر كل أوراقها ورسائل الوضاءة المنفية باختيارها على شرفات الثلج وشهادات ميلاد ابنها وبناتها الخمس ، لمت ثيابها وصورة زفافها ولم تنس وجه الوضاءة الوحيد فى صورتها المتروكة بعد سفرها وضعت كل كنوزها فى حجرها وأشعلت النار بها . بيأس كامل كانت تراقب حجرها العامر بالنار والذكريات وهو يشتعل تشم رائحة شواء جسدها مشدوهة الإحساس تسلقت ثمار النار إضمامة الشعر البيضاء الكبيرة على رأسها دون أن تترك مكانها ولم تسمح لصوتها أن ينطلق . جلست بصبرها المروض بسنوات الالم تشهد خسارتها النهائية بعد أن تحطمت صور أحلامها . وجدت متربعة على البلاط تفتح عينيها وقد جفت نظراتها . ظلت سحابة دخان زيتى من أثر حريق جسد فضائل معلقة لسبعة أيام متوالية بحداد مستمر فوق سطح الدار تنفض سخامها الأسود فوق النخلتين معلقة خيمة حزنها على مشارف نهاية السعف

المديد ، سحابة سوداء تتأرجح بريح خفيفة يصدر عنها صوت يشبه الأنين . تذكرتها مراثى فى آخر أيام حرب التسعينات من هذا القرن ، عندما غطت البلاد غيوم سحاب ثقيل أسود لزج رقد فوق الأسيجة وسقط ببقع لا تزول على الثياب المنشورة على حبال الغسيل أشيع وقتها أنها سحابة القتلى المحروقين على امتداد البرارى القصية حيث لم تتمكن خيول المطر بكل سنابكها التى دكت البيوت والارصفة والشوارع والرمال أن تغسل الأثر المتبقى من الأجساد المحترقة بقنابل تسعينات القرن .

جنت هانيا كانت تدور بالبيت بجلد ذهبى حروق لم يفهم أحد كيف تحولت حروق فضائل إلى جسدها تقطع المماشى شبه عارية ينز جلدها بالتماع حروق غريبة تبحث عن فضائل شاردة الفكر تصحو من ذهولها أحيانا لتقول كأنها تتذكر فجأة : يجب أن نحصل على الموافقة !

ثم تنادى على أمها كطفلة صغيرة بصوت باهر الرقة والعذوبة

- ماما ... ماما .. أين أنت ؟

كان الجهم يقضى أيام إجازته متابعًا جنونها بشفقة محبة حزينة يمشط شعرها الفاقد بريقه يمسد بزيت الجوز على كتفيها ويديها فترسل إليه نظرات كأنها تستعيد بها أمرا حنونًا لا تستطيع امساكه فتسأله وهى تمرر أصابعها على وجهه :

من أنت ؟

طرأت على ذهنه فكرة نفذها فوراً فأحضر ورقة مطوية بعناية وقدمها لهانيا وهى تراقبه بجدية فائقة قال لها .

- إنها الموافقة ، دعينا نتزوج !

جذبت الورقة من بين يديه فتحتها بلهفة ثم ركضت إلى المكان الأخير لتماثل فضائل البرونزى وقالت .

- أخيراً .. انظرى ماما .. لقد جاءت !

فتحت الورقة ، وصارت توشوش البقعة الأخيرة من زيت تمثال فضائل ، يتطافر من عينيها ينبوعان من دمع حزين وأخر مبتهج .

- حصلنا على الموافقة ماما . . إنها هنا .

جلست كتمثال يتيم فى ميدان أثرى في المكان الذى يبست فيه النار جسد فضائل . كانت هادئة تضع فى حجرها الورقة وبقيت حتى المساء فى وضعها ذاك ، تهوم مرتعشة على وجهها ابتسامة باهتة ، تحيط بها أخواتها الاربع المتبقيات لأحزان العوانس الجافة ، لا يجرؤن على احتضان باقات ورد وأكاليل حب مرتجل ، فيذبلن واحدة تلو الأخرى تحت شمس انتظار حذر لا ينضب يتقد على وجههن خوف سؤال قاس : ماذا سنفعل ؟؟ متذكرات بصمتهن أنه قبل أيام من امتثال فضائل لنداء قدرها ، جلست تخيط قمصانًا سبق أن خاطتها مراراً بحنانها العصى على الكتمان مرددة حوارا رخيمًا ، مستوحية فيه من لهفتها والدها عامر ، كانت تعاتبه وهى تضع الأزرار متسائلة إن كانت كتفاه قد ازدادتا متانة . حملت العوراء صينية غداء ولدها سجاد فى طقس مواساة إلى غرفة العمة المنكفية على أحزانها . انهمك سجاد بابتلاع طعامه على عجل متبجحاً أنه فى عمله الجديد ، وبإرشادات نواف الضامن سيحصل على ترقية سريعة ، فقد أنجز ما كلف به ببراعة شاءت لها ضربات الحظ أن تخدمه . كانت أمه تبتسم بوجه فاز بالظفر بينما دأبت زخات الخوف تلاعب قلب فضائل قالت العوراء يافتخار شديد .

- فاز ولدى .

انتكست الإبرة الرفيعة بين أصابع فضائل وهى تنصت إلى عويل مشؤوم يمطرها بشكوك لاريب فيها . انتعشت فى عينى سجاد نظرة صياد يعرف مكان الفريسة وهو يشعر أنه احتل كل هذا الاهتمام والإنصات .

- الأمر لم يكن واضحًا . بلغنا على عجل . قيل لنا انتشروا على تقاطعات الطرق الرئيسية وابحثوا عن شخصين غريبين المظهر لم أفقه ماذا يعنى غريبى المنظر إلا أنهم قالوا :

- ستعرفون .

كانت الإبرة مازالت فى ثقب الزر وتوقف بؤبؤا فضائل فى مسار واحد محدقة فى وجه سجاد .

- أهناك أسماء

- لا أسماء فقط العلامة المبهمة غريبى المنظر ! كنت أظن أنى واقع فى لغز فكيف نلقى القبض على شخص بلا اسم أو لا ملامح فقط استدلال صغير غريبى المنظر

دس فى جوفه ملعقة أخرى وأضاف .

- إنه الخادم المخلص الحظ وحده الذى وضعهما أمامى عرفت حل اللغز لا يمكن أن يوصف إلا شخص له هيئتهما بأنه غريب المنظر سألته أمه متلهفة

- كبير السن ؟

- ليس تمامًا ربما بعمر الجهم لكنهما ماذا أقول لم أر فى حياتى ما يماثلهما . كان يرتديان أسمالا لا لون لها واستطال شعر ذقنيهما حتى البطن ممتزجاً بشعر رأسيهما واعوجت من استطالتها أظافر يديهما حفاة التصق جلدهم بالعظم حتى يظن المرء أنهما خرجا تواً من قبر ما ، بادئ الامر ظننت أنهما من النساك لكنى حين سألتهما لم ينطقا كان فى وجه أحدهما ذعر شديد أما الاخر .. سهم سجاد متطلعاً فى الجدار قبالته تعلق عليه صورة مبتسمة لعامر قبل أن يكمل :

- الآخر لم يظهر من وجهه إلا عينان واسعتان عسليتان أرعبنى حتى الموت عندما مد يده إلى لقد حاول لمس وجهى كان ينظر إلى وكأنه يعرفنى

وكأنه يحاول أن يتذكر بى وجها يعرفه شعرت وكأنى رأيته فى مكان ما . كان يلم التراب ويلمس بأطراف أصابعه العشب النامى على طرف الطريق حتى أنه اجال النظر فى السماء كأنه يراها للمرة أولى أو ربما لاخر مرة أشعر وكأنى رأيت هذا الرجل في مكان ما فز من ما لا اذكره ربما يشبه احد اعرفه .

رفع سجاد كأس الماء ليشرب حتى استقرت عيناه على صورة عامر يبتسم فيها بقدر يجهله جمد الماء فى حلقه لحظتها أدركت فضائل أن قدرها بصلفه المتعالى ما زال يحتفظ بوجيعة ما أمسكت قلبها واستغاثت بولدها

- يمة عامر اسم الله عليك .
- عمتى .. إنه نظر إلى كمن يود أن يقول شيئاً !
- من هو ألم تعرفه ؟

بإعجاب سألته أمه ثم اردفت وهى تهز ساق فضائل المطوية تحتها .

- أرأيت ماذا فعل ابنى ... ماذا عرفت عنهما ؟
- لم أعرف سوى أنهما فرا من مكان لا يفترض أن يفر منه أحد ما .

وأعاد النظر مجددا فى صورة عامر وكان أخيراً قد بدأ يعرف من تشبه هاتان العينان المعلقتان فى إطارهما الذهبى مسح فمه بقطعة خبز حين كانت اصابع فضائل ما تزال متخشبة ممسكة بالإبرة وسط ثقب الزر همست وهى شبه ذاهلة .

- ليس من ضلع الرضوانية من يبعد الأبناء عن أحضان الأمهات !

على نحو مفاجئ بهتت ذاكرة فضائل فكانت فى لحظات موت خلايا حياتها الذهنية تقف ساهمة ترسل نظرات فارغة تائهة تطلع من وجه خلا من كل تعبير . تقف ثابتة لبرهة لتفيض عليها السنوات بدفقات تهز أعطافها فتتذكر بحنان خلال وجه عبد الجليل الأسمر وقبلات المساء تحت الكلة الصيفية تمسد شاربيه حالمة أن كل هذه الاشواق هى لها لذاتها وليس للوضاءة فتبتسم

وتشير بإصبعها إلى أماكن وهمية وبصوت منتش بالغبطة والأمان تقول .
-أنهم يعودون !

كان البيت مكتضًا بالأموات واضطراب تنهداتهم حتى أن الجد ظهر علانية في مغيب ريان بألوانه النحاسية المتساقطة على أوراق الاشجار والأبواب الخشبية الخربة ، تلمس الشيخ الأعمى دفء جمرات أركيلة الملا كان الشيخ مبتهجًا مستفزاً حتى الطرب فسمع كل سكان البيت بدهشة عميقة أوتار غزالته المهجورة تصدح كانت فضائل تحمل فى يدها أعواد البخور وتطوف فى الغرفة سابحة فى خيالاتها الحميمة فى اللحظة التى دخلت فيها غرفتها ندت عنها أهه عميقة .

- آ .. أنت هنا ؟

لم يفهم أحد إلا بعد حين أنها تعنى حبها العاثر والوحيد عبد الجليل راقداً على فراشه كما كان يفعل عادة كلما حرضته رغبته بالحنين إليها فى الليلة الأخيرة فى حياتها وقفت فضائل إزاء ابنتها ترقب فجيعة أحلامها مقاسية من أوجاع تاريخ طويل ضمخها بأساه الصعب لكنها اعتصمت بالصمت الصعب يفضح وجهها بما لا يقال ألقت نظرة متحسرة على قميص عامر الملقى قرب السرير ماتزال الإبرة لامعة فى ثقب الزر الوردى وتراجعت عنه دون أن تنبس بحرف .

تغض وجه مرتضى وهو يودع فضائل وحجب عن نفسه المرور قرب بقعة حريقها كان ألم ممض يحز فى قلبه وهو يجيل النظر فى غرفة الحب الحلوة المتمرمرة والأشد حنانًا فى عنقود ذكورة الملا فى صبيحة دفنها وصلت برقية مستعجلة من الوضاءة : اغسلوها بماء الورد !

لم تبق فضائل بعد حريقها إلا بنات جافلات لا يتقن حتى الدمع على مضض تذكر مرتضى وجهها الشفاف وشفتيها الرقيقتين . وحبها العنيد

المتصبر لعبد الجليل صديقه الأسمر القديم جلس في الغرفة وحيداً ينصت لصوتها الغائب ، حلم تلك الليلة بالملا ملتفا بعباءته السوداء يقود فضائل وقد استعادت صباها أخيراً في كنف أبيها تفوح منها رائحة الآس التي كانت تدعك به جسدها أطال الملا التحديق في وجه ابنه مرتضى فسمعه بوضوح إلى متى يا مرتضى ؟ ففتح عينيه مذعورا متسائلاً هو الآخر إلى متى ؟

كان الفجر وشيك الإطلال فخفقت قبرات مسرعات بين النخلتين فوجئ بالأعمى جالساً قبالته على كرسي الملا قال له قبل أن يمضي .

- إنه سؤال تأخر عن زمنه لم يعد مجدياً أن تجيب .

وخرج متكأ على عصاه توهج الحزن حتى صار حارقاً بعد فضائل كأعمى عكازته كان أهل البيت يتلمسون همومهم ويتبعون رائحتها ازداد رعب بنات فضائل المخلوعات عنوة عن ثلاثة أعمدة اساسية الأخ الأب ثم الأم فكن لا يجرؤن حتى على البكاء علانية . يجلسن قرب شباك غرفة فضائل يراقبن بجزع بقعة الزيت المحروق المتبقي من جسدها تغسله حبات مطر ناعمة تدور بينهما هانيا بجبروت جمالها المهزوم يعلو جلدها حريق نحاسي أعلن عن نفسه صبيحة اشتعال والدتها كان الشيخ يزحف اليهن غير قادر على ملامسة مواقع المهن يقص عليهن أخباراً لا يصغين لها فقد كان الحزن أكبر مما يحتمل، زاته الحرب الواقعة . المرسومة خارطتها بواقع البيانات الصاخبة إلى واقع أعنف حدة وأشد تعقيداً وأكثر غيابًا فكل رجال الرضوانية مجهولو الإقامة في متاريس غير معلومة يحتبس في صدورهم قلق متزايد على نساء العائلة وتسيدت مخاوف الموت على الوسائد الفاقدة للنعاس فتتساقط كوابيس الليل مرتمية تحت الشراشف والأسرة في ذلك الزمن تحديدا حملت مراثي فراشها إلى الغرفة المشتركة مع أختها قبل موت فضائل وغيمة حدادها المعلقة سبعة أيام فوق نخيل البيت معتصرة زيتها فوق سعف النخيل تسلمت دون أن تعي

إخطاراً لم تصدق ما جاء فيه إلا بعد عدد لا بأس به من سنوات الانتظار القاتل كانت تقرأ البلاغ وهي فاقدة الحس ، يعلمها بإخطار عائلة الجندى الاحتياط مهلب الايوبى بأنه قد تم أسره بعد موقف بطولى كشفت لسبل عن وجه محايد وأخبرتها بصوت لا يعنيها .

- أسر المهلب!

ارتعبت سبل وهى ترى وجه مراثى الخالى من التعبير لم تدرِ كيف يمكن أن تعالج الأمر وانتظرت أن تسمع عواء مراثى أن تسمع تمزق خلاياها خافت أن تقوم بأى حركة كانت كمن يقف إزاء طفل مستمر امام هاوية سحيقة لا تفصله عنها سوى حركة إصبع قدم عصف بقلبها الرعب والعجز تتابع حركات مراثى وكأنها تطير منها إلى مهاوى لا وعى مهلك همست باسم أختها بحفيف حنون دون أن تقترب منها فى موعد إجازة المهلب وفى ليلة عميقة الظلمة سمع عواء مراثى فأستيقظ كل الجيرة وأجفلت القبرات والأشجار وأقنان الدجاج وتخيل الديك مخطأً أن الصباح بضجته أطل فراح يصيح برشاقة متعالية أدركت سبل أن أختها استوعبت الأمر وأطمأنت انها عادت مجدداً إلى الحياة كانت مراثى تصرخ باسم زوجها ناثرة ثيابه فى الغرفة بعينين جاحظتين غير مصدقتين أنها لن تعود لرؤية وجه المهلب كانت تلهث فيتصبب منها العرق وهى تصرخ .

- لن يعود .. لن يعود !

بكت فى أحضان أختها حتى الصباح المتأخر القدوم . وجاء بعدها بشمس ضئيلة ومطر هامس سقط واعى الحزن على شجرة الياسمين التى تساقطت أزهارها البيض الغضة بصمت ملائكى قربها كانت مراثى قد أخبرت تقويمها الأبيض آلاف المرات باسم المهلب بصوت يبلله المطر والدموع تذكرت بألم شديد ابتكارات الحب الغريبة والزمن القصير من النشوة المطلقة التى

أعلنت ذات مساء عنها أمام المهلب أنها سعادة مفزعة ! كانت مخاوف فقدان تلك السعادة تطوقها فيؤنبها المهلب وهو يضمها بقوة إلى صدره . لكنها عندما تغمض عينيها تجد حبة القلب تحدثها عن حطب مخيف ولم تعرف ماهية هذه الخطب إلا بعد حين فتشربت منها ثمالة أحزانها تعتصر أشواق مبرحة فى الليالى المتوالية وفى حدتها المتعبة ، إلا أنها بعد زمن امتنت قليلاً لهذه الوحدة . فبعد أن تعبت من اجترار الأمل فى رجوع المهلب ومن الإنصات إلى خطواته على الطريق ، وجفت دموع اشتياقها المسفوحة صمتاً على وسادتها ، وحتى كلمات مواساة سبل قد ذبلت جميعها دون أن تحمل بلسماً لجرح الفراق ، اتخذت قراراً حاسماً بعد ليلة عسيرة من النقاش مع سبل فى إمكانية تحقيقه ، فحملت أوراق تخرجها ومضت فى صباح صيفى حار لتبحث عن عمل لها . ازاحت التراب عن كتب القانون ولبست ثوب المحاماة وأجلت أحلامها المثيرة فى حياتها مع المهلب .

اتفقت مع محام كهل يحتل مكتبه مكانًا قديمًا فى شارع الصاغة قرب المحكمة الشرعية وانطلقت فى مسيرتها تطوى فى قلبها مشاعل أشواق مكتومة عطشى .

فى أول مرافعة لها بكت وهى تحاول استدرار عطف هيئة المحكمة فى عرض حالة موكلتها ، فقطع القاضى سير المحاكمة واستدعاها للمداولة .

حدق ملياً فى عينيها السوداوين وهو صامت ، قرب وجهه منها وقال بصوت واثق : - أنت هنا للدفاع عن موكلتك وليس للرثاء لها عليك أن تقاتلى لا أن نوحى !

كتم القاضى ضحكته وهو يرى الدموع المترقرقة فى عيون مراثى والدفق الحزين المتناغم فى صوتها . عند عودتها إلى مرافعتها كانت فى أوج غضبة

داخلية أحستها تلهب ضميرها . قالت وهى تسير بخطى ثابتة تشد على قبضتها : أه من قسوة الظلم !

وكادت أن تطيح بزوج موكلتها وأن توجه له لكمة قوية !

رفع القاضى الجلسة لإصدار الحكم وهو يضحك عاليًا ، تهتز نظاراته فوق أنفه الاقنى تتابعة مراثى بارتباك وحيرة ، تتشبث بقوة بيد موكلتها حصلت على حكم نهائى بكامل حقوقها الشرعية .

قطعت مراثى المسافة إلى بيتها مشيًا مأخوذة ومحاولة أن تصدق حقًا أنها كسبت نصراً حقيقاً بدور قادته وكأنه اشبه بمسرحية هزيلة فى الحوش المضمخ بظهيرة صيفية مرشوشة الأشجار ، زقزقت العصافير المتجهمرة فى ظل الأعشاش الناعسة من شدة الهجير ، تسلمت سبل أختصها فى أحضانها وهى تشدو .

- انتصرنا .. لقد انتصرنا !

صفق لها مرتضى بيدين تركتا الصحيفة جانباً واستعاد حديثه مع الاعمى نشاطا مفاجئاً وطفق يتحدث عن أول انتصار حقيقى لأحد أبنائه .

- عفية مراثى أحسنت

بعد أشهر قليلة فتحت فيها قريحة مراثى على نجاحات صغيرة وجميلة ، كانت هى قوت الأختين فى ثقل الاماسى ، رفع القاضى مرة أخرى نظارته الطبية واستقرت نظرته الباحثة عن شئ ما وفكر : لو أنى أصغر بعشرين عامًا .

كانت سبل بعد وجيعتها وخيبة رجائها بـ نواف الضامن تغطس فى بركة أختها الحديثة مستعيضة بفرح الانتصارات الصغيرة المنجزة ، سلوى مريحة لضجر الأيام فتقطع الأمال الموحشة بثرثرة لا تنضب مرتبة بهمة عالية أوراق المرافعات والجلسات القادمة ، مذكرة اختها بمواعيد موكليها . كانت سبل فى

محاولاتها اليائسة للنسيان تتشبث بكل ما هو متاح لديها ، فى الصباحات الناضجة بالصمت تخور عزيمتها ، فيطفو على سطح ذاكرتها زبد قليل من طفولة غير مشبعة تبدو كحلم يصعب تذكره واسترداد أحداثه ، فتداوى قلبها باسماء إخوتها الغائبين بين ضجيج طبول الحرب أو تجلس ثمة عند شباك غرفتها تنشد من دموعها أغنية أشواق لأخيها تغلب تنظر من بعيد لغرفة موته دون أن تجرؤ على دخولها حيث تتعلق صور ذاكرته على جدران الغرفة . فكان فى أحداها يضحك من دغدغة حمائمه ، وفى أخرى تراه جالساً وحيداً متابعاً لساعات متصلة فراشات بيضاء باجنحة منقطة تحت فوق الحشائش الخضراء مداويًا جراح الحيوانات أو مرتلا بصوت لا يسمعه أحد ترنيمة لارواح الزهور المقطوفة عبثا . كانت تستعيد كل هذا برغم ما يسببه من عذابات لتبعد عن قلبها وساوس نواف الضامن بالعودة إليها وسرية زواجه منها ، أو لتتسلح بها من فراغ يحيطها كان أشد ما يرعبها هو تلك الوحدة المستعرة فى قلبها لئلا تعيدها إلى رفقة نواف .

ثابر نواف الضامن منذ عزلته عنها ، على استرضائها . كانت تعرف أن قتله المتعمد لجنينها فى بطنها وإجهاضها لوليدها دفن كل مشاعرها تجاهه بقدر ما هو وأد لكل إيمانها به . إيمان أنفق نواف الضامن سنوات وسنوات فى تلقينها إياه وترويضها عليه . إنه نبى كاذب !

ردت على مراثى لتخيب مسعاها فى مصالحة ما . كانت عارفة بأن عالمه الهش المبنى على الأحلام السرية قد تقوض ، فتنازلت عن احلامها الوهمية مستعيضة عنها بالذكريات المفعمة بالمرارة ، لأن القدر منحها ترضية مناسبة وتسلية بعثت فيها مرحا جديدا وفرصة لا تفوت فى تعويض خسارتها السابقة وأن تربح نتيجتها باستحقاق .

فى مصادفة أصيل حارق بث الزمن اللاذع رجل غرامها الأول أمامها . كانت ترتدى ثوبا صيفياً حفل بعشرات الأزهار ، وأمام النخلة المتربعة على منعطف الطريق ، حيث كان يستعطفها بانتظاره القديم ، تقابلا . جمدت نظراتهما للحظة وأشرق الماضى حافلاً بسنواته الثلاث ، واخيراً باشهره الستة حين دأبت على انتظاره الممض خمس ساعات وعشر دقائق كل نهار اثنين . تراجعت خطوة إلى الوراء فاستوقفها متوسلاً .

- مهلا .. أرجوك .

اطال النظر فى وجهها بتكويناته المزادنة ببهاء حزنها . واستشعر فورا مقدار خسارته . انسحبت من أمامه برشاقة لكنه كرر توسلاته : مهلاً .. مهلاً .

أغلقت الباب دون أن تزين سمعه بكلمة واحدة بقى مسمراً هناك .

تساءلت حالما سمعت صوت اصطفاق الباب عن عدد السنوات التى مضت دون أن تراه . بسرعة استعاد نشاط دأبه المهزوم فى الانضمام إلى نخلة المنعطف الوحيد حدست سبل أنها لو تحدثت معه لثانية واحدة لانهارت حصانتها ، فدلفت مسرعة إلى بيتها . كان كل ليلة ، حتى يتساقط حفيف الساعة الثانية عشر ، يقف وحيداً .

وحين يغادر تراقبه سبل من خلف ستارة نافذتها ، يتسلل إليها الأرق الليلى ، يتقلب بين جفيها ينبئها بأن خريفا آخر قد حل فتتسمع همس الأوراق الذهبية المقتولة فى حوش الدار ، فتفتتح فى صدرها نجوى احتراق امرأة تكابر على وجعها . كان برد الخريف قد تسلق الهواء ، فلسع وجهها عندما فتحت باب البيت الكبير لتواجهه . استعد فى وقفته مختلساً ابتسامة بائسة ، كان قلبها ينزف دقاته بعجالة وخفة .

- آه ياحبى المغفل !

شيطان صغير كان يلهو في ضميرها حاثاً إياها لارتكاب بعض الحماقات ، أمام المرآة وهي تطالع وجهها حرضت نفسها مجددا : - أن بعض الحماقات ضرورية لجعل احتمال الحياة ممكنًا !

فتركت شعرها ينساب عبثًا على كتفيها ، كان الرجل البائس لقصة غرامها القديم يقف كعهده قرب النخلة المنحنية على أسفلت الطريق وكأنه تتنصت لاخباره ، في ذلك المنعطف كان ثوبها يتراقص بحركاتها الرشيقة ، ألقت نظرة لامبالية على وجه الرجل المترجي أنتباهها ، إلا أنها استدارات عنه بكبرياء ، فكان يعدو خلفها يتوسلها أن تتوقف برهة ، أستفزها صوته واستعادت أيام الحمى وجنون الشوق والأمل القاتل في لقائه لستة أشهر كل يوم اثنين لخمس ساعات وعشر دقائق ، تحصي فيها أوراق الشجر بانتظار أن يأتي ، أو تعد بتكرار صبور بلاطات الطريق ، وتلعب لعبة تخمين ألوان أو اجناس خطوات القادمين ، كاد البكاء أن يتلجلج في صوتها :

إنك لا تستحق .

ولم تكمل ما أرادت قوله، صفقت الباب بنزق سمره بمكانه . بقي هناك برهة ثم مضى ، رأته وهو يمضي ، تلفت خلفه بضع مرات ، وغاب بعدها خلف المنعطف حينها فقط أطلقت لدموع عينيها العنان تتهدج لكلماتها :

اذهب ، إنك ملعون في قلبي حتى الأبد .

فتأكد أن جرحه في القلب لم يندمل بعد . كانت قد أعدت لنفسها منذ سنوات تقويمًا غريباً للنسيان ، فكانت في نهاية كل يوم تضع خطًا صغيرا مؤشرة :

اليوم الأول للنسيان .

في كل يوم تذكر نفسها بموعد نسيانه ، فتوالت الخطوط الصغيرة ثابتة متسلسلة كدبابيس تخزها علامتها لتذكر سبل أن عليها أن تنسى . كانت

تسميه دفتر خطوط النسيان ، فى اليوم ألف وسبعمائة وتسعة وعشرين للنسيان توقفت عن العد واقفلت دفتى الدفتر على قناعة عدم جدواه !

راعها أنها بعد كل هذا النسيان المتعمد تتذكره ، وأن الزهرة الحمراء المخيفة فى رسالة الغرام الأولى تحت الفراش ما تزال محتفظة بلونها الأحمر المسود وإن كانت قد فقدت إريجها منذ زمن طويل ، لكنها وبعد ثارها منه عندما تركته ينتظر كل يوم لمدة ستة أشهر ، لم تعد تجبر نفسها على نسيانه فقد بدأ ينسل من ذاكرتها لوحده دون ضجة أو حزن . إلا أن الوحدة المرعبة لقلبها أحيت على شفتيها كلمات لم ترد لها أن تطلق ، فقالت رغما عنها وهى ترمق نخلة انتظاره عند منعطف الطريق .

- أه يا مراثى ... إن أوهام الحب مع علمنا بانها أوهام هى أجمل كثيرا جداً من رعب الخلو منها !

وأعادت مجددا قراءة دفتر خطوط النسيان ، فى احتفال الخط المئة وجدت كلماتها : إن الاشواق تبكى نشيد وحدتها فى مرارة خفية ، لا يدريها إلا القلب المتلهف . أيمكن أن أحبك إلى هذا الحد من الأسى ؟

وفى موقف اليوم السابع والعشرين بعد المئتين كانت هناك قطرات دموع جافة تجعدت كلماتها : أيكون عبثا هذا البريد الذى ارسله إليك معلقا بحبات المطر مستبيحًا أشواقى إليك ، أيكون عبثًا كل نداء اطلقه مستغيثًا من حنان ينضج بالوحدة والتوق إلى صحبة تحت رفيف أوراق الشجر ؟

فى الورقة الألف دونت على ورقها المصفر : سأغفر لله لو أنه منحنى القدرة على أن أحبك دون أن أتألم .

ثم لم تكتب بعدها شيئاً سوى علامات الخطوط ، خطوط النسيان .

انسلت مرائى قرب شجرة الياسمين المهملة بين أقراص نباتات الخباز المتعرشة فوق سيقانها الملتوية بفوضاها الخضراء ، فاحت برطوبة عطرها فى مساء الثالث عشرمن شهر آذار لعام ١٩٩١ حين انهمك المطر ملتذاً بلعبته ، فدأب بنثيث غير منقطع يتأرجح فوق أغصان النارنج بأقماره البرتقالية الفجة . كان المهلب العائد من الأسر منذ بضع سنوات لايفقه من دنياه سوى ابتسامة بلهاء تنطق من وجه آثر عدم الذكرى ، قابعاً تحت الأشجار ، يحصى حبات المطر ، ويفقأ فقاعاته بسبابة كفه اليمنى ، تفترش وجهة ابتسامة شاحبة فيما البيت لايزال تحت وجيب ظلمة المغيب الشتوية ، حيث أعفيت دائرة الكهرباء من خدماتها إثر قصف كل محطاتها بكرات ملتهبة كانت تنشر مفرقعات أسلاكها بشرارات بهيجة فتغرق المدينة فى نعاس العتمة بوقت مبكر ، وتنوس الشبابيك بمنظر الفوانيس الكئيبة بنيرانها النحيلة ، ويخفت صوت الحياة مع انطفاء برتقالة الشمس المضيئة ، فتدلهم شوارع العاصمة ، لايجمل صمتها سوى إطلاقات نارية يعلم الله من أين مصدرها ومن هم مطلقوها .

كانت حرب التسعينات قد أغلقت بوابة أيامها الأربعين المقترنة بمشاهد ألعاب نارية متنوعة أدخلت الوطن إلى ساحة سرك كبير قطع فيه الناس تذاكر مجانية فكانوا يتلهون بحساب أعداد الصواريخ وتخمين مواقع سقوطها ، بينما تتوالى الأخبار المفزعة من كل مكان ، تشرئب من كل زاوية (لاشىء ينمو سوى الحرب وبياناتها .. دموعها ومخاوفها . كانت الشوارع المقفرة من السابلة والعربات تعزف نشيد الألم لتستقطب حجارة الطريق ذكرياته فيمكث بعيداً فى الجذور على نحو غير قابل للنسيان مفترشاً تراب تلك المساحات الوطنية الشاسعة .

لبث بيت الرضوانية يهتز طيلة الأيام الملتاعة بحريق اجتر النواحى القصية من العاصمة وأفسد نهاراتها بدخان أسود ثقيل . خاط الشيخ كفنه

برغم عماه ، تلمست كفاه الطريق إلى صناعتة فكان يحمله معه فى جولاته البطيئة متفقداً بحرص جدران المنزل المتصدعة محاولاً التأكد من سلامتها وتوصل إلى قناعة مريحة أطلقها بصوت مبحوح من طيلة السكوت .

- إن الأساس متين ، ولكن يحسن بهم أن يصلحوا الحال هنا .

كان يتلمس الصدوع بعيون أصابعة فيلكزه عباس فى خاصرته كلما مر بقربه .

- سيقع يوماً على رأسك العفن ؟

لم يكف عباس رغم تقدمه في السن عن تحرشه بالشيخ يباغته كلما وجده غارقاً فى شيخوخته ساهمًا فى أحلام الموتى يصرخ به .

- ياعاشق البيض !

مذكراً إياه بولائه الشديد لأبناء (الشمرية) ، مطلقًا أحيانًا سهاماً لاذعة دون أن يتمكن من تقدير ما يثيره فى نفس الشيخ من فزع .

- لماذا المحبة لأبناء (الشمرية) ، وليست لأبناء الزنجية ؟

فتذوى تجاعيد وجه الشيخ وتلتهم بحمى الخوف من كشف سر حبه التقديم للشمرية ، فكان يستجدى الرب أن يتفقده ببركة الموت ، وأن يعفيه من بقية أيامه التى أمتدت متراكمة حتى يصعب إحصاؤها .

كل شمس يوم جديد كانت تشهد على تفشى طاعون القصف ، لم يسلم مكان من شهية النار ، وأعيد بعدد النجوم اللامعة قصف المواقع مرة أخرى ، وخرج الموتى من أكفانهم مذكورين من القنابل فتناثرت جحافل قتلى الحرب الماضية وأختلطت عظامهم ببعضها عندما قصفت المقابر فتبعثرت شواهدهم ، ومات الميتون مرة أخرى !!

لم تخل شوارع العاصمة من أثار البهجة ، فقد احتفلت مجبرة بعيد إطلاق الجنون بعد أن فتحت مشافى الجنون أقفاصها ، وشرعت أبوابها مخافة

القصف المحتمل لها ، فخرج ساكنو تلك المشافى بجلاليبهم الزرقاء بالخطوط البيض العريضة ، يستعرضون نباهتهم ، يرقصون فى الشوارع الخالية وبلا حراسة على جنونهم ، يمارسون متعة الحرية للمرة الثانية بعد أن أفلتت عقولهم كل قيودها ، فكانوا يلعبون أثناء النهار بين كراسى الحافلات العمومية المتوقفة فى الساحات العامة لعبة الاختباء ، ويرفعون العصى فى وجوه بعضهم فى متاريس وهمية يتذكرونها لحرب سابقة خاضوها أفقدتهم الرشد ، أو ينقبون فى المزابل عن شيء يؤكل بعد أن يأسوا من اصطياد العصافير ، ليلتموا على بعضهم حين تدرك ظلمة الليل الأرصفة الخاوية ، فيبحثون عن بصيص ضوء ينقذهم من أشباح العتمة وغيلانها ، فينسون جوعهم وعراكهم ويتكورون على بعضهم فى زوايا الشوارع يرتجفون من برد الشتاء ، يبكون من شدة الخوف مجتمعين فيعجب كل واحد منهم من الماء السائل على وجه صاحبة فيلعقه متلمظًا ملوحته ، أو يرقدون فى براميل القمامة ، ليتبخر خوفهم كله فى الصباح ليعيدوا من جديد عيد جنونهم السعيد !

كان الجهم ينظم كل نهار جدولاً حافلاً بالمهام الواجب إنجازها فينقل الخبز إلى أناس لايعرفهم ، ويكرر على أسماع مجاميع البشر المتلهفين لسماع الأخبار كل ما التقطه من معلومات يزينها بأحلامه المتدفقة بأن كل شئ سينجز على أحسن مايرام وأن البر وحروبه المتوخاة سيعفى الوطن من واقع أليم .

كل صباح يصحو من نومه القليل ينتقل بإبرة المذياع ، يتسقط آثار القتال ، حاشراً نفسه فى فيالق المقدمة ، يحشو مخيلته بمعارك يخوضها مع عصابته المتخيلة بوحى من معارك (جيفارا) المعلقة صورته فى غرفته ، المنتقاة من متطوعى الفدائيين و ويحضر خططاً يدرسها جيداً بأمل أن يحققها لاشيء يعفو خيال الجهم المتقد بحمى المعارك لم تفتر همته بانتظار استدعاء وزارة الدفاع الذى لم يصل ، لكنه حين يطالع وجه هانيا السابح بأحلام بعيدة يروق له مجدداً أن يصفف شعرها وأن يستعيد بمحبة أيام اعتنائه بحريق جلدهم

النحاسى اللاهب ، وتأوهات قلبها المتألم حين كانت تستكين إلى كتفه ،تسفح دمعاً لاتدرك معناه سوى أنه يسيل من عينيها دون أن تفقه سبب شقائها ، أيام كانت بعد موت فضائل برائحة حريق بقعة الزيت المتخلفة من موت أمها ، فكانت تأتى إليه عند اشتداد القصف ، تعبث مبتسمة بأبرة المذياع تطالبه بأغانيها المفضلة ، وقد سمعته مراثى يوماً يغنى لها بصوت أبح خجول شيئاً حفظة لأجلها منذ زمن مضى ، فكانت عينا هانيا تلمعان بسعادة طاغية يتمايل رأسها فينظم الوليد المتعثر بساقة الوحيدة إليهما ، يكرر بعد كل ليلة يقضيانها معاً .

- تزوجها إنها لاتزال كما كانت :

فيجيبة الجهم - لاشىء كما كان عليه سابقاً

ولايوضح أكثر لكن الوليد كان يعرف أنه ينتظر أن تدعوه الحرب وأنه يتحامل على الوقت الذى أبعده عن أحلام البطولة .

مدت مراثى يدها للمهلب تساعده على النهوض . قلب كفها مرتين شمها قبل أن يتعلق بها ، ربتت على كفه وأعادت بإعياء شديد ماقالته حال دخولها إلى البيت : - لاشىء أشد مرارة من هذا !!

اسندت سبل صورة الوضاح الكبيرة الملونة ، وجلست على كرسى الملا القديم واضعة وجهها بين كفيها ، كان كتفاها يرتعشان فعرفت مراثى أنها تبكى .

- لن تذهب إلى هناك مرة أخرى !

ركزت عينيها على وجه اخيها الضاحك من خلال الإطار ، لاينتظر إجابة من أحد كان صوتها يأتى عميقا » منهكاً :

- لو كان مقدراً له أن يعود ، فإنه يعرف حتماً كيف يفعل ذلك !

أشعلت فانوسًا قديماً لم يتح لها الوقت لتنظيفه ، اصاخت السمع لعصا الوليد بساقه الوحيدة ، ترتطم عكازاه بالبلاط ، فياتي الصوت رتيباً ، كلما طرق سمعها تذكرت دون إرادتها وجهه المعتذر وهو يسترسل في صوت يفيض بالألم ، أنه قد اضطر لدفن ساقه المبتورة في الحرب الطويلة السابقة ، بعد أن سحبها معه ليلة ونهار مضنيين حتى فاحت منها رائحة الموت ، فقطع وهو يصرخ وحيداً في وحشة البرية بقيتها المتصلة بجسده ، وضمد الجرح الكبير بنفسه بعد أن أحرق نصف ملابسه ورص الرماد المتخلف على فوهة اللحم العريضة المسحوقة بشظايا آخر معاركة .

نادته مراثي من داخل المطبخ المظلم :

- سأعد العشاء لاتدع (المهلب) يلهو تحت المطر

تحركت عظام الوليد الخشبية ، تستحث المهلب على البقاء في الغرفة قرب فانوسها الأخرق . ابتسم المهلب لوجه الوليد عندما وضع أمامه علب التبغ الفارغة المباعة هذا اليوم ، وراح يلهو بشغف يطلق بين حين وآخر نظرت امتنان للوليد .

كان المهلب رغم غياب عقله متعلقاً بالوليد الذي يحنو عليه ويحدب على رعايته في غياب مراثي ، فيأخذه معه على ناصية الطريق يحمل له صندوقه الخشبي بمحتوياته القليلة من علب التبغ وأعواد الثقاب ، فكان المهلب يهب فرحاً كلما فرغت علبة ما فيحتفظ بها مثل كنزوحين يمنحه الوليد سيكارة كان يأخذها بعيداً عن العيون يسحب أنفاس الدخان ملء رئتيه ، تتلصص عيناه على الطريق بحذر مضحك . أعيد المهلب قبل هذا التاريخ بسنوات قليلة من أسر دام لسبع سنوات وثمانية أشهر وتسعة عشر يوماً . تسلمت مراثي المتبقي منه في مساء خميس صيفي .

كانت عيناها تطفحان بالدمع وهى تنتقل بالوجوه الغائرة ذات الذقون النابته والرؤوس الحليقة ، وفى قلبها هاجس أنها قد لاتراه أو لعله لن يتعرف عليها ، تلمست كف أختها :

- أتظنين أنى قد شخت كثيراً ؟

ضغطت سبل على كفها المرتعشة :

- سيعرفك

لكنه لم يعرفها . كانتا تطوفان بالساحة الترابية الواسعة تتسمعان بنجوى مرتجفة زغاريد العودة وشهقات بكاء اللقاء بأمهات وزوجات طال اصطبارهن على فراق مجبر عليه لم تكن تلك الجموع تعلم أن معظم الأسرى العائدين من الحرب سيموتون قبل أن يتأكدوا من وجودهم فى ديارهم لأسباب عجز الأطباء عن تشخيصها ، فكانوا يتساقطون حالما يصلون إلى بيوتهم وكأنهم أدوات بطل وقت استعمالها إلا أن المهلب لأمر ما قد عاش .

لم يلبث المهلب كثيراً بعد زواجه ، فبعد شهور عدة اضطر أن يلتحق بقوافل الجند نحو الحرب المديدة قال لزوجته وهو يتهندم بزيه العسكرى :

- فكرى بالأمر كمغامرة

لم يبح لها مطلقا أنه مثل الوليد و الوضاح مفعم بالرغبة بإبداء البطولة وامتشاق أمجاد انتصارات حلم أنه سيحدث أبناءه بها ، وأنه يرغب أن يراها تتمثل فيه الفارس الذى لايبارى فى بطولة ساذجة ، ربما ماتزال راسخة فى نفسه منذ الطفولة . * كانت ترى وجهه فى المرآة خمنت أنه يراها أيضاً . * .

- ولكنها حرب

- نعم الحرب قد أكتب لك من هناك كما يحدث فى الروايات

تشرب وجهها ملياً . شعر بعمق غرامه بها ، فتحركت أشواقه إليها نظر إلى ساعته . كان وقت القطار على مرمى قليل منه ، تحسر من خلال ابتسامة لطيفة .

- أتظنين أن هناك وقتاً ؟

ألقى نظرة حنونة على فراشة الوردي واستعاد بلحظة ابتكارات مراثى الحيوية فى إظهار مشاعرها ، فخدره دبيب الدم فى شفتيه واستشعر بفخر لاتقانها بوقت قياسى فن التقبيل . دربها ولعها على الخوض فى ألعاب طفولية ساذجة تفوق فى جمالها كل حيل النسوة ، فكانت تدس فى حيوية قصاصات ورق صغيرة تكتب عليها كلمات حب مرتجلة حتى أنهم عندما أسروه وجدوا فى أعماق جيب بنطاله العسكرى ورقة ملفوفة كتب فيها اعطنى واحدة بطعم الحلوى أحتار الآسرون فى تفسير هذه الشفرة ، فلم يجدوا فى دليلهم ما يساعدهم على حل الإشارات المربكة وأنهالوا عليه ضربا ، كادوا أن يفقأوا له عينيه فبالوا فيها حتى تورمت .

أمتنع المهلب عن البوح بأسرار قبلات مراثى المسماة بأسماء أوقات حدوثها واحدة للطريق ، وأخرى بطعم رائحة السكائر ، وأجملهن حين كانت تقول له .

- هذه لتفكر بى !

تذوق فى عتمة أوجاعه دفء قبلات الحب ، فكر بقلب متشوق وهو يكاد يبكى متحسراً ممتلئًا بالحزن إلى سريره المنثور عليه ببراعة الحب زهور الياسمين الرشيقة ، كان بعينيه المتورمتين من رشيش التبول فيها يحلم بقبلة مراثى ناداها بصمته :

- أليس هناك واحدة لتشفى الألم !

لم تكن مراثى تعلم أن القبلة المعنونة بطعم الحلوى ستودى بعقل المهلب إلى التهلكة وأنها ستطعمة عدداً من العصى تفوق فى سخونتها كل القبلات بكل مسمياتها !

كانت مراثى طيلة تلك الأيام تحرق فى انتظار صعب كل خزينها من الصبر مسلية أشواقها بوعودة التى أطلقها قبل أن يمضى :

- سأعود :

فكانت كل صباح حالما تستفيق من نومها القلق ، يستلقى وجهه أمام عينيها ، فتجد صوتها ينطلق بأمل : لقد وعدنى أنه سيعود .

لكنه لم يعد إلا بعد سبع سنوات وثمانية أشهر وتسعة عشر يوماً ، بلا ذاكرة تشهد له سوى نظرات فارغة وابتسامة خالية من كل معنى ، ولم تصل رسائله التى وعد أن يرسلها من الجبهات المتألقة بـــنار جحيمها ، فاستعادت بوحى من توقها رغبتها القديمة برعاية . تقويم غرامى والاهتمام بياسمينات الحب وتعويذاتها الفريدة ، حتى أنهـا فـــى ليلة مشحونة بالريبة كانت قد شرعت فيها شبابيك غرفتها لالتقاط برقيات المهلب المرسلة على أوتار الشوق وجدت غرفتها مكتظة بنداء الياسمين . هبت من رقدتها وركضت حافية القدمين تلهث قرب تقويمها العطرى الأخضر ، فوجدته محاطًا بضباب ناصع البياض تجمع بقطرات أشبه بالدموع انسابت على الأوراق المسننة الخضر لمت الأوراق الباكية فى كفها ، وتذوقت تلك الدموع . كانت مرة جـداً فحزرت : انها دموع المرارة .

فى تلك الليلة الاذارية الدافئة أيقظت اختها سبل وهى شبـــه غائبه عن الوعى وأعلنت امامها يغالبها الخوف :

- إنه المهلب . لن يعود .

فى تلك الليلة أسر المهلب معذبًا بأسرار طعم القبلات غير المباح بسرها فركت سبل بقايا النعاس ، ونقلتا معا بصمت من لاتجدى حزنه الكلمات أغراضها إلى غرفتها القديمة ، وأقفلت باب حجرة مراثى لأنها لن تقوى على احتمال العيش وحيدة هناك مع ذكريات الحب ، لبثتا معا تسلمان نفسيهما لحنان الماضى فى جفوة العصى ، تساءلت مراثى للمرة الألف دون أن تصل إلى إجابة نهائية : - هل أن الماضى كان أجمل أم أننا نخدع انفسنا بأوهام جليلة ؟ أكان الزمن الراحل جميلاً حقاً ؟

وبصفاء ذهن شديد وهدوء فقد توتر توقعاته أجابت نفسها :

- أظننا قوم لانقوى على أن نحيا اللحظة بعمق تفاصيلها . نحن أجبن من هذا ، إلاأننا نسعد كثيراً باستعادتها فى غبش أحلامنا وأقاصيصنا

كانت سبل تسمعها وهى فى أشد حالات الخيبة بعد أن أقفلت المذياع وأصوات الحرب الأولى تطفح باحتمالات النصر المؤزر . لمت ركبتيها بذراعيها كان صوتها غريباً عنها . سمعت نفسها بوضوح تقول :

- أية فجيعة أن نعرف الحقيقة الكاملة ، أن نعرفها تماماً لكننا تتظاهر بأننا لانعرف شيئاً لنخدع أنفسنا بالأوهام متذرعين بالتمنيات والنوايا الطيبة ؟ ياله من خراب !

وضرب فى تلك اللحظة ذاكرتها خطاب (نواف الضامن) الذى لايمل من تكراره بل أنه يجد أن تكراره الشديد هو أساس تصديق الآخرين له :

- إنهم .. وانتم ، لتحافظوا على الجنة الأرضية عليكم أن تصدقوا مقدار قداستها .. إنها جنة المؤمنين بأنهم يجب أن يدفعوا ثمنًا باهظًا لقاءها نحن وإن كنا نبيع لكم الأوهام محتفظين بالحقائق لأنفسنا ذلك لأنها تتعبكم ! إن الحقائق لاتليق بالعامة الغوغاء !

فى الحرب الأخرى طفحت الخيبة فى وحشة البيت الكبير الخاوى ، المضروب بلاطه بعكازى الشيخ و الوليد ، تحت وقع سياط الحرب وسيورها النارية ويجهدان وجدان سبل فى إغراقات موحشة ، اتلفت فيها كل منافذ الأحلام و فكانت تتكىء وحيدة على شباك غرفتها ، متشربة رتابة صوت النهر وزعيق النوارس ، غناء الجداجد والقبرات من بستان الجد ، مبيحة للذكريات أن تلهو بقلبها ، فتدور فى ضمير مخيلتها صور باهتة تبعثرت على مدي السنوات لعائلة تعرفها جيداً خشيت منذ طفولتها على فقدانها ، وبقيت لعمر متصل تودع أشخاصها الأليفين المحبوبين ، فأستنشقت فى سريرها عبرات أخيها تغلب ورائحة طفولته الهادئة المستكينة بأحلامها الكسيرة ويماماته بهديلها الحنون ، فلمت يديها الاثنتين إلى صدرها وكأنها تضمه كما فى السابق إليها ، واستفاق من الغياب صوت أبيها حين كان فى أجمل أيام البلورية يناديهم للعشاء يدفعهم أمامه كقطيع خراف صغير يتقافز بين أحضان حنان رشيق ، فكانت مع مراثى تغطى دميتها القطنية المصنوعة بين يدى البلورية ، وتمضى تسابقها أختها فى الوصول إلى حنفية الماء البارد ، تغسل يديها وهى تلتقط بشغف صوت أمها تغنى مع قعقعات الصحون تلمحها وهى ترمق بحنان كان يبدو أبديًا وجه زوجها مرتضى فاضت بها تداعيات الماضى أحست سبل أن بإمكانها أن تبكى حتى ظهر اليوم القادم . كان أشد الاحزان نضوجا والمقطوفة توًا من غياهب أحزان الأيام المخبوءة ، هو غياب الوضاح . حزن مفتوح كالجرح الطازج ، لاتنفع معه كل ضمادات السلوى . كان الناس بعد أيام الحرب الأربعين بأطنان قنابلها وأفواج رعبها المبثوث فى شوارع البلاد مخترقاً بيوتها يفتح العيون إزاء كوارث غير منتهية بعد ، يركضون فى الشوارع ينادون بعضهم :

- عاد الجند عاد الجند بلا حرب برية .

تلتف الأمهات على أبنائهن العائدين بسلال الدموع والألم معفرين بصليل أيام لن تمحوها السنوات . كفت الطائرات عن رمى أثقالها من القصف فى هدنة مدثرة بالرزايا فى زمن ينبىء كل يوم بعبء جديد إلا أن الوضاح لم يعد قيل إن الأحياء المتبقين قد عادوا ، و الوضاح لم يعد بعد .

كانت الحكايات الدامية تدور فى البلاد تنسج من دم أبناء الناس المتحندقين فى رمال التعاسة ، أقاصيص لم تعد جميلة ، تهشم الوطن إلى ملايين القطع .

كانت العاصمة تقبع تحت ظل ثقيل لحرائق لم يعرف مصدرها بعد ، ولكنها تأتى من الجنوب ثقيلة مشحونة برائحة زيوت أجساد البشر ، فتغمر الغيوم متكدسة . جبال سود توهم أن القيامة ستحدث الآن . إلا أن الأكيد هو أن قيامة الأرواح فى الجنوب قد قامت من أجسادها إلى سماوات الغياب ، تنظر من بعيد إلى الأجساد المتهشمة والمهروسة عظامها تحت سرف الدبابات الساحقة لمخابىء الجنود الرافضين العودة ، فدفنتهم أحياء تتشقق رئاتهم بخوف الموت ونفاد الهواء ، تجحظ مأقيهم فيطفر منها الدم بلا غوث وتمهد السبيل إلى قبور جماعية ممتزجة الأحشاء ، حتي أن بعض الجيولوجبين بعد زمن لابأس به من توقف الحرب وجدوا المكان المدفون فيه ألاف الجنود أحياء تحت متاريس لم يتركوها ، فوطأتهم الدبابات مكركرة بعزف قرقعة رعبها ، بصوت جنازيرها الأجش غير آبهة بحمى الموت المستعرة تحتها فى ذلك المكان تحديداً ، أستيقظت على نحو غريب نباتات صبيرية ليس لها شبية قيل إنها تبث عطراً فواحًا باعثاً على البكاء ، وقد احتار الجيلوجيون من الندى الاحمر المتجمع فوق الأشواك الصحراوية ، وفسره البعض ممن لاخيال لهم بأنه انعكاسات شمس المغيب على قطرات الماء ، إلا أن الصوت المنطلق فى نواح حزين متناغم مع عطر دموع الصبير الدامى ظل لغزاً بلا تفسير ، فيروح عطره

يطوف فى أرجاء المكان حتى الصباح . ونقل بعض الرعاة أن الحجارة تئن هى الأخرى وتنادى متفجعة بصوت هامس .

- يمة .. يـ .. مـ ..ـة

لم تنفع كل التحليلات العلمية والمختبرية باكتشاف أسباب خليقة صبير وادى الأنين . واعتاد الرعاة بعد ذلك على شهقات الأنين كل مغيب وقد ساد اعتقاد راسخ بينهم أن جوقة الأرواح التى فاضت فى غروب حزين بقيت تعلق أنفاسها ملتاعة لأحضان الأمهات .

اعتاد الباعة فى ساحة النهضة وزبائنهم الدائمون مذ توقفت الحرب وعودة الجند على رؤية وجهى سبل و مراثى تحملان صورة مكبرة للوضاح يسألن الجنود العائدين بعيون تستدر العطف :

- أما رأيتم هذا الفتى ؟

فى تلك الأيام كان سعير الألم يشتد دون أن يجد نفعًا فى الذكرى أو النسيان . كانت سبل بعد كل جولة بحث غير مجدية ، تعود أشد فجيعة وخواء وخوفًا فلا سبيل إلى تهدئة المخاوف ، فكان قلبها يصرخ من يأسه :

- إلاانت أيها (الوضاح) :

تتنصت إلى الطريق عله يتشرب مجدداً وقع خطواته الحثيثة الرشيقة . بعد كل جولة خاسرة تعود أكثر صمتًا وتوحشًا ، فلم تعد تجد بين غباء الكلمات مايعبر عن شكواها المنبثة من حناياها الوحيدة :

- اذهب

وباركتاه صباح سفره الشتائى ، بقبلات على الكتف ، دون أن ترمش لهما عين فى وداعه الأخير إلى مثوى الوطن وكان يضحك فى الوداع الأخير الذى لايجرؤ أحد من الأخوة على استعادة سعادته كان منظره ، حاملاً حقيبته السوداء الخفيفة ويده الملوحة عند نهاية المنعطف ، صورة لاتنفك تنكأ بلا

رحمة الحنين إلى رؤية وجهه ثانية كانت سبل تلتف بشرشفها الأبيض المطرز من أيام الحب الأول بألوان وردية حصدتها من حديقة أحلامها الذابلة انتظاراً لحب رجل سنواتها البكر ، تستعطف قلبها أن لا يفتح باب الأسرار المدفونة تحت حقول سنوات اليباب ، رغم إرادتها استباحتها رغبة أن يـحتويها شخص ما ، فهمست لنفسها بأساها :

- لو أن أحدا ما يضمنى !

واشتاقت له بكل قوتها ، وبكته رغم النسيان بحرقة أليمة ، وكأنها للتوتعرفت إلى حقيقة آثمة : إنه ميت !

أعيد قبل انتهاء الحرب الأولى ، استدعاء مرتضى لسبب غير معلوم . بكت العوراء بحرقة لشيخوخته الفزعة . وكانت مستعدة أن تغفر له فى تلك اللحظة حرمانـها من لعبة الليل المخـذولة . تشبثت مراثى بمرافعة طويلة بحقوقه المدنية كانت حصيلتها كلمة واحدة : اخرسى !

لم يستعد مرتضى صحته منذ زيارته المشؤومة لمكان ، خاف أن يبوح به حتى لنفسه مع أن الكل يعلمون . لم يقل أنهم استنطقوه ، أعادوا عليه تفاصيل مقتل أخيه الصفوان فكان يحرك رأسه بقلب واجف من شدة الرعب . وأعادوه الى البيت محمومًا بالخوف معقود اللسان يردد ويتوسل .

- إننى شيخ مسن فأعتقونى .

إلا إنه فى الظهيرة الأخيرة لحياته خرج إلى حوش النارنج تداعبه أهواء مشوقة الى تفقد أحوال الأعمى . كان يحس بأنه مدفوع لأمر ما . عرجت على قلبه رغبة لطيفة فى قراءة بعض الأخبار لرفيق الملا القديم . حمل نظارته الطبية وسحب خطاه مستنداً الى الجدران فى مسيرته ، أدرك الاعمى رائحته ، فنخر محمحمًا كحصان كهل أصيل تعرف صاحبه :

- هيه (مرتضى) زمان مر لم أرك فيه .
- لأنك أعمى منذ أمد بعيد .

وضحك الاثنان بأصوات يعلوها صدأ الشيخوخة ، وامتدت كفا الشيخ تتحسسان وجه مرتضى بحنان . طرق الباب الخشبى الكبير ، فأنزلقت سبل بخفة لفتحه ، كان مرتضى منهمكًا بأحاديث صافية منتعشا باخبار شبابه الغابر . تـذكر وهو يترحم علـى روح (الشمرية) خجلها الباكى حين أحضروا لها جهاز تلفاز ليسلى وحدتها فى فراش مرضها ، ساعة بث الأخبار فأخذت تصرخ بالقوم أن يستروها أمام هذا الجنى الطالع من أعاجيب شطانية لم تستوعب كيف يمكن لبشر أن يحشر نفسه فى صندوق بإرادته . ولم تقتنع حتى آخر عمرها أن أشخاص هذا الصندوق لايرونها ، فحافظت بإصرار أن تتستر كما يجب فى حضرة الغرباء وان كانوا يسلونها بجنون أفعالهم ، وارشده الاعمى إلى لقب عصابة الأخوة الاربعة حيث كان مرتضى وأخوته يسيرون فى شوارع المدينة ، يغدقون على نسائها بنظرات مفعمة بشباب انطفأ سريعًا ، أرسل مرتضى نظره عبر باب البستان الخلفى المقفل على مجد قبرى طه و خليل الهاجعين بليل موتهما منذ عمر انكفأ ، خفق قلبه بنبضة سريعة وهو يتلقى بحنان امتزج فيه شوق الصحو بالهذيان وأحلام الموت ، مستعيداً قامة لصفوان المديدة وصمت كبريائة المعلق فى حبل غليظ من عمود الكهرباء قرب مقهى الحى ، فى تلك الظهيرة الأخيرة لحياته ، بابتسامة متأسية ناحلة من خجل وعجل شفيق ، لمح الصفوان وقد نزع عنه حبل المشنقة وعاد معافى مشرقًا بسمرته الشمسية ، مد إليه كفين طريتين باللقاء ، حتى أنه تحسس مبتهجًا أظفر إبهامه وقد نما بعد الموت ، وانتبه وهو يبتسم يقابله لصفوان بطراوة حضوره الجديد إلى سؤال نسى يلقيه على أخيه قبل اكثر من أربعين عامًا .

- مارأيك بفيلم البارحة ؟

وانفحت أمامه شرفة السينما الصيفية فى بلدهم البعيد ، فى ليل خرافى النجوم تتبخر فيه أنسام مرت على أمواج النهر هانئة الرذاذ حين عرض فيلمًا أسطوريًا عن الفتى سجفريد وكان يعرف أن الصفوان يحسب الأفلام مضيعة للوقت وأنه لايهوى هذه التفاهات .

كل مساء كان الأخوة الأربعة يحتفلون بأمجاد شبابهم ، يقطعون شارع المدينة الكبير جنبًا إلى جنب ، ينسل طه إلى مكانه السرى حين يلمح إشارة يعرفها وحدة يراها معلقة على شباك غرامه ، فيعرف أن هناك رسالة مخبأة فى مكان لم يفصح عنه ، فيرتعش شاربه الجميل بالبهجة ، وينسل وحيداً ، يتابعة بنظره أخوه خليل المتيم بفتوته وجسده الرياضى وفوضى صحبه ، تداعى مرتضى فى ظهيرة زمنه الواصل الى نهاية حتفه ، بحنان بفجيعة خليل فى حب لم ينصفه ، تذكر كيف كان خليل يرسل كل يوم جناحى قلبه المكسور ، تذوب عيناه العسليتان حبًا فى فتاة أرسلته إلى ضفاف الآخرة . كان مرتضى يعرف أن خليل يغبط طه لجرأته فيقضى الليل حارسًا لمغارة لقاءاته ، صاحيًا يكتب الشعر ، يلقيه على أسماع البرارى ، بينما يغترف طه من أحضان غرامه السرى نشوة تعود به منتشيًا من مشاويره الليلية ، متعبًا مشعث الشعر ، فيغط فى النوم حالما يندس فى فراشه ، ويسهر خليل راعيًا لنار حبه المستعرة ، يذكيها البعد والصد ، فتتضرج عيناه الواسعتان ويخط السهاد لونه فاضحة تثير حرقة قلب الملا عليه ، التى أوصلته فيما بعد إلى مشنقة هواه المتدلية فى خيبة ليل شتائى بارد ليدثره القبر بوقت مبكر من عمره . ابتسم الصفوان لمناكدات مرتضى عندما دخلت سبل عليه مطوقة بصحبة شخصين بدت عليهما خشونه ورانت على نظراتهما شراسة عالية .

كان وجه مرتضى مايزال غارقـاً فى سلام الماضى عندما سألا مباشرة :

- أين مرتضى الرضوانى ؟

لم تسعفة ساقاه ، لكنه نهض ببطء ترتجف شفته الخائنة له ، وأرخت أرنبة أنفه المصطفقة من الخوف ، قبضتهما على نظارته فتهاوت متكسرة بالقرب من الصحيفة . أعيد السؤال بصوت لايـقبل المـهادنة :

- اين مرتضى الرضوانى ؟ نريده .

انفجار راجف ، اخترق جمجمة مرتضى ، تفتحت على إثره فى رأسه أقحوانة رعب ونافورة دم ، ألقت بنثار دماغه على الأرض بالقرب من كف سبل وترنحت القامة تحت أنظار الرجلين المشدوهة وصوت الأعمى يعلو ، بذات اللحظة التى سمع فيها بوضوح شديد صوت فرقعة صغيرة تركت فجوة طولية فى رأس الرجل .

- ماذا هناك ..؟ من هناك ؟

تلا كل هذا صرخة مروعة دوت فى أرجاء الحى ، فتبخرت آثار رجلى الأمن فى لحظة انطراح الجسد الذى كان يخص مرتضى سابقاً سقط بالقرب من صحيفته وضحكة ماضيه بين أخوته الثلاثة فطويت إلى الابد صفحة (عصابة الأخوة الأربعة) .

كانت سبل تصرخ مشدودة بلا وعى ، وتعيد بهمة النثار الأبيض المتطاير زبداً من دماغ أبيها بسبب الفزع . لم يستوعب عقلها ما حدث ، فكانت تقف لساعات متتالية تعيد ترتيب اللحظة الجبارة حسب تسلسل وقوعها . لحظة سحق الرعب جمجمة أبيها بأقحوانة موت فوارة ، ارتعشت ساقاه للمرة الأخيرة بينما كانت يده منكمشة بوضع من يمسك قلماً لعله أراد أن يثبت أنه : قد وقع .

- هنا كنت أقف . سقطت نظارات أبى . هم كانوا خلفى . اثنان منهم . الجد كان هناك .

فتذهب إلى الموقع الذى كان الشيخ جالسًا فيه :

- سقطــت الصحيـفـة ثم النظارة لاالنـظارة . أولا ً سأألم الاشيـاء . كنت انحنى .

ثم تناثرت تلك الرغوة اللزجة . دافئة ، أمطرها رأس أبى .. رغوة ممتزجة بالدم . تمدد . لاكانت ركبتاه مثنيتين . تهاوى الجسد ثم الرغوة .. لا الرغوة أولاً والجريدة ، والرجلان .. أين اختفى الرجلان ؟

لم يسفر التشريح إلا عن حالة فريدة من انفجار الدماغ . قال الطبيب وهو يفرك صدغة ، بلغة طبية لاتخلو من الاستغراب :

- هذه واقعة نادرة ، قد تنجم عن ارتفاع هائل ومفاجىء بالضغط ربما بسبب التعرض لانفعال شديد .

ثم رفع حاجبيه ، وطرفت عيناه بسرعة وأكمل : أو كلاهما .

فى المأتم البسيط المقام على روحه حضر القليل من الناس ، فلم يعد الناس يبكون شيوخهم ، فدموع أكثر حرقة كانت تسفح على صناديق خشب مقفلة كانت تضم رفاق الموتى من الشباب أو بقايا أشيائهم إن تمكن أحد من التعرف عليها كانت الحرب الطويلة تستهلك ذبالتها . وبأنتظار توقفها كانت الزفرات تتصاعد برمة بأنتظار الخاتمة .

كفراشات بأجنحة سود ، راحت نسوة دار الرضوانية يتخاطفن بين الغرف الموحشة لايفقهن من أحزانهن إلا ماتحتمله ارواحهن الغضة . فتجلس هانيا منكبة على فضائل منقبة عن جسد والدتها ، وتعتكف سبل فى صومعة سكوتها بعد أن حملت نفسها خطيئة أخرى هى : موت أبيها .

كانت على قناعة أكيدة أن الأمر ليس بعيداً عن أصابع نواف الضامن بمحاولاته المستميتة لاستعادتها ورفضها العنيد له . رشقته ببصقة عنيفة عندما جاء ليعزيها بأبيها . كانت تصرخ بهستيرية مخيفة بكلمة واحدة : قاتل ... قاتل !

بعينيه الغزيرة ببراءة الملائكة سمعتة يقول إنه سيفعل أى شيء لإرضائها وقف بعيدا عنها متذللا ، تنطق أمارات وجهه بالإثم الباحث عن التوبة .

كانت سبل وسط أمواج نوبة هياج ساحقة ، فهجست مرائى بأنها ستقتله حتمًا فدفعته حتى الباب الخارجى ، يتوسلها أن تمنحه حق المحاولة مجدداً .

كان يعرف إن جدار الدم القائم لن يزول ، ولن تمحو آثاره كل باقات الزهور البيض المغسولة بدموعه السخية ، ولا الرسائل التى تتمزق بين يدى حامليها ، ولا الوقفات المنهكة لساعات ذابلة أمام شباك غرفتها محتفظاً بمنديلها الوردى المطرز بتيجان بيضاء ، فكان يمسح به دمعه أمام النافذة ساهماً غير مهتم بنظرات الناس ، فتصرخ من أعماقها كلما خلت إلى نفسها مؤنبة إياها .

- لو أنك امتثلت لأمر نواف بالعودة لبقى مرتضى حيًا !

ويتحد الصوت ثمة مع ذكريات موت أخيه تغلب .

- لو أنى أبكرت قليلاً . ثانية فقط لكان (تلغلب) حياً .

فتستغيث جزعاً ، وتهرب من النداءات اللجوجة فى دمع تسفحه ، حيث لن تعد أحضان مرائى كافية تخدير أحزانها وكم بدا غبياً أن تسمع مجدداً .

(كل شيء سيكون بخير!)

كانت فى لحظات جنونها تترك صوتها مرسلاً إلى أقصى ما تتمكنه حنجرتها .

- لاشىء بخير .. مراثى أيتها الغبية ، لاشىء سيكون بخير !

وكانت مراثى هناك تواجهها بوجه فقد الحيلة ، يتقطر من عينيها حنان عاجز ، وبلحظة غباء حقيقى منحت أختها المتورمة من أوجاعها أجمل الضحكات وأطولها حتى ظنت أن سبل ستجن . ففى عمق نوبات الألم كانت سبل تمزق ثيابها ، تخمش صدرها عله يوقف دقات القلب ، تحيطها مراثى بعينين حائرتين يعصف بها حزن وجل نطقت كما هى معتادة .

آه يا سبل كل شىء سيكون .. سيكون بخير .

بهتت سبل فى وجهها . أطالت النظر الى أختها وعضلات وجنتيها متشنجة ، ترتجف زوايا فمها بأمر لم تدرك مراثى ماهيته ، سوى أنها راقبت تلك التقلصات المنفرجة بهدوء أولى مندهش ، ثم بانفجار ضاحك ، أفزعها فى بادىء الأمر لتسقبله ببهجة سريعة . كانت سبل فى نوبة ضحكها تفيض مقلتاها بدمع غزير لايعرف المهادنة . تلوح بإصبعها إزاء مراثى تتقطع كلمة لم تتكون كاملة على شفتيها فلفظت مقاطعها وسط قهقهة عالية .

- بـ .. خـ .. ير

كانت سبل تدنو من مراثى الذاهلة بيديها المسبلتين على رجاء أن يكون كل شىء بخير ، فى تلك اللحظة وضعت سبل رأسها على كتف أختها وسط ضحكها الدامع مسدت مراثى شعر أختها المبتدلة أطرافه بلمسات حنون ، أكثر رقة من كل الكلمات لوقيلت ، وسمعت أختها بحزن تهمس بأذنها

- آه يا أجمل حمقاوات الكون ، أيمكن بعد هذا ، أن يكون كل شىء بخير !

هجعت سبل فى أحضان أختها كطفل يعانى عسر النوم ، تطوف على شفتيها بسمة مرتبكة بين الأمل واليأس متسائلة .

- أهناك متسع لخير قادم !؟

استعادت سبل شجاعتها ودربت نفسها مجدداً على النسيان ، كما فعلت في جرح حبها القديم وعالجت ندبة أخرى أضيفت إلى ندوب القلب ، وكانت تحتملها جميعاً دون أنين . وأعفت نفسها من الأنين والبكاء أو النظر إلى الماضي ، إلا في ليلة عودتها مع أختها من رحلة البحث المضنية عن لوضاح ، جلست على الكرسي في الغرفة المعتمة في غروب فيه المطر كثيف بلا رعود وبرق . ومن أنين قلبها سمعها الجميع . والتفت إليها المهلب بوجه طفل خائف أو ربما حزين .

- ياناس ، ألم تروا فتى جميلاً أسمه الوضاح ؟

ونادت من جديد على أبيها بإسمه .

- مرتضى .. يا مرتضى

قبل موته الغريب بأقحوانة رعبه ، بدأ مرتضى بمحاولات خجولة للبحث عن أبوته المفقودة ، فعلقت في ذاكرة الفتاتين محاولاته الخجولة ، مع الشيخوخة وإهمال العوراء له وابتعادها مع وليدها عنه ، كان جليد المشاعر يذوب ، فيقترب من فتاتيه أكثر ، حتى أنه تجرأ في ليلة عاصفة أن يطرق الباب على بنتيه . كانت سبل تقرأ في كتاب ما ، وأنهمكت مراثي بإعداد مذكرة مطولة لجلسة الغد في قاعة المرافعات الكبرى ، فقال وهو يستند بذراعه على الباب وكأنه يشكو من ألم في أحشائه .

- هل ستسامحانني يوماً ؟

كانت كلماته تتلوى فوق شفتيه ، تنزف صوتاً فاض بالندم وإحساس هائل بالخطيئة ، بهت الدم في وجه ابنتيه ، طرفت سبل بعينيها ، وسمع صوت ازدراد مراثي لريقها .

- لم أكن أباً طيباً ، فأنا لم أحبكم كفاية .

سمعتاه معاً دون أن تصدقا . أقفل الباب خلفه . نزل الدرج بصعوبة ، تقطعت أنفاسه ولم تستعيدا انتباههما إلا عندما جاءهما صوت اصطفاق باب غرفته .

فهمست مراثى متسائلة .

- من كان هناك قرب الباب ؟ أكان هو حقاً ؟

أغلقت سبل دفتى كتابها . واستدارت فى فراشها إلى الجدار ترسم سبابتها أشباح كلمات لم تقلها ، وعادت مراثى إلى صمتها ، وأعفتها مذكراتها القانونية من الاسترسال فى التفكير ، لكنها فى الصباح التقته فى وسط حرش النارنج .

- إلى المحكمة ؟

- نعم بابا .

- سأدعو لك بالتوفيق .

فوجدت نفسها لأول مرة فى حياتها تطبع قبلة على خد أبيها ، وبقيت حتى دلفت باب قاعة غرفة المرافعات تقابل وجه القاضى الرصين وهى تردد .

- لقد قبلته !

كان عشاءاً بسيطاً قد أعد ، جلس المهلب يبتسم ببلاهه ويدس أصابعه فى صحن الحساء يلعقها الواحد تلو الآخر ، يقطع بعبث رغيف الخبز إلى قطع عديدة يختار أصغرها فيغمسها فى الحساء قبل أن يضعها فى فمه فيمتلىء ذقنه بفتات الخبز وبقايا الطعام ، ملوثًا ذقنه الجميل برصعته العميقة الآسرة لمراثى فى صباح ضباب الحسب الفضى ، فكان الوليد ينبهه فى كل لحظة إلى استعمال الملعقة فيرفع المهلب كتفيه بنزق علامة على الرفض . ويعود مجدداً إلى لعبة الأصابع .

كـان نور المصـبـاح الشـاحب يضـفى هالات سـوداً تحت جفنى الأخـتين العائدتين من رحلة البحث بخيبة وأكداس ألم يانعة فيرسم حــزناً مضاعفاً ، أطلقت سبل لأفكارها العنان وهى تمضغ بلا شهية طعامها ، مصغية لصمت البيت وأبوابه المغلقة .

- لم يحدث كل هذا ؟ كأننا نعيش فى مقبرة كبرى لم يبق من الماضى شيء كيف انحططنا هكذا ؟ إن المرء ليشتد به الحنين إلى أمجاده الماضية وإن كانت تبدو فى نظر البعض ساذجة ، عادية أو تافهة .

نهضت تتفحص فناء البيت الكبير الخــاوى . كـان قنــديل بنات فضائل يترحم من بعيد على أيام الأنوار الملونة . كن فى غرفتهن الواسعة يتدثرنَ بمخاوف شتى . فبعد رحيل فضائل المــروع وغياب عامر أخيهن المفقود ، مسبوقاً بموت عبد الجليل بحبه الأزلى الحارق للوضاءة المغتربة على شرفات الثلج ، لم يعد لهن سـياج يحميهن ، فكن يتكتمن بحرص مبالغ فيه على أسرارهن الصغيرة ، ولايتجرأن على البوح بأدنى التفاصيل تفاهة ، فتستفيق كبراهن بجلدها المستعير للون حريق أمها على غناء ذاو تتسلى به فى وحدتها تطالع وجهها فى المرآة تبحث عن جمالها المضيع فى أوهام الأيام . كما أن القادرية التى كفت عن جبروتها مذ عجزت أمها السلطانة عن تدبير رجل يسر رغباتها ، فاكتفت بمراقبة أبنائها الأربعة يتسلقون مجداً رسمته الجدة بحنكة علاقاتها الوثيقة بذوى الشأن السلطانة المتوفاة حديثاً عن عمر ناهز الثمانين ، منعمة بميتة هينة فى فراشها الوثير ، بعينين مفتوحتين على سلام غريب ، خرجت خلف جنازتها كل فراشات اللذة يبكين بحرقة الراعية الكبرى لمسيرة المهنة كن يذرفن الدموع السخية بحرقة من ضـيعت فـلذة كبدها ، ويضربن الصدور المتورمة فى وداع راقبه الرجال بفحولة مواسية ، وضحكت منه النسوة المستترات خلف النوافذ يمارسن لصوصية متأنفة .

أقيم لها مأتم بهى حضره خفية أناس ذوو شأن كانت تربطهم بها أواصر سنوات المتع الخفية . لطمت ربيباتها وجوههن حتى تورمت ، وأقفلت بيوت نعمة الهوى السرى لثلاثة أيام متتالية حزناً عليها فى بيتها الموصى بأن يكون وفقاً لطلاب الغرام الباحثين عن حب مأجور ولبنات التعاسة ونصبت عميره أخيراً سلطانة جديدة حافظة لمسيرة الفتيات عاثرات الحظ .

فعلقت صورتها بقرب صورة السلطانة المؤطرة بزينة الحداد ، تلمع خواتمها الذهب ، تبرق عيناها بسطوة باهرة ، بعد أن أجُر رسام آخر ليكمل رسم الوجه ففى أيام التظاهرة الفريدة غير المتكررة الصادحة فى شوارع العاصمة استعانت السلطانة برسام يرسم للباشا صوره شخصية تقديراً لجهودها الفاشلة فى إرساء قواعد نقابة شرعية لبنات المهنة . رقدت عارية فى بركة الماء الداخلية للبيت السامى يرش الماء جسدها بقطرات رائعة شهية . ظلت لأسبوع تتقلب لاهية تحت وقع نظرات الرسام الراكض كل لحظة إلى الحمام صاباً الماء البارد على رأسه ليصاب آخر الأمر بزكام شديد ونوبة صرع غريبة لم تطفىء لفحها عدة نساء لأن عميرة امتنعت عن رغبة فى الإمعان باثارته .. أنجز الصورة بلا وجه .

قال إنه لن يتمكن من رسم ملامح الوجه لأنه لم يسيطر على تحديد تلك المرأة الفاتكة لعقله ، لم يحزر إن كانت بشراً أم شيطاناً فترك الوجه بلا ملامح وظل كلما لمح رشيش مياه نافوره ما ترتفع إلى جمجمته إحدى نوبات الصرع تذكره بوجع رغبته بأمراة تقلبت عارية أمامه لأسبوع متصل دون أن تمنحة رحمة ملامسة جلدها .

لم يعد للقادرية فى البيت الكبير معركة تعنيها ، فقد أخذ التراب خصوماً قدماء كان مجد التغلب عليهم يغويها . غاب مرتضى فدفن مع جسده ثأره الأزلى ، وأحرقت فضائل نفسها فأنسل التنافس من بين يديها

وبزمن أسبق كانت حربها مع البلورية قد فقدت خصائصها ، ولم تكن العوراء تشكل بالنسبة لها سوى مخلوق بليد تافه غير جدير بالملاحظة وإن كانت قد أستعانت بها لإذكاء مكائد صغيرة في مراحل ماضية ، إلا أن الأمر قد قضى الان فكانت تسخرها لتلوين ضجرها بنقل أخبار المحيطين بها فتتسلى قبل أن تنام .

تساءلت سبل وهي تسمع البيت بنظراتها وقد غلبها صمته وكآبة ظلمته .

- ألايجدر بالجهم أن يعود ؟

مد الوليد ساقه الوحيدة قبل أن يجيب .

- سيعود متى أدرك أن عليه أن يفعل ذلك .

- ولكنه الآن يجب أن يعود. نحن بحاجة إليه . ألا يمكنك أن تتصل به ؟

- ليس الأمر سهلاً أين أجده .

مسحت مراثي فم المهلب ودفعته إلى الخارج برفق ليغتسل . صبت له قليلاً من الماء من دلو صغير ، نقلت ماءه من النهر بعد جفاف المياه في حنفيات الدولة ، وضعت بين يديه قطعة صابون تشممها كعادته في شم الأشياء ، قبل أن يفرك كفيه فرحاً بالفقاعات العطرية ، سمعت سبل وهي تتذمر من غياب لجهم فحسمت كل قناعاتها بسؤال بسيط .

- ماذا بإمكانه أن يفعل ؟

انكفأت أحلام الجهم في إشعال حربه البرية ، وعاد يلم الخرائط الحربية ، يرفع عنها الدبابيس الملونة المؤشر بها مواقع العدو ، بافتراض معاركه المتوخاة مع العدو في مغيب يوم انسحاب الجيش من حربه البرية التي لم يخضها ، فقد الجهم حصانة أحلامه البطولية .

لبث فى الليلة الأولى غير مصدق لكل مايسمعه من نشرات الأخبار شتم بغضب أول زغرودة فرح أطلقتها جارة لهم بعودة ابنها . حطم أثاث غرفته ، ترمقه أختاه بصمت فى لجة الغضب المدير الذى يداهمة وهو منسحق بخيبته ، فى كل لحظة يعود لوعيه فيقول بضع كلمات تبدو غير مترابطة .

- هذا غير صحيح لابد من أحد هناك أحد هناك أحد مايقاتل .

تشبث بإخلاص بنتف حكايات تساقطت من أفواه الجند المتعبين تؤكد أن البعض هناك مايزال يرفض العودة وأنهم بأنتظار أمر ما . أمر لن يحدث على الاطلاق .

فى صبيحة اليوم الرابع للانسحاب ، وكانت زخات المطر السود تدفع بسيول سماوية كثيفة ، وبعد أن أصبح الأمر حقيقة ثابتة ، وجدوا فى غرفته ورقة كتب فيها باقتضابه المعهود .

- قد أعود ، وقد لا أعود .. ! لاتبحثوا عنى .

كانت غرفته قد احتفلت بمهرجان الأوراق وفوضى تمزيقها ، تبدو كمكان أنتهت فيه احتفالات ما وانفض عنه الساهرون ، تبعثرت مقطعة أوصال الخرائط العسكرية المعدة على مدار أربعين يوماً ، ومزقت نتفاً مخططات هجوم مؤمل كلف نفسه بها ودقق كثيراً بتفاصيلها ، كانت معلقة على امتداد جدران غرفته مؤشرة بدوائر حمر على مواقع الجيش ، ودوائر سود على مواقع العدو ، راسماً أسهماً برؤوس حادة باتجــاه الجنوب ، فى الاتجاه الذى افترض أن الحرب البرية ستبدأ منه . نظم بتمرس فاخر أرشيفاً ضخماً ، مؤرخاً البيانات الحربية لحظة إعلانها ، حتى إنه كان يطابقها على توقيت ساعة غرينتسن توخياً للدقة التاريخية . طوال الزمن السحيق للحرب الجوية العابثة بالوطن بمهرجان صاخب الرعب والضوضاء ، راقب ارتجاجات البيت كان يطمئن نفسه ، فيجمع كلتا قبضتيه كازاً على أسنانه :

- هناك سيكون الحسم .

فى لحظة المرح المستحب حين يعلن عن سقوط طائرة وأسر طياريها ، كان يضرب على كتف الوليد ضاحكاً :

- سأعينك مستشارى الخاص !

ملوحاً بذلك لخبرة الوليد بساقه الوحيدة المتبقية إرثاً من الحرب الطويلة الماضية ، فكان الوليد يبتسم بطيبة ، هو يفرك فخذه المهجورة الساق ، مسلياً أخاه المستشار ، هارباً من ضجر ليل القصف المنهك للأعصاب ، يحدثه عن بغله العتيد محجوب الذى ألقى بنفسه فى لحظة عصيان ورفض للتعب والأوامر ، من أعلى الجبل ، لأنه لم يعد قادراً على عناء أكبر !

- تخيل .. إننى أذكر حتى هذه اللحظة : الشكوى العميقة المنطلقة من عينيه الواسعتين كما قد قطعنا الليل كله فى حمل العتاد إلى الرابية ، مرة نضربه على كفلة حاثين أياه بالنشاط ، ومرة نربت برضا على اذنيه لكنه فى النهاية لم يصمد تصور خبثه لقد انتظر حتى وصل القمة ليلقى بنفسه مع العتاد إلى أسفل الوادى لكنه شريف لقد ألقى بعتاده عند أعتاب وادى العدو شريف والله العظيم !

تذكر الوليد ساهماً الهجوم الأخير له عندما تخلى عن ساقه . كانت موجات العدو تتتابع فى هجوم يشبه اليأس ، فيتزلزل الجبل تحت أقدامهم وتتساقط الأحجار ساحبة معها أجساد الجنود المنهكة فيمتص الوادى أصواتهم المستغيثة ، لتهدأ ثمة بعد أن يرتطم الجسد الساقط بالصخور مطلقاً ضجة مكتومة .

كل ليلة ، ولسنوات عديدة ، كان الوليد يصحو فزعاً من كابوس مدمر تحدق فيه عينا صديقه إبراهيم كان يرى صديقه عندما تراجع عليه المدفع ، فاحتضنه بجسده ، ولبثت القنبلة الثقيلة داخل أحشائه المرصوصة بالتراب ،

فيبصر ملء العين ، خيط الدم النازف من شفتيه رفيعاً متعرجاً ، ونظرات إبراهيم المتألمة الفزعة غير المصدقة ، تنادى بالخلاص تلك هى المرة الوحيدة التى كره فيها الوليد مدفعه ، فكان يحدثه برجاء لاينقطع ، أن ينهض عن صاحبه ، ظل أثر جسد إبراهيم محفوراً فى الأرض ، كان يخيل للوليد أن نبضات قلبه ملتبسة مع الوحل ، وأنها هناك وحدها تنبض بتعسف الألم . فى تلك الليلة استعان الوليد ببغله محجوب وعشرات الأيدى والاجساد البشرية لرفع المدفع المتهاوى فوق جسد إبراهيم ، فى اللحظة التى رُفع فيها المدفوع شهق إبراهيم ، شهقة موته الوحيدة واندفع الدم يتدفق سريعاً يملأ الفجوة فى أحشائه ويفيض فوق التراب متفرجاً على أوجاع جسده . لم يعف الوليد نفسه من مسؤولية مكافأة محجوب الذى كان يقف قريباً منه يطرطق بأذنية ، لاهثاً بخار تنفسه الحار ، فنال قبلة قوية من الوليد وباقة كبيرة من أزهار الجبل وبعض السكر تلمظ كثيراً بعدها .

- لقد انجزت الأمر بشكل طيب عافاك :

طبطب على ظهرمحجوب ومضى يبكى قرب الحفرة المدماة المتخلفة من ألم إبراهيم فى الليلة الثالثة للهجوم المتواصل ، انتحر محجوب ثلاث ليال لم ينقطع فيها الاسترسال المتدفق للموجات البشرية صارخة باسم الله ، ونشيد القصف قصير المدى والبعيد منه يتناغم بأغنية تبهج الموت ، المحتفل بمئات الأجساد على سفح الجبل اختلطت فيها دماء الفريقين ، ففى الموت تتشابه الأجساد فى فوضى تشويهات قاهرة .

فى اليوم الرابع مع غبش الفجر كان إبريق الشاى ينز لأول مرة منذ بدء الهجوم . جمع الوليد المتبقى من فصيلة وقال لهم :

- ياشباب لقد تفوقتم بصبركم على بغلى العزيز محجوب إنكم بحق أثبتم بأنكم أشد عناداً من البغال !

ألقى الوليد نظرة وداع مفعمة بالحزن على حفرة إبراهيم التى لم يجرؤ أحد على ردمها ، فقد تركت تصرخ من الألم بهسيس حزين كلما تساقطت عليها ذرات التراب ، تركت للعراء ولريح الجبل تضمد جراحها فكستها الأعشاب بأحشاء جديدة .

- يابغالى العنيدة الطيبة . إنكم لم تتركوا الأرض لم تخذلوها .

وصاح صوت زيدون الحلاق وهو يلقم إبريق الشاى .

- نعم إنه المهم لم ينسحب أحد والموقع لنا ... بقى لنا .

كان الجهم يزداد استثارة وغضبا كل يوم من أيام القصف الأربعينى ، فينطلق كقائد عسكرى معزول ، فى جولات تستغرق سحابة النهار متفقداً مايمكنه بلوغه من أماكن متضررة وحين يعود كان يردد دائماً :

- كل هذا لايهم ليستمر القصف ماشاءلهم لن يحسم الجو معركة .

ويضرب الأرض بقدمه :

- هذه هذه التى تحدد من هو المنتصر .

فى عصر مدلهم فائت ، قبل أن يدلف إلى الباب الكبير حثته (مراثى) بالإسراع :

- اظننى سمعت أمراًما . أسرع أنهم يعلنون عنه فى الإذاعة .

فى الشارع الخلفى لبيتهم بدأت ضجة غير معهودة . هبت سبل من مكانها تعثرت بعصا الشيخ وبكفنه المصنوع بعيون أصابعه .

- انهم ينسحبون .

قالتها ومضت إلى الشارع تتسمع الأخبار خرج الجهم خلفها راكضًا . فى الهزيع الأخير من الليل عاد منهوك القوى . حاملاً لمشعل جديد اتقد من حماسة أفكاره :

- إنــه فخ تكتــيكى ! مصيدة . مصــيدة نعدها للمغفلين . يجب استدر اجهم !

ونام متكوراً على نفسه كطفل خائف .

بعد أن يئس من انتظار أفخاخ المغفلين ، ومن المصائد المعدة ، ومع عودة طلائع الراجعين ترك كلماته ومضى .

كانت سبل فى تاملها لخواء البيت ، ترفع قلبها لمناداة أخيها بالعودة باحثة مع أختــها بأمــل لايكــف عن الوجيــب عن أخيــهم الوضاح .

قبل أن تقرر مراثى بشكل قاطع لارجعة فيه ، أنها لن تعود إلى عملية البحث الحزينة كان المطر ، ينقض برشقات عدوانية سريعة لحركة ريح أخر الشتاء الدافئة ومضت فى الأفق أشارات وردية خجولة معلنة عن مغيب جلّل العاصمة بهدوء حزين كان المطر قد غسل زجاج صورة الوضاح شرعت مراثى بسؤال كل من تصادفة من الجند

- أتعرفة ؟

تعثرت بجسد جندى توسد الأرض غير آبه برشقات المطر ، أستعجلت سؤاله .

- أتعرفه ؟

أدركت ، أنها قد قامت بطرح سؤال غبى عندما نهض الجندى مستنداً على كوعية الغاطسين فى الأوحال . ألقى نظرة فاترة على زجاج الصورة المبلل هازاً رأسه بالنفى .

رفعت (مراثى) قامتها وجالت بعينيها فى الساحة الواسعة الموحلة المكتظمة بالجنود والباعة المتجولين . كانت أجساد الجنود المنهكة مطروحة كيفما اتفق تحت المطر ، أوتحت كابينات المحلات المقفلة وفى داخل العربات اليدوية المتروكة أو على متونها يلتف حول عجلاتها الصدئة سلاسل حديد

وأقفال قديمة ، وأشعل البعض نيراناً فى براميل النفايات ، تحلقوا حولها يخفون سجائرهم المبللة بين أكفهم ، يهمسون بكلام خفيض .

همست بقلب واجف .

توقفت ناقلة عسكرية شبه معطوبة أحرق غطاؤها ، تحمل جنوداً رصوا على بعضهم يحيطون بجرحاهم ، فامتدت عشرات الايدى ، تطلب الغوث ، وتعالت أصوات الأنين .

- أمسكه من هنا .

- أرفعه هكذا .

- لك آخ يابه ..

- هذا واحد ميت .

ترجل بعض الجنود ، حفاة شبه عراة ، بثياب ممزقة ووجوه اختلط فيها الدم والتراب والدخان . فرشت بطانيات لفت بها أجساد القتلى .

اقتربت مراثي تتبعه سبل من الحشد الواصل تواً من أتون الحريق ارتجت الصورة فى يدها وأنسحقت تحت جفنيها دموعاً ساخنة . أسرعت فى البحث بين وجوه القتلى ، كانت أنفاسهما تتلاحق ووجيب قلبيهما يسمع على بعد أمتار .

- سبل أهو بينهم ؟

أعادت سؤالها بحرارة وخوف .

- أهو بينهم ؟

استغاثت مراثي وهى تضم يديها الواحدة للأخرى فيما يشبه الصلاة ، وحركت رأسها بالنفى دون أن تتكلم غاصة بعبراتها .

لم ينقطع النثيث ، وازدادت حلكة الظلام حولهما ، اقترب منهما رجل مسن قائلاً .

- إنه الليل ألا يحسن بكما .. أحم ألايحسن بكم أن تذهبا . إنهم متعبون خائرو القوى لا أظن أن أحدا يحفل بهذه الصورة ؟

- ألم تره ياعم ؟ أظنك دائم التواجد هنا .. ألم تره ؟

بحلق الرجل فى الصورة . فى الوجه النظيف والشاربين الأشهبين ووميض العينين ، ثم أجال بصره فى الوجوه الكالحة النازفة يلوثها الوحل والدمع والدم والفجيعة . لم تسعفه شفتاه فى خلق جملة تواجه سؤالهما كيف له أن يتعرف هذا الوجه النظيف ذا الابتسامة المشابهة للألق بين هذه الوجوه المتهدمة . برقت السماء وامتد شريط رفيع أضاء الوجود للحظة كافية لأن يلمح خيط الدمع الممتد على وجنتى المرأتين . أشار الرجل بيده إلى المقهى .

- ادخلا هناك لعل الضوء يسعف ذاكرة أحد ما .

غص المقهى بسحابة كثيفة من دخان السجائر ورائحة الشاى والسعال المختلط بعفونة رطوبة الجدران المتقشر طلاؤها ، وضعت فى الزوايا بضعة فوانيس . طفق رجل يبكى بصوت مسموع ، تحلقت حوله ثلة من الجنود ، كان أحدهم يعض غطاء رأسه كاتماً صرخات تكاد تفلت من بين أسنانه . انقطعت همهمة الجنود برهة وجيزة لما انسكب على وجه المرأتين ضوء الفوانيس الشاحب المرتجف . طافت (مرائى) مثتبة يديها فوق إطار الصورة متنقلة بين الوجوه بسؤالها الوحيد .

- أرأيتم هذا الفتى ؟

اندفع نحوها جندى هزيل غارت وجنتاه تحت ذقنه النابتة ، ولطخ الوحل وجهه ، حدقَ فى الصورة ملياً ، رمشت عيناه بحركة سريعة .

- إنه الوضاح ؟

التفت إلى صحبه الجالسين خلفه بأقصى زاوية المقهى ، وأعاد القول بتأكيد أشد .

- إنه الوضاح

اختلج وجه سبل ، ومسحت بفرح زاد الدمع الهاطل من عينيها المتورمتين ، هبت مراثى يرتعش صدرها بالأمل .

- لقد عرفوه

مد الجندى سبابته إلى الصورة .

- أليس كذلك .. الوضاح ؟

انكبت مراثى على كفيه تلثمهما وهى تنشج ببكاء حار ، راقب الجندى باندهاش كبير قطرات الدمع المتساقطة بقعاً على كفه المتسخة دون أن ينبس بحرف .

- أرجوك قل هل رأيته ؟ متى ؟ قل

حك الجندى الهزيل شعر رأسه المشعث ، واستعان بنظرة سريعة بصحبة الذين تركوا أماكنهم مقتربين من المرأتين ، تبرع صاحب المقهى مؤنباً أياهما .

- كفا عن البكاء .. اتركاهم يتكلمون !

أكد الجندى لنفسه وكأنه يستعيد وعيه .

- الوضاح الرضوانى أعرفه طبعاً نعرفه جميعنا ، أليس كذلك شباب ؟

- أين هو ؟ ألم يعد معكم ؟

ابتلع الجندى الهزيل نشوة ابتسامة طافت على محياه ، حرث ذقنه باصبعه القذرة وكمن يخرج من حلم ثقيل .

- قبل أيام ، ربما أسبوع ، من يذكر الزمن ! لا أدرى متى ،لكنه أحضر لنا الماء ، كدنا أن نموت عطشًا والطائرات بنات الكلب تلهو بنا ، تصطادنا . كل

الطرق مدمرة ، عربات المؤونة لم تعد تصل إلينا . أيام مرت ونحن نلوك الرمل ونبتلع الدخان . أخبرهم كيف قضعت الطائرات أخر تانكر للماء فتحولت العربة المحملة بالماء إلى مصيدة لالتقاط الجنود الزاحفين من عطشهم إليها وصف الجثث التى كانت العشرات تعشش حول العربة تنقر عيونهم الغربان وتحط حول أجسادهم الملتوية المسودة الدم . كان الجندى الهزيل يشتم شتائم بذيئة : -

- أولاد القحبة كنا نموت عطشا والماء على مبعدة أمتار عنا ، نمد أعناقنا من فتحات المخابىء لنشم الماء فنرى الطائرات تحلق مصفقة بأجنحتها الشامتة وكأنها باستعراض عسكرى بطيران منخفض ، كنا نحاول أن نسقطها لقد أفلحنا وفعلناها مرة .

وشرح بانفعال شديد مصوراً مشهد الطائرة وهى تحترق وتنحدر بحريق جر خلفه ذيلاً طويلاً من الدخان لتنفتح بثانية خاطفة زهرة بيضاء فى الأفق حاملة جسد الطيار .

- والله ياشباب أتدرون مافعلنا ، كنا غاضبين يكاد يهلكنا العطش والجوع زحفنا خارج المخابىء استلقينا على ظهورنا . ماذا أقول لكم كنا يائسين ، أولاد الكلب لديهم هذه الطائرات السريعة فيتباهون بها لكننا فى تلك المرة حصلنا عليها ، لن أنسى منظر الذيل الدخانى الطويل المنحدر من مؤخرتها .

استغرق الجندى بالضحك وهو يضيف :

- وبخنا آمر اللواء قال وهو يكاد يبكى : - أأنتم مجانين ؟ سيحصدونكم بالعشرات !

قال الوضاح وقتها مايزال صوته يرن فى أذنى : - نحن سنموت على أية حال ، لنأخذ ثأرنا مسبقاً !

حدق الجندى ملياً فى الوجهين المكفهرين ، كان يتكلم دون أن يكلف نفسه بالسؤال إن كان أحد يهمه أن يستمع له ، تقرفص يلم بيديه ركبتيه إلى صدره .

- لكننا مع ذلك كنا عطاشى . فى الفجر زحف الوضاح ، عازماً على إحضار الماء ،كأفعوان زحف إليه ، ربط الجريكانات على ظهره بالحبال ، وسحب آخرين خلفه لو علم الأمر وقتها لانتزع له أذنيه ،

ضحك الجندى متفكهًا وهو يتذكر : -

- لو أنكم رأيتموه كيف كان يحلق للآمر شعره ، وكيف يداعب القمل المتساقط على كتف الرجل ، وقد جمعهن الوضاح فى علبة كبريت . قبل أن ينتصف النهار عاد بثياب ممزقة ، حزت الحبال خاصرته ، قال إنه أحرق عربة الماء وجميع جثث الجنود المتكسدة هناك

سألته سبل متلهفة : - متى كان ذلك ؟ لعلك تذكر متى رأيته ؟

ظل الجندى مسترسلاً ، غطس رأسه بين ركبتيه النحيلتين فجاء صوته عميقاً كأنه خارج من بئر عميقة .

- لو بإمـــكانكم أن تتخيلوا وجه آمر اللواء ، أمسّله من كتفيه .

قبل جبينه ، صفعه بقوة قلنا جميعاً ، جن الرجل ، فقد ضم الوضاح إلى صدره ، وكان يجهش بالبكاء : - إلا أنت يا وضاح .. لن تموت وتتركنا

همست (سبل) بنجوى أشواقها : - إلا أنت

زار جندى من منتصف المقهى : - اخرس . أنت كاذب !

رفع الجندى الهزيل كفه فوق شاربة : - أحلف بشاربى ، أحلقه لأصير نصف امرأة إن كنت أكذب

صرخ آخر : - اسمع ،لم يعد هناك شوارب يحلف بها !

استنجد الجندى الهزيل بأصحابه : - اسألهم ، هؤلاء فصيلى استنجد .

نادى بكامل حنجـرته : - ياشـبـاب لواء ٢٥ ، أهناك أحـد منكم .. ياشباب الدروع

اقتربت منه وجوه كالحة ناحلة تحمل تضاريس معاناة لم تنقض بعد ، تحلقـوا حـوله المرأتين والجندى الهـزيل ، تناول أحدهم الصورة وأجلسـهـا على كرسى بلا مساند .

- أجل . أنا أعرفه . لست منهم

وأشار إلى جنود اللواء ٢٥ ، وتقلص وجهه بموجات حزن غلبه برهة قبل أن يتدارك أمره ، فح صوته المبحوح : لست منهم ، لكننى أعرفه ، رأيته .

تحشرج صوته مجدداً كمن كف عن بكاء حارق . أغمض عينيه غارقاً فى لجج دومت فى ذاته ، كان تنفسه مسموعاً : -

- كنا نركض كـذئاب نعوى يصرخ بعضنا على بعض نرى أصحابنا يتهاوون بالعشرات مبقورى البطون تتشظى أوصالهم ، يزحفون بلا أيدى ، يركضون من حلاوة الروح بلا أرجل !

ضرب الرجل رأسه بكلتا يديه : - لم نكن بشراً ، ماذا كنا ؟ إنه الذعر الفرار ، نركض مسـعـورين لاندرى إلى أين ،، يطوقنا اللهب ، يضج الكون حولنا بألوان شتى ، لاشىء يسعفنا فنحتمى بالركض المسعور نحن أولاد الزنى استعرنا من رهبة الموت . أرجلاً أخرى . نريد أن ننجو لم نبق ذخيرة أو أسلحة أنا رميت كل شىء خلفى كنت بالكاد أحمل جسدى أريد أن أصل هل الجحيم عند رب الناس يشبـه هذا ؟ ياالله أين كنت وأنت تراهم يمضغوننا بأنياب الناس والصواريخ .. ياالله .. !

انتصب رأسه مطالعاً فضاء المقهى المثقل بدخان السـجائر والأنفاس ، كان يجهش بالبكاء وهو يتذكر : -

- لا أريد أن أتذكر شيئاً . كم كنت أريد العودة كنت أسمع صوت أولادى استعطف الله أن يرجعنى لأجلهم الآن أنا هنا لاأجرؤ على رؤية أحد . ها أنا مزروع هنا فى هذا المقهى منذ البارحة . ماذا سأقول لهم . أسمع الرجال هناك ، أسمعهم يتصارخون .. يايمه .. اخوتى لاتعوفونى .. لك داد جرنى لأجل أولادى ! من يطفىء النار فى جمجمتى من ؟ من ؟

بكت مراثى مجدداً ، ارتج كتفاها فلم تتجاسر على سؤاله :

- والوضاح ؟

كان الدمع يحفر فى خديه المعفرين خنادق حزن مخذول ، مسح أنفه بكم قميصه الملوث : إنه مجنون وضاحكم هذا ! ، أنا أحسده أظنه بقى هناك شدنى من قميصى ، هكذا . وجمع كفه فوق قميصه فانقطعت أزراره .

-قال لى لاترجع . لاتعودوا .. انظروا إنهم هناك أمامنا لنقتلهم . معى إلى هناك إلى الأمام . رأيت وجهه بوضوح لن أنساه ماحييت أسمعه يصرخ بى يؤنبنى . لن تحيا لو عدت راكضًا إنهم هناك كان يعدو صارخاً فى كل الاتجاهات إلى الأمام إلى الأمام . كنت أريد أن أرجع معه لكن هاتين ... هاتين وأخذ يضرب على ساقيه بشدة يلعنهما بقسوة .

- هاتين اللعينتين لم تطيعانى . وحدهما دون أمر منى كانتا تفران تتقهقران إلى الخلف وأسمعه يعوى يزأر : - إلى الأمام رأيته يلم الأسلحة يركض بين الخوذ المتناثرة يرمها فوق الأجساد المطروحة كيفما اتفق تحشو أفواهها الرمال . تتغدق عليها الدماء بآثار الموت وصوته يدوى : - لاترجعوا .. يارجال .. ألم تسمعوا .. اصمدوا .. هذا كذب . إنهم يكذبون إلى الأمام .

استرسل الرجل تحت وقع نظرات الأختين المشدهوتين بالحنين والخوف والكبرياء العزيزة يصغين إليه واصفًا تركه للوضاح : - لقد تركته لجنون دمه . كانت ثيابه ملطخة بالدماء ،لاأدرى إن كان جريحاً لاأدرى إن بقى حياً ، لكنه كان يشير بكلتا يديه نحو الأمام . يحفر فى خندق ردمته الدبابات على جنوده الأحياء . قلت له يامجنون إنهم مدفونون لن ينفعك أن تحفر ، لكنه ظل

ينقل التراب بالخوذة ، ويسكب الماء في الثقوب لعلهم يشربون . قلت لنفسى قد جن والله حين سمعته يقول : - اشربوا . أصحابى سأصل إليكم !

خبت النار في البرميل المثقب وهسهس الجمر ، حركه صاحب المقهى . كان الصمت الموجع يلقى خيلاته المتعبة على الوجوه مستعرضاً بؤسها . هب صوت سبل واهناً مخذول الأمل ، كوشيش النار التى كانت تخبو .

- إذن تركته هناك !

- تركته . أبصقوا في وجهى . إنى أحسد الموتى أحسدهم !

ثم علق مشنقة الصمت على حنجرته .

كان الليل المتربص بالعاصمة ، كثيف السواد تسلقت سماءه كتل غيوم تشابكت كأنها العناقيد المترعة وثمة ريح رطبة دافئة تنبىء بمطر جديد وشيك . من الشرفة العريضة المحدقة بالنهر ، أرسلت مراثى بصرها فوق حدود العاصمة المظلمة ، ارتجت بعض الأغصان بقطرات مطر انزلقت بصوت خافت على البلاط البارد ، أشعلت سراجًا وتسلقت أعلى العمود الخشب وتركت السراج معلقاً على مسمار كبير . تعبث الريح بذبالة النار النحيلة المهتزة تحت الزجاج فبدا في بحر الظلام الرطب كأنه إشارة بائسة لبحار منسى على شاطىء وحيد ، همست لنفسها :

- قد يأتى أحد

من خلفها جاء صوت سبل .

- اتظنين أن أحداً ماسيأتى ؟ أهناك قادم ؟

كانت عينا مراثى أشد حزناً من ذى قبل ونديتين جداً عبرت بنظراتها خلف حدود النهر والعاصفة المؤطرة بوميض احتراقات بعيدة لم يطفئها المطر بعد .

- ربما يأتى أحد

وأحست بكف سبل دافئة جداً فوق كتفها .

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلاموني
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - ليكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أو كيله
١٥ - الأسماء لا تليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	نقد	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليلى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى

٢٥ - أفراخ الحمام	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف
٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمرة وحيدة	قصص	حسن صبرى
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار الجنوبى
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العربى
٣٩ - عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠ - أولى أوّل	حكايات	محمد ناصر على
٤١ - وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢ - البت مصرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣ - قبل اكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤ - تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس فى المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى السنة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ما تحاولش	مسرحية	مصطفى سعد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٣٢٣ / ٢٠٠١



هذه الرواية تمتد قرنًا أو ما يقرب من القرن ، وتصور أجيالاً ممتدة من عائلة عراقية . وتتتبع الرواية فى اقتدار الخيوط التى تربط ملامح الشخصيات وأقدارها بتناقضات التاريخ السياسى والاجتماعى للعراق ، وتتوغل الرواية فى الحياة النفسية للشخصيات وتصور تدفق تلك الحياة وغليانها وأمواجها الهادرة .

إن هذه الرواية تقدم كونًا مصغراً حافلاً بالدلالة للوضع البشرى فى القرن العشرين لا لشعب العراق وحده .

